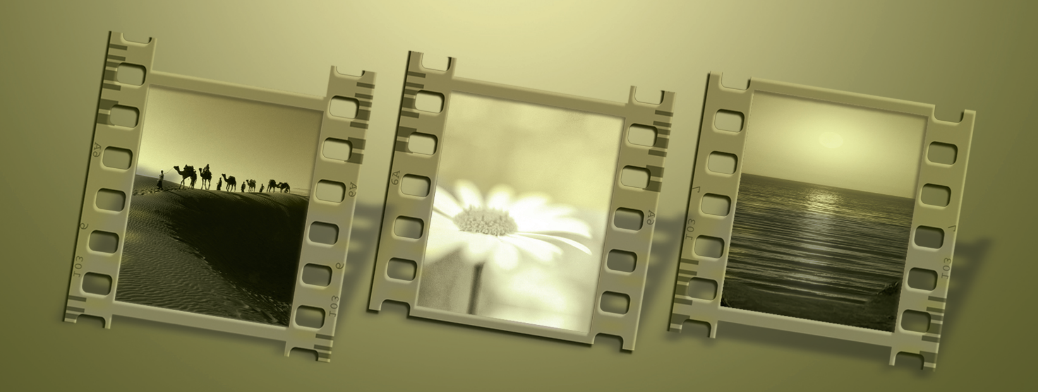
في ضوء القرآن الكريم



سلسلة الأنبياء

عثمان نوري طوباش







إسطنبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧/ ٢٠١٦

اسم الكتاب باللغة التركية: Nebîler Silsilesi -2

الترجمة للعربية: سلسلة الأنبياء -٢

مراجعةو تصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN٩٧٨-٩٩٤٤-٨٣-٣٩٧-٤:

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

العنوان:



Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

في ضوء القرآن الكريم

سلسلة الأنبياء

-٢-

تأليف

عثمان نوري طوباش

ترجمة

د. وسيم إبراهيم بكراكي

مراجعة وتصحيح وتدقيق

الدكتور. آدم آقيـــن

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء، ١٠٥)

﴿...وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف، ١٠٩)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم، ٩٨)

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان، ٢٩)

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأعراف، ١٥٣)

* * *

ويقول رسول الله ﷺ:

"الدِّينُ النَّصِيحَةُ..." (البخاري، الإيمان، ٤٢)

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ" (الترمذي، الفتن، ٩/ ٢١٦٩)

* * *

من المثنوي:

(إن القرآن الكريم هو وصف وحال الأنبياء. فإن قرأت القرآن متدبراً بخشوع وطبقت ما فيه، فاعتقد أنك التقيت بالأنبياء! ومع قراءة قصص الأنبياء، يصبح الجسد حبساً أو سجناً ضيقاً أمام طائر الروح!) مولانا جلال الدين الرومي


سیدنا
ذوالقرنین علیہ السلام

حامل راية التوحيد من المشرق إلى المغرب
سيدنا ذو القرنين
عليه السلام

أتي كلمة **ذو القرنين** لغة بمعنى «صاحب العصرين». ويُنقل عنه أن الله ﷻ وصفه بهذا اللقب لأنه تجول في الدنيا من الشرق إلى الغرب ينشر نور اللّٰه وينفذ أمر ربه بالدعوة إليه وإظهار كلمة الحق فوق كل ظالم.

ويوجد اختلاف ما بين أن يكون **ذو القرنين** هو نبي أو من الأولياء الصالحين. وقد ذكر في القرآن الكريم حملاته التي قام بها إلى المشرق والمغرب. وهو من نسل يافث ابن نوح عليه السلام. واسمه الأصلي هو إسكندر. ولكن، لا يجب أن نخلط ما بين **ذو القرنين** عليه السلام، وبين ألكسندر المقدوني. فإسكندر المقدوني الكبير الذي يذكر في التاريخ ولد في مقدونيا في القرن الثالث قبل الميلاد، ووصل إلى الهند. وكان تلميذاً لأريسطو. أما إسكندر **ذو القرنين** عليه السلام، **فكان يعيش في زمن إبراهيم** عليه السلام. بل وذهب معه إلى الحج، ونال من دعاءَهُ.

ولا يمكننا أيضاً أن نقارن أسفار إسكندر المقدوني بأسفار **ذو القرنين** التي كانت فتوحات من الشرق إلى الغرب. علماً أن كتب



التاريخ لم ترو لنا أن إسكندر المقدوني قد بنى أي سد من السدود في حياته. كما يمكننا القول بأنّ إسكندر المقدوني لم يكن رجلاً مؤمناً باللَّه أبدا. ولم يكن يتعامل مع الأقوام التي غلبها بالشفقة وبالرحمة. وبقارنة أخبار حياته المتفرقة، فإننا لا نجد أي نوع من التشابه بين حياة هذا الإسكندر وحياة **ذو القرنين** عليه السلام. أضف إلى ذلك أن إسكندر المقدوني لم يكن في حياته ما يمكن أن يستحق عليه لقب «**ذو القرنين**».

ويروى أن **ذو القرنين** كلف ابن خالته الخضر عليه السلام بقيادة جيشه. وحارب الكفار. كما أنشأ في وجه قومي يأجوج ومأجوج سداً بناه من الحديد والفضة. ونشر دين اللَّه وعقيدة التوحيد؛ فبلغ إلى الناس الحق والحقيقة.

وتوفي **ذو القرنين** عليه السلام في المكان الذي يعرف بين المدينة المنورة والشام باسم «دومة الجندل». ودفن بجوار مكة في جبال «تهامة».



وحسب رواية تفسير القرطبي، فإن هناك أربعة من البشر فقط من تمكنوا من حكم العالم بأجمعه. ومن هؤلاء الأربعة اثنان مؤمنون واثنان من الكفار. وكان المؤمنون هم **ذو القرنين** وسليمان عليهما السلام؛ أما الكافران فكانا نمرود وبخت نصر. ويروى بأن الإنسان الخامس الذي سيحكم الدنيا بأسرها مرة أخرى سيكون من

هذه الأمة. وهو ما ينسبه إلى المهدي المنتظر وذلك من خلال الآية القرآنية الكريمة:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة، ٣٣). (انظر: القرطبي، التفسير، ١١، ٤٧-٤٨)

وعندما سئل علي بن أبي طالب ﵁ كيف تمكن **ذو القرنين** من الوصول بقوته إلى مشارق الأرض ومغاربها قال:

"سخر له السحاب ومد له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء" (ابن اسحاق، السيرة، جـ١، ص٢٠٥)

❁

عندما كان رسول اللّه ﷺ يروي قصص الأمم التي مرت على مكة في العهود السابقة لأخذ العبر منها، بدأ اليهود والفارسيون برواية هذه القصص بحسب ما يتناسب مع أهوائهم. وكان في المدينة نفر من اليهود يؤمنون بظهور نبي في آخر الزمان يخرج من بينهم. فكانوا يقولون لمشركي مكة:

"ظهر من بينكم نبي، فإن كان نبياً بحق فاسألوهُ عن أصحاب الكهف، **وذو القرنين** وماهية الروح! فإن حدثكم عن أصحاب الكهف **وذو القرنين** بشكل كامل؛ وشرح لكم بشكل جزئي ماهية الروح فهو نبي بحق؛ فاتبعوه! أما إن لم يخبركم عنها بشيء فهو كاذب!".

ويأتي مشركو مكة إلى سيدنا محمد ﷺ ويسألونه:

"من هم أصحاب الكهف وذو **القرنين** الذي سار بجيوشه إلى المغرب؟ وما هي الروح؟"

وأمام هذا السؤال، أنزل اللَّه تعالى سورة الكهف. وتحدثت هذه السورةالكريمة عن **ذو القرنين** مبتدئة بقوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (الكهف، ٨٣–٨٤) (انظر: الألوسي، التفسير، جـ١٦، ص٢٤؛ الواحدي، ص ٣٠٦)

الأوصاف المهمة لـ ذو القرنين

١ . أعطى اللَّه تعالى **ذو القرنين** القوة. فقام بتنظيم الأسفار إلى المشرق والمغرب، وأنشأ **ذو القرنين** السد. وهذا السد مصنوع من الحديد والنحاس.

٢ . كانت الغيوم وسائر الوسائط الأخرى تأتمر بأمره.

٣ . كان عالماً ومقتدراً. ولهذا كان صاحب حاكمية وتصرف استثنائيين.

٤ . أحسن إليه براية بيضاء وسوداء. فكان عندما يضع الراية السوداء خلف جيشه أثناء مسيره في النهار يصبح كل ما خلفه في

ظلمة داكنة. فكان من يلحق به من الأعداء لا يتمكن من رؤيته ويضل الطريق ويضيع في الظلمة. أما في المساء، فكان يضع أمامه الراية البيضاء فيصبح ما أمامه وأمام جيشه مضيئاً كضوء النهار مما يساعده على الفوز بشكل ساحق أمام أعدائه.

٥. كان **ذو القرنين** عليه السلام حاكماً عادلاً ورحيماً مع أتباعه. فكان يقول للناس في الأماكن التي يفتحها:

«ما من مكان للقلق لمن لا ذنب له منكم، ومن أحسن فسيجد نتيجة إحسانه». فكان يكسب أفئدة الناس بتفهمه ورحمته ومسامحته معهم. وكان يحب كل ما هو خير للإنسانية.

٦. لم يكن إنساناً يغلبه حرصه. فعندما سأله الناس بناء سد لهم وعرضوا عليه الأجر قال لهم: «لقد أغناني اللَّه بما يحسن به علي عنكم. ليس عليكم إلا أن تعملوا تحت إمرتي فتساندونني بقوة سواعدكم.»

٧. كان رجلاً كريماً. فلم يكن كغيره من الملوك يسعى نحو امتلاك الثروة. كان حاكماً كثير الكرم، محباً للعفو، حليماً وعطوفاً.

٨. كان رجلاً متواضعاً، وقوراً وحكيماً. غايته الأولى خدمة الإنسانية وتأمين العدالة للمظلومين. فكان لا يسعى لرفاهية وثروة الحكام وإنما لخدمة الشعب.

أسفار دعوة التوحيد

كان **ذو القرنين** عليه السلام يتوسع في مملكته ويزيد من قوة دولته. كما بدأ بتبليغ أوامر اللّٰه تعالى ونواهيه. واتجه بجيشه الذي جمعه من المؤمنين إلى الغرب أولاً. ودعا كل من كفر إلى عقيدة التوحيد. واستمر في تقدمه إلى أن وصل إلى آخر بقعة أرض باتجاه المغرب. فانتهت اليابسة ووجد البحر من أمامه. وكانت الشمس تغيب كما لو أنها تختفي في نبع من الوحل الأسود. والتقى هناك بقوم كافرين. فآمن بعضهم وحارب مع من امتنع منهم وغلبهم جميعاً. ومن ثم تاب هؤلاء أيضاً والتحقوا بعقيدة التوحيد. تقول الآيات القرآنية الكريمة:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (الكهف، ٨٥-٨٦)

وعلى الرغم مما أعطي من صلاحيات واسعة، كان **ذو القرنين** عليه السلام يتبع بأعماله أوامر الوحي الإلهي:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف، ٨٧-٨٨)

وهكذا، دعا **ذو القرنين** الناس دائماً إلى الإيمان. فنجا كل من تبعه منهم، وعاقب كل من رفض طريق الإيمان.

ولما انتهى من تقدمه نحو الغرب، بدأ **ذو القرنين** أسفاره باتجاه الشرق. ووصل إلى حيث تشرق الشمس. تقول الآيات الكريمة:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا. كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (الكهف، ٨٩-٩١)

واستمر **ذو القرنين** يفتح المدينة تلو الأخرى متقدماً باتجاه الشرق إلى أن وصل إلى مكان انتهت فيه المدنية ووجد الناس فيها يعيشون بشكل بدائي (عراة دون منازل تأويهم) في آخر قطعة يابسة وجدها باتجاه الشرق.

وكان هؤلاء الناس يهربون إلى المغارات أو إلى البحر عندما تطلع الشمس. ولا يخرجون إلا عندما تنكسر قوة الشمس فيخرجون من المغارات لقضاء حوائجهم وتأمين معيشتهم. كذلك الأمر، دعا **ذو القرنين** هذا الشعب لدين الحق.

ثم اتجه بأسفاره إلى الشمال. ووجد قوماً يتكلمون لغة غريبة. فكان يكلمهم من خلال مترجم. يقول اللّه تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ (الكهف، ٩٢-٩٣)



عندما التقى **ذو القرنين** عليه السلام بهذا القوم، اشتكوا إليه من أذى مخلوقات تدعى يأجوج ومأجوج. وطلبوا منه أن يحميهم من بأس هذا القوم بأن يبني لهم سداً يمنعهم من الوصول إليهم. وبناءً لهذا الطلب أنشأ "سد **ذو القرنين**". واختار هذا القوم أيضاً طريق الهداية ودخلوا في الإسلام. تقول الآيات القرآنية الكريمة:

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا. فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف، ٩٤-٩٨)

وسقوط سد **ذو القرنين** هو علامة من علامات الساعة. وهذا السد ليس سور الصين العظيم الموجود في أيامنا. ويوجد اختلاف حول مكانه. فمع اقتراب يوم القيامة، سيتمكن يأجوج ومأجوج من هدم هذا السد وينتشرون في الأرض وينشرون فيها الفساد.

قومي يأجوج ومأجوج

بحسب ما يروى فإن يأجوج ومأجوج شعبين سيئين ومفسدين في الأرض. وجوههم عريضة، وعيونهم صغيرة، وآذانهم كبيرة جداً، بأجسام قصيرة وأعداد كثيرة. وهم قوم سينتشرون في الأرض عند اقتراب الساعة. وستكثر الولادات بينهم بشكل مفاجيء فتتكاثر أعدادهم بشكل كبير جداً. فكما يتكاثر الذباب على الترسبات المائية، سيتكاثر شعْبَا يأجوج ومأجوج كذلك أيضاً. ولا يعرف أحد مكانهم حتى اليوم إلا الحق سبحانه وتعالى.

فإذا جاء موعدهم هدم سد **ذو القرنين** وتمكن هذين القومين من الإنتشار في الأرض. ولكنهم لن يتمكنوا من دخول مكة المكرمة، أو المدينة المنورة ولا القدس الشريف. وسيعيثون في الأرض في كل ما عدا ذلك من المدن في الدنيا. فيأكلون ويشربون كل ما يجدونه في طريقهم ولا يتركون البلدة إلا وهي خاوية ليس فيها ما يؤكل أو يشرب. وسيفسدون في الأرض. فسيكونون كالجراد المنتشر، وسيظلمون. وأخيراً، سيهلكهم اللّه تعالى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"إِنَّ يَأْجُوجَ، وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَدًا، فَيُعِيدُهُ



اللَّهُ أَشَدَّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا، فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَاسْتَثْنَوْا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيُنْشِفُونَ الْمَاءَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ عَلَيْهَا الدَّمُ الَّذِي اجْفَظَّ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ، وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا "، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ، وَتَشْكَرُ شَكَرًا، مِنْ لُحُومِهِمْ" (ابن ماجه، الفتن، ٣٣/ ٤٠٨٠)

عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال:

((لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ، لقي إبراهيم، وموسى، وعيسى فتذاكروا الساعة، فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها، فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى، فلم يكن عنده منها علم، فرد الحديث إلى عيسى ابن مريم، فقال: قد عهد إلي فيما دون وجبتها، فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله، فذكر خروج الدجال، قال: فأنزل، فأقتله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج، ومأجوج وهم {من كل حدب ينسلون} [الأنبياء، ٦٩]، فلا يمرون بماء إلا شربوه، ولا بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون إلى الله، فأدعو الله أن يميتهم، فتنتن

الأرض من ريحهم، فيجأرون إلى **الله**، فأدعو **الله**، فيرسل السماء بالماء، فيحملهم فيلقيهم في البحر، ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم، فعهد إلي متى كان ذلك، كانت الساعة من الناس، كالحامل التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها " قال العوام: " ووجد تصديق ذلك في كتاب **الله** تعالى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم {من كل حدب ينسلون} [الأنبياء، ٦٩]))

حيث يقول جَلَّ وعَلا:

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (الأنبياء، ٩٦)" (ابن ماجه، الفتن، ٣٣/ ٤٠٨١)

ويخبرنا رسول اللَّه ﷺ بأن الناس ستجد طريق السلامة بعد هلاك يأجوج ومأجوج وستستمر من بعدهم فريضة الحج والعمرة فيقول عليه الصلاة والسلام:

"لَيُحَجَّنَّ البَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ" (البخاري، الحج، ٤٧/ ١٥٩٣)

ويخبرنا رسول اللَّه ﷺ في حديث آخر عن مصير هذين القومين يوم القيامة فيخبر بأن مصيرهم النار وبئس المصير.

عن أبي سعيد الخضري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

"يقول اللَّه عز وجل يوم القيامه:

«**يا آدم**». (منادياً له ومخاطباً)



يقول (آدم عليه السلام):

«لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ»

فَيُنَادَى بصوت (إلى آدم عليه السلام يقول له)

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ».

(فيسأل آدم عليه السلام) قال: «يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ» قال:

«مِنْ كُلِّ أَلْفٍ -أُرَاهُ قَالَ- تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ»

فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ:

"مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ - أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ..." (انظر: البخاري، التفسير، ٢٢/ ٤٧٤١؛ الأنبياء ٧)

لقد حذر رسول الله ﷺ أمته من كافة أنواع الفتن، وحذر بشكل خاص من فتنة يأجوج ومأجوج.

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت:

"استيقظ النبي من النوم محمراً وجهه يقول:

"لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ -وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا-"

قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ:

"نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ" (انظر: البخاري، الأنبياء، ٧؛ مسلم، الفتن، ١/ ٢٨٨٠)

وبالنظر إلى ذكره ﷺ لكلمة "العرب" في الحديث الشريف "ويل للعرب من شر قد اقترب!" فإن ذلك يرجع إلى حقيقة أن المسلمين في تلك الفترة كانوا تقريباً بمعظمهم من العرب فقط. ولهذا، فإن هذا القول لا يمكن نسبه للعرب فقط، وإنما إلى كل المجتمعات الأخرى. وبحسب بعض العلماء، فإن كلمة "الشر الذي اقترب" هو تلك الفتن التي ابتدأت بين أبناء الأمة بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه. وهي بالتالي سبب لزوال سد يأجوج ومأجوج مادياً ومعنوياً.

من قصص ذو القرنين المليئة بالحكمة والعبرة

في إحدى أسفاره، يصل **ذو القرنين** عليه السلام إلى قوم يخافون الموت ويسعون لتخطي عائق النفس. ولم يكن لدى هذا القوم أي شيء من زينة الحياة الدنيا كالذهب والفضة. وكانوا يؤمنون رزقهم

من الخضار. فكانوا يهتمون كثيراً بالمحافظة على خضارهم. وكان كل منهم يحفر قبره وينظفه في كل يوم ويتعبد فيه. فدعا **ذو القرنين** حاكم هذا القوم. فأجاب حاكمهم:

«- أنا لا أريد أحداً. من أرادني فليأت هو إلي!». وأمام هذا الجواب، يذهب **ذو القرنين** إلى هذا الحاكم ويقول له:

«- لقد دعوتك إلي، فلماذا لم تلب النداء؟» فقال له الحاكم:

«- لا حاجة لي بك، ولو كان لي لأتيت إليك!».

فقال له **ذو القرنين**:

«- ما حالكم هذا؟ لم أر حال أحد من قبل، كحالتكم هذه!». فقال له حاكمهم:

«- نعم، نحن لا قيمة عندنا للذهب والفضة. لأننا وجدنا أن من يمتلك منها مقداراً فإنه يحزن لرغبته في طلب المزيد... ولهذا لم نعد نسعى في طلب الدنيا»

فقال له **ذو القرنين**:

«- وما هذه القبور؟ لماذا تحفرونها وتتعبدون فيها؟»

فقال له حاكمهم:

«- نفعل هذا كي لا نسعى وراء الدنيا. نرى قبورنا فتتذكر أننا سندخلها، فنزهد في كل شيء»



فسأله **ذو القرنين**:

«– ولماذا لا تأكلون سوى الخضار؟ إن ربيتم الماشية تستفيدون من حليبها، وتأكلون من لحمها؟»

فقال الحاكم:

«– لا نريد لأمعائنا أن تكون قبراً للحيوانات. ولهذا نعمل على المعيشة من خلال الخضار. وفي كلا الحالتين، فإننا لا نتذوق طعم أي شيء بعد أن يعبر حلقنا!»[1] .



ويروى عن **ذو القرنين** في قصة معبرة أخرى:

يقول أحدهم لذي القرنين:

"– علمني شيئاً يقوي إيماني ويقيني[2]!"

فيقول له:

"– لا تغضب! فأكثر الأحوال التي يتملك فيها الشيطان العبد هي ساعة الغضب. لا تتعجل! فإنك عند العجلة تضيع نصيبك. كن ليناً مع القريب والبعيد! ولا تكن عنيداً، منكراً أو ظالماً!".

---

١. واقعياً، ليس هناك من بأس ولا مانع من تناول لحوم الحيوانات التي أحل الله تعالى. وما هو مذكور هنا كان شأناً خاصاً بذلك القوم أنفسهم.

٢. اليقين: هو العلم الذي تخلص من الشبهة، القوي والمتين والقاطع؛ أي القناعة التامة والإطمئنان التام.



ويوصي **ذو القرنين** عليه السلام من حوله قبل وفاته فيقول:

"– غسلوني، وكفنوني! ومن ثم ضعوني في التابوت! ولكن، لتَبْقَ يداي ممدودة إلى الخارج! ولا يأتين أحد من أتباعي من خلفي! وضعوا خزائني في القاطرات! ليتمكن الناس من رؤية أنني تركت الدنيا خالي اليدين على الرغم مما كنت عليه من سلطة وملك في الدنيا، فلم تلحق بي ثروتي ولا ملكي! فلا يغتر أحد بهذه الدنيا الفانية الكاذبة!..."

ويفعلون تماماً كما قال لهم. ويفسر العلماء هذه الوصية بقولهم:

"حكمت العالم بأسره من شرقه إلى غربه عبر جيوش جرارة. وفي أمرتي ما لا يعد ولا يحصى من الخدم والعسكر. ولم يخرج أحد منهم عن أمري.

وكانت الدنيا من أولها إلى آخرها تأتمر بأمري. وامتلكت من الخزائن ما لا يحصى. ولكن نعم الدنيا ليست باقية. وكما ترون أنا أذهب الآن إلى قبري صفر اليدين! فها هو مال الدنيا باق في الدنيا. فافعلوا في دنياكم ما تستفيدون منه في آخرتكم!..."

علماً أن رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم يتحدث عن المعنى الذي أشار إليه **ذو القرنين** في وصيته فيقول عليه الصلاة والسلام:

"يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاَثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ" (انظر: البخاري، الرقاق، ٤٢/ ٦٥١٤؛ مسلم، الزهد ٥)

وكان **ذو القرنين** عليه السلام يصنع الدروع ويبيعها، فيعيش مما كسبت يداه. وكان ينفق كل ما يزيد عن حاجته.

عليه السلام!...



المحيط الأطلسي
أوروبا
قبائل المغول
البحر الأسود
بحر قزوين
البحر الأبيض
آسيا
الجزيرة العربية
إفريقيا
المحيط الهادي
المحيط الهندي
أستراليا

إن من يريد الوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة من المؤمنين، هم مجبرون على استخدام أرواحهم وأموالهم وكل نعمة أنعم اللَّه ﷻ بها عليهم في سبيل الأهداف والآمال الجدية. والإنسان الذي يفكر بالموت وما بعده لا يمكن أن يكون له غاية أهم من الحصول على رضاء اللَّه ﷻ. يقول اللَّه تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾ (آل عمران، ١٨٦)

ولهذا، فإن كل عمل نقوم به دون أي غاية أو هدف مآله الخسران. حيث تقول الآية الكريمة:

﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(الشعراء، ٨٨-٨٩)

إن النعم التي تعطى للعبد، إن استخدمت مع الغفلة والجهل فإنها تكون سبباً في التعاسة والخسران. وإن تحرك المرء بها بقلب سليم فإنه يجد من خلالها جنة الحياة الدنيا. ويمتليء المجتمع بالطمأنينة والسعادة.في رواية عن أبي سعيد الخضري ﵁ يقول:

سئل رسول اللَّه ﷺ: قيل يا رسول اللَّه، أى الناس أفضل؟

فقال رسول اللَّه ﷺ **"مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ"**

(البخاري، الجهاد، ٢/ ٢٧٨٦؛ مسلم، الإمارات، ١٢٢، ١٢٣)

وفي حديث شريف آخر يقول رسول اللّه ﷺ:

"المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ" . (الترمذي، فضائل الجهاد، ٢/ ١٦٢١)

إن سعادة المؤمن بنجاحه هي في ميدان الإيمان وصالح الأعمال. والمؤمن الحق هو من تستفيد الأمة من يده ولسانه.

❁

كم هو جميل حال الصحابي مصعب بن عمير رضي الله عنه:

على الرغم من أن مصعب بن عمير رضي الله عنه كان ذا إمكانات مادية كثيرة في مكة، إلا أنه آثر خسارة كل ذلك معلناً إسلامه وهو يافع في العمر.وعلى الرغم من تهديد أمه وأبيه بحرمانه من ميراثه، إلا أن ذلك لم يكن سبباً في عدوله عن الإسلام، وهاجر إلى المدينة المنورة غريباً فقيراً. ودخل فيها بكل عزم يشارك في أنشطة الدعوة وكان سبباً في هداية العديد من الناس. واستشهد مصعب رضي الله عنه حينما كان يدافع عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة أحد. فيأتي أحد الملائكة ويدخل في صورة مصعب ويأخذ الراية التي كان يحملها، ولكون رسول اللَّه ﷺ لم يكن على علم بعد باستشهاده، ينادي عليه قائلاً:

«تقدم يا مصعب! (أي سر إلى الأمام يا مصعب!)»

وعندها ينظر الملك ناحية رسول اللَّه ﷺ. فيفهم حينها رسول اللَّه ﷺ أنه ملك وأن مصعب رضي الله عنه قد استشهد في سبيل اللَّه. وبعد ذلك، وجد المسلمون جثة مصعب بن عمير المباركة، ولكنهم لم

يجدوا حتى كفناً يكفنونه فيه. وكان مصعب بن عمير من اللذين أثنى عليهم اللَّه في القرآن الكريم حين قال:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب، ٢٣)

كما يقول اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرِيةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التوبة، ١١١)

وتتحدث كتب التفسير عن أسباب نزول هذه الآية الكريمة بقولهم: لما بايعت الأنصار رسول اللَّه ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون شخصاً قال عبد اللَّه بن رواحة رضي الله عنه:

«يا رسول اللَّه اشترط لربك ولنفسك ما شئت»

فقال عليه أفضل الصلاة والتسليم:

"أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ"

فسأل الصحابة الكرام: «– فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟»



فيجيبهم رسول اللَّه ﷺ بقوله: "**الْجَنَّةُ**"

فقالوا: «ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» (ابن كثير، التفسير، جـ٤، ص ١٩١)

إن حياة الصحابة هي مثال كامل للمجاهدة. إنهم اكتسبوا شخصية متميزة عبر حبهم لرسول اللَّه في أعماق قلوبهم. وتأثروا بمشاعر الرسول ﷺ كل بحسب درجته. والملفت للنظر هو أن عدد الصحابة في حجة الوداع كان ١٢٠,٠٠٠ صحابياً. وأعداد الصحابة المدفونين في كل من مكة والمدينة لا يتجاوز ٢٠,٠٠٠ صحابياً. أما من بقي منهم فقد انتشروا في مختلف أرجاء الدنيا يبلغون دعوة الإسلام وكلمة اللَّه العليا. وكانت آخر نقطة وصلوا إليها هي قبورهم. إنهم لم يتهربوا أبداً من دفع أرواحهم وأموالهم في سبيل دين الحق والفضائل. فكانوا ينفقون ثرواتهم وإمكاناتهم بكل رضى وطمأنينة وكرم كلما توجه إليهم رسول اللَّه ﷺ بطلب المساعدة لأهداف وغايات دينية. وحتى النساء من الصحابة رضوان اللَّه عليهن، كن يتقدمن بحليهن وأساورهِن وقلائدهنّ بكل تضحية ومحبة. وكانت الصحابية سمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أول صحابية قدمت روحها في سبيل اللَّه فكانت أول شهيدة في الإسلام.

كما أنفق أهل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كل مجوهراتهم في سبيل اللَّه.

وعندما تولى عمر بن العزيز خلافة الدولة الأموية، تبرعت زوجته بكل ثروتها إلى بيت المال.

كذلك الأمر، وفي الفترة التي كانت تعرف باسم «ساعة العسرة»



أثناء غزوة تبوك، أحضرت الصحابيات الكرام كل ما يملكن من حلي (المجوهرات وأدوات الزينة) ووضعنها أمام رسول اللَّه ﷺ. ولشدة حماستها، تقدمت بنت الثانية عشرة من رسول اللَّه ﷺ وأخرجت الحلقة التي وضعت لها في طفولتها في أذنها بصعوبة أدت إلى جرحها وناولته عليه الصلاة والسلام هذه الحلقة ودماءها ممزوجة بها...

وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أخت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها قد ضعف نظرها وعميت عن الرؤية بها. فلما أتاها ابنها عبد اللَّه بن الزبير مودعاً قاصداً الذهاب في إحدى الحملات في سبيل اللَّه تعالى، كان يلبس عليه درعاً للحماية. وعندما اقتربت أسماء رضي الله عنها من ابنها ووضعت يديها عليه انتبهت إلى وجود الدرع عليه فقالت:

«- يا بني، ألبست درعاً كما يفعل الخائفون؟ اِنزعه عنك!».

حضرت الخنساء بنت عَمْرو حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل: يَا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وو الله الّذي لا إله إلّا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة مَا خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غبرت نسبكم، وقد تعلمون مَا أعد اللَّه للمسلمين من الثواب الجزيل فِي حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول اللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران، ٢٠٠)

فإذا أصبحتم غدًا إن شاء اللَّه سالمين فاغدوا إلَى قتال عدوكم مستبصرين، وباللَّه عَلَى أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عَنْ ساقها، واضطرمت لظى عَلَى سياقها ، وجللت نارًا عَلَى أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة فِي دار الخلد والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين عَلَى قولها فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم ، ودخلوا ساحة الحرب يحاربون في سبيل اللَّه بكل جرأة وشجاعة فاستشهدوا جميعاً. وعندما سمعت الخنساء بشهادة أولادها الأربعة قالت شاكرة لله ﷻ ومناجية له:

(الحمد للَّه الَّذِي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم فِي مستقر رحمته) .(انظر: ابن عبد البر، الإستيعاب، جـ ٤، ص ١٩٢٨)

إن هذه المرأة الشاعرة التي كتبت في الجاهلية قبل أن تسلم أبياتها الشهيرة ترثي بها موت أخيها صخراً، قد شجعت أبناءها بقوة لسانها نفسه لتقديم أرواحهم في سبيل اللَّه بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان به تعالى، وحمدت اللَّه تعالى من أعماقها عندما سمعت بشهادتهم جميعاً في سبيل اللَّه.

وهكذا، فإن هذه الأمثلة إن هي إلا نذر قليل من الأمثلة الكثيرة لأمهاتنا من المؤمنات ممن قدمت نفسها ومالها في سبيل اللَّه تعالى.

يجب علينا أن نفهم جيداً أن الجهاد في سبيل اللَّه ليس تقديم المال والروح في سبيل اللَّه محاربة بالسيف فقط. فالسيف هو لمنع

الظلم، هو قطعة حديد تستخدم لضرورات معينة كمنع الظلم ونشر كلمة الحق. والفتح الأهم والأسمى هو فتح القلوب.

ولهذا، نجد أن القرآن الكريم يذكر العديد من العبارات التي تدعو الناس إلى "الجهاد في سبيل اللّٰه" بهدف دعوة الناس إلى الهداية. بينما نجد أن الآيات التي تتحدث عن جهاد بمعنى القتال الفعلي هي آيات قليلة جداً ومحدودة. وهي دائماً في حالات الضرورة. فلا قتال في سبيل اللّٰه خارج نطاق الدفاع عن الإسلام، وكلمة اللّٰه العليا، أي أنه لا محاربة خارج غاية رفع كلمة اللّٰه تعالى. فالحروب التي تشن بهدف احتلال الأراضي فقط، هي ظلم تَسْوَدُّ له وجوه البشر. أما الإسلام، فإنه قد حدد أسباب القتال بأمور محددة من الأمور النبيلة كنشر الحق، ووسيلة للهداية، ودَرءً للظلم. ولهذا نجد القرآن الكريم يقول:

﴿...مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة، ٣٢)

ومن هذا المنطلق، يمكننا القول بأن كل غاية وكل عمل يقوم به الإنسان بهدف خلاص الإنسانية فهو قطعة من قطع الجهاد في سبيل اللّٰه.يقول اللّٰه تعالى في الآية ١٠٣ من سورة التوبة:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلوتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾



بعد نزول الآية الكريمة بقوله تعالى "**خذ من أموالهم صدقة..**" بدأ الصحابة الكرام حملة فيما بينهم. فتقدم كل منهم إلى رسول اللَّه ﷺ يقدم كل ما في يديه أمامه. ومن كان لا يمتلك شيئاً كان يذهب إلى الجبال يحتطب الحطب ويبيعه ويحملون الماء ويقدمون ما يجنونه من ذلك إلى رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام. فكانوا يهربون من فقر الآخرة بالإمتناع عن ملذات الحياة الدنيا الآنية والزائلة. فكانوا يعيشون ضمن المشاعر التي يعتبرون فيها أنفسهم أمناء في هذه الدنيا لفترة محددة على ما في هذه الدنيا من مال وملك هو في حقيقته لله وحده. فكانوا يسعون للعيش في هذه الدنيا بأعمارهم القصيرة بهدف الربح في الحياة الآخرة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما:

أن رسول **الله** ﷺ خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم: "**أن أجمعوا صدقاتكم**". فجمع الناس صدقاتهم. ثم جاء رجل من آخرهم بمَنٍ من تمر، فقال: (يا رسول **الله**، هذا صاع من تمر، بت ليلتي أَجرٍ بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر). فأمره رسول **الله** ﷺ أن ينثره في الصدقات. فسخر منه رجال وقالوا: و**الله** إن **الله** ورسوله لغنيان عن هذا! وما يصنعان بصاعك من شيء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف، قال لرسول **الله** ﷺ: هل بقي من أحد من أهل هذه الصدقات؟، فقال رسول **الله** ﷺ: "**لا**"، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

إن عندي مئة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب: أمجنون أنت؟ فقال: ليس بي جنون! فقال: فعلمنا ما قلت؟ قال: نعم! مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي! فقال له رسول الله ﷺ:

" بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وفِيمَا أَعْطَيْتَ"

وكره المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء، وهم كاذبون، إنما كان به متطوعاً. فأنزل الله عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال الله عز وجل في كتابه:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة، ٧٩) (انظر: الطبري، التفسير، ١٤، ٣٨٣/ ١٧٠٠٤)

وعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال:

"لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء". فنزلت:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ ...﴾ (التوبة، ٧٩) (البخاري، الزكاة، ١٠/ ٤٦٦٨)

ويأتي هذا الحديث الشريف تحذيراً واضحاً لكل من ترك الجهاد في سبيل الله. حيث يقول رسول الله ﷺ:



"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ" (الترمذي، الفتن، ٩/ ١٢٣٠٦)

إذن، إن ترك وظيفة الدعوة إلى الخير والفضيلة، هي سبب في اقتراب الغضب الإلهي. إن على المؤمن أن يتحدث بما يليق بفمه بقول الحق والحقيقة. فالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تأمره بأن يقول كلمة الحق أمام ما يراه من خطأ ومنكر. يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت، ٣٣)

يحذر رسول الله ﷺ أمته فيقول:

"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ" (مسلم، الإيمان، ٧٨)

فإنّه ما من مكان أو ملتجأ يمكن للإنسان اللجوء إليه في هذه الدنيا غير الجنة أو النار. فمن يقدم ماله وروحه وما قدم إليه من نعم في هذه الدنيا بغفلة في سبيل هواه ونفسه، فإن الله تعالى سيسأله عن ذلك بنفسه: «– ألم تأتكم رسلي فتبلغكم الحقائق؟ ألم تكن نعمي تتدفق عليكم؟ فما أحضرتم اليوم لأنفسكم؟» فسينظر المرء حينها إلى يمينه ويساره فلا يجد أحداً... وسينظر أمامه فلا يجد إلا جهنم بعذابها وبئس المصير...

يقول رسول **الله** ﷺ: "يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول **الله** ﷻ له: «ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟» فيقول العبد: لا. فيقول (**الله** تعالى) له: «اليوم أنساك كما نسيتني». أي أتركك في العذاب". (الترمذي، القيامة، ٦/ ٢٤٢٨)

إن من يعيشون أيامهم في هذه الدنيا بغير حساب، سيتحرقون ندامة وحسرة على ما فرطوا به من أوقات. فمن لا يعمل لكسب رضى **الله** تعالى في هذا العالم، سينتظره عذاب أليم في جهنم يوم القيامة. وكل عين تغلق في هذه الدنيا على الغفلة والضلال، ستفتح غداً في ليالي وحشة القبر وعذابه. يحذر اللَّه ﷻ عباده في هذه الدنيا فيقول:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ اِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٤)

فكان أمر اللَّه تعالى في هذه الآية واضحاً بضرورة وجود تجمع دائم في هذه الحياة الدنيا يدعو إلى الحق وإلى صراط مستقيم. ودين الإسلام، هو الدين الحنيف الذي انتشر في بدايته بنضال الصحابة الكرام رضوان اللَّه عليهم، واستمر بعد ذلك عبر العلماء المخلصين والمجاهدين والمرشدين الذين ثبتوا على الحق وساروا على نهجهم رضوان اللَّه عليهم. فكانوا من الذين وعدهم اللَّه ورسوله ﷺ بالمكافأة والأجر الكثير. ويحدثنا أنس رضي الله عنه عن الدرجات العليا في الآخرة التي سينالها الداعون إلى الإسلام

فيقول: قال رسول اللَّه ﷺ:

"ألا أخبركم بأقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء؟ يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله، على منابر من نور، يعرفون"

قالوا: من هم يا رسول **الله**؟، فقال رسول **الله** ﷺ:

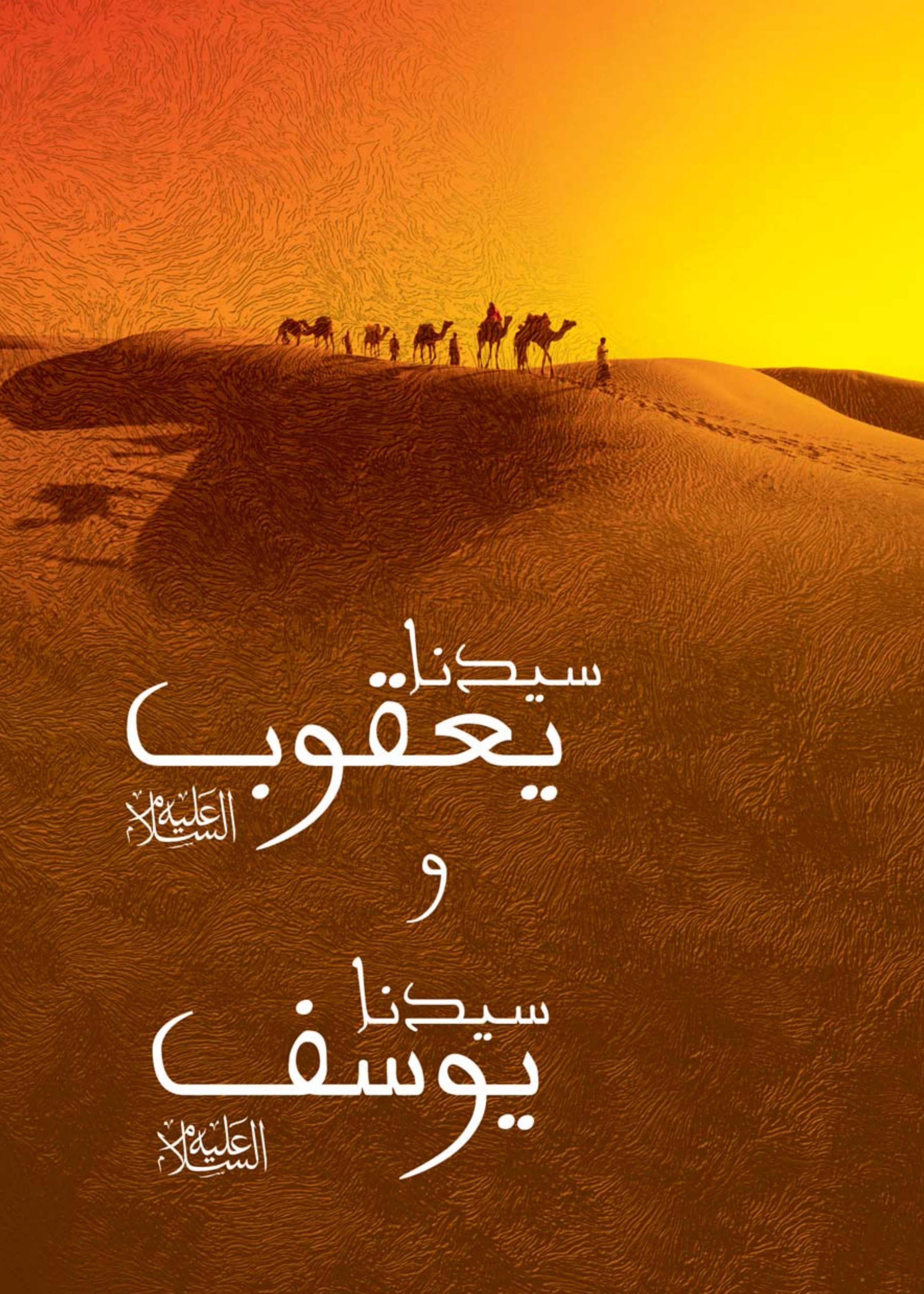
"-الذين يحببون عباد **اللَّه** إلى **الله** ويحببون **اللَّه** إلى عباده، ويمشون على الأرض نصحاء"

فقلت: هذا يحبب **اللَّه** إلى عباده، فكيف يحببون عباد **اللَّه** إلى **اللَّه**؟. قال: **"يأمرونهم بما يحب اللَّه، وينهونهم عما يكره الله، فإذا أطاعوهم أحبهم اللَّه** عز وجل" (علي المتقي، ٣، ٦٨٥-٦٨٦؛ البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٣٦٧)

إن خير الزاد في رحلة الآخرة هو التقوى. وخير يوم للمؤمن في هذه الدنيا هو يومه الذي يمضيه خيراً من اليوم الذي سبقه. ولهذا، يجب علينا أن نعمل دائماً على زيادة البركة في أيامنا راجين مِلْء زاد الآخرة أكثر فأكثر من الأيام السابقة.

إن من كان قبلنا قد أتى وولى؛ ونحن سنسير بعد مدة في طريقهم أيضاً. فنموت كما لو نمنا، ونستيقظ ساعة البعث. ومن ثم سنحاسب كل بحسب عمله. وستكون المقامات الرفيعة والمتميزة في الآخرة نصيب من اتقى. فلا باق إلا وجهه سبحانه وتعالى.

نسأل اللَّه تعالى أن يديم في قلوبنا مرضاته وطريق الهداية! وأن يحمينا من أنفسنا، بأن يحيمنا من شر أنفسنا... آمين...


سيدنا
يعقوب
عليه السلام
و
سيدنا
يوسف
عليه السلام

العابد بصبره لوعة وحباً

سيدنا يعقوب

عليه السلام

و

من استعبد وأدخل السجن وأصبح بعد مشقات كثيرة ومعاناة سلطاناً لمصر وللقلوب

سيدنا يوسف

عليه السلام [1]

كان يعقوب عليه السلام الذي هو من أبناء إسحاق عليه السلام، نبياً مرسلاً من الله تعالى إلى الناس الذين عاشوا في ديار كنعان. ويروى أنه ولد في مدين أو الشام. وقد ولد مع أخ توأم يدعى إيس فكان من ولد بعده أثناء الولادة، وهو ما كان سبباً في تسميته يعقوب بما يعني لغة "الذي تلى".

ومن معاني اسم يعقوب أيضاً "صفي الله" (أي عبد الله النقي الصافي). ويلقب يعقوب عليه السلام باسم إسرائيل. وهي كلمة تعني أيضاً عبد الله.

١. الروايات المتعلقة بهذه القصة هي بمعظمها مأخوذة من تفسير روح البيان للمفسر إسماعيل حقي بورسوي المنسوب إلى مدينة بورسة بتركيا.



وقد ولد من نسل يعقوب عليه السلام الكثير من الأنبياء. ومنهم سيدنا موسى، وهارون، وداوود، وسليمان وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام، فكانوا جميعاً من نسبه ونسله. ذلك أن أباه إسحاق عليه السلام قد دعا ربه فقال: "رب هب لي من ذريتي أنبياء وملوك".

وكان لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، نبي دعاء. وقد دعا سائر الأنبياء ربهم بما كتب لهم، إلا نبينا محمد ﷺ، كان من أخر دعاءه هذا إلى يوم القيامة. وهو ما أكرمه الله به من شفاعة يوم القيامة[٢].

أرسلت والدة يعقوبَ عليه السلام إلى خاله. وكان لديه ابنتين. كانت الكبرى تدعى ليا، والصغرى تدعى رحيل. وبعد أن خدم يعقوب خاله مدة سبع سنين زوجه في نهايتها من ابنته الكبرى ليا. ومن ثم قام بخدمته سبع سنين أخرى تزوج من بعدها بابنته الصغرى رحيل. علماً أنه في شريعة يعقوب كان يحق للرجل أن ينكح أختين في آن معاً.

وبعد أن زوج خال يعقوب بابنتيه له، أهدى كل واحدة منهن جارية تقوم بخدمتهما. فكانت الجارية الأولى تدعى زلفة، والثانية تدعى بلهة. كما أهدى يعقوب عليه السلام جاريتين أيضاً.

رزق يعقوب عليه السلام بستة أولاد من ليا، ومن جواريه أربعة، ورزق من رحيل بولدين اثنين. ذلك أنه لم يرزق من رحيل بأولاد لمدة طويلة. ومن ثم التجأت رحيل إلى ربها تدعوه فأكرمها بيوسف

٢. أنظر: البخاري، الدعوات، ١/ ٣٦٠٤

عليه السلام. ومن بعد يوسف رزقت ببنيامين. وتوفيت رحيل بعد ابنها الثاني بأربعين يوماً. وعندما ولد يوسف عليه السلام، كلف **الله** تعالى يعقوب عليه السلام بالنبوة. وبدأ يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد. وآمن له من ديار كنعان الكثير من الأهالي. يقول **الله** عز وجل في الآيات الكريمة:

﴿...وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (مريم، ٤٩- ٥٠)

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص، ٤٥-٤٧)

ويتحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن فضيلة هؤلاءِ الأنبياء فيقول:

"الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ" (البخاري، الأنبياء ١٩/ ٩٣٣؛ التفسير ١٢/ ١)

وكان يوسف عليه السلام مختلفاً عن اخوته بكل أحواله. فلقي حباً خاصاً وكبيراً من والده منذ أن كان صغيراً. ذلك أن يعقوب عليه السلام قد شاهد خصائص ابنه يوسف. ولهذا كان ميله إليه أشد من سائر إخوته بكثير. فكان كثير الحب له، ويعزه عن باقي إخوته ولا يبعده عنه.

إن ميول القلب لدى سائر المخلوقات هو أمر يظهر اختلافاً متبايناً بحسب التوجه الإيجابي أو السلبي. ولكن الأنانية، أي تفضيل

الأمور للذات، هي أمر أصيل. ولهذا، فإن كل مخلوق يميل إلى الصفات التي يجدها قريبة منه بشخصه. وذلك هو نتيجة التماشي والتثبيت للنفس مع الغير. أي أن ما تشابه ائتلف. فما من مشهد للحب إلا وكان نتيجة للصفات المشتركة التي يجدها الحبيب في الطرف الآخر. ولهذا فإن الجذب والانجذاب أي التآلف والتواصل لا يمكن حصوله إلا من خلال التشابه والوحدة. فنجد أن الحياة النفسية تجذب الفاسق، بينما تجذب الحياة الروحانية الصادقين والصالحين؛ فيجذب الكفر للكافر، ويجذب الإرشاد طالبه من الناس. قانون الجاذبية هذا، ينفذ حكمه بشكل رائع على المادة والمعنى وفي أمور الخير والشر كافة.

أحسن القصص: قصة يوسف

يتحدث القرآن الكريم عن قصة يوسف عليه السلام فيصفها بقوله «أحسن القصص» (أي أجمل القصص)[٣] ويروي تفاصيلها بسورة كاملة مستقلة. تقول الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف، ٧)

وقصة يوسف هي كما يوضح لنا هذا البيان الإلهي، هي قصة تمتليء بالحكم والعبر. ولم يكن هناك أي كتاب أو أثر تمكن من

٣. أحسن القصص: أجمل سرد أو أجمل قصة أو حكاية أو ملحمة. وكلمة قصة هي في الأصل بمعنى اتباع الأثر وتتبع الحال. ولتأخذ إحدى الحوادث أو الأخبار اسم القصة، يجب عليها أن تحمل خاصية الإتباع أو قيمة معينة لكتابتها.

سرد قصة يوسف بشكل أجمل من ذلك الذي هو في القرآن الكريم من قصة. وكم يتضح بشكل واضح في ختام هذه السورة، فإن هذه الأحداث التي ذكرت في سورة يوسف إن هي إلا من أخبار الغيب[٤] ولا تحمل أية إضافة [٥] أو تأليف عقلي أو نقلي معين.

وبالفعل، إن قصة يوسف عليه السلام بما تحمله من حكم وعبر، هي من أكثر قصص القرآن الكريم لفتاً للإنتباه والدقة. ويمكن تلخيص آراء المفسرين حول العبر المذكورة في هذه القصة على الشكل التالي:

١. لقد أظهر يوسف عليه السلام منذ نعومة أظفاره صبراً كبيراً على مختلف أنواع البلاء والمصائب.

٢. على الرغم من كل ما تقدم به إخوة يوسف من أذية وإساءة إليه، بل وحتى التفكير في قتله، فإن يوسف عليه السلام أظهر أجمل نموذج للعفو والمسامحة عندما التقى بهم.

٣. تتحدث هذه القصة عن أنواع متعددة من الحيل والأفخاخ التي تقوم بها النساء، والرجال، والجاهلون، والعالمون، والتجار، والدول، والحكام، والحيوانات، والجن، والناس، والشياطين، (والملائكة والصالحون والأنبياء).

٤. أنظر: سورة يوسف، ١٠٢

٥. أنظر : سورة يوسف، ١١١



٤. تتحدث هذه القصة عن الكثير من الأمور الضرورية لصلاح هذه الدنيا والدين بدءً من أمور التوحيد، والفقه، والسيرة، وتفسير الأحلام، والسياسة والمعاشرة.

٥. تروي القصة نموذجاً رائعاً للسعادة التي يحصل عليها الإنسان بعد حياة مليئة بالبلاء والأسى والإمتحانات.

ولهذا نجد أن يوسف عليه السلام أصبح ملكاً لمصر وهو في الثلاثين من عمره.

كما عادت زليخة بحرمة دعاء يوسف عليه السلام إلى سابق شبابها وجمالها وتزوجت به عليه السلام.

واستعاد يعقوب عليه السلام نعمة البصر بعدما فقدها وعمي لشدة البكاء حسرة على ولده يوسف عليه السلام.

اجتمع شمل يعقوب عليه السلام مع أحب أولاده إليه، كما اجتمع شمل يوسف بأخيه بنيامين الذي هو أخوه الوحيد من نفس الأب والأم.

عفى يوسف عليه السلام عن إخوته الذين أرادوا يوماً مقتله، وتاب إخوته عن فعلهم فأصبحوا من الصالحين.

هاجر يعقوب عليه السلام وعائلته من ديار كنعان إلى مصر.

تحققت رؤية يوسف عليه السلام التي شاهدها في صغره.

يترك ريان بن الوليد سائر أمور مملكته ليوسف عليه السلام ويؤمن به فيصبح من المسلمين.

٦. دعى يوسف عليه السلام بأجمل دعاء لم يدع به أحد قبله حتى ذلك اليوم. (يوسف، ١٠١)[٦]

مما لا شك فيه أن أجمل القصص هي تلك التي تروى من واقع الحياة من الحوادث التي يعيشها الناس. أي أن القصة هي الحادثة الحقيقية التي تتجمل بطريقة سردها وتبليغها وتصويرها بشكل فني بديع يدل على جمالها الأدبي. ولهذا، فإن الجمال الحقيقي هو دائماً يتعدى الخيال، ولا يمكن الوصول إليه إلا عبر إحتوائه لأمثلة يغترفها من الجمال المطلق.

إن قصة يوسف قد أنزلت قصة غيبية كرمز بداية للمعنى الكامل للجمال المحمدي. ولهذا، ومن هذه الصفة التي تميزها، فإنها تكتسب وصف الله تعالى لها بأنها "أحسن القصص"، أي أجملها.

يروي عبيد بن كعب رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله:

"علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً" (الزمحشري، الكشاف، جـ٢، ص ٥٢٢)

٦. أنظر القرطبي، الجامع، ٩، ١٢٠.



لقد تعرض يوسف عليه السلام للعديد من المصائب كحسد إخوانه، ورميه في البئر، وإلقاؤه في السجن. ونتيجة لتقواه، أرسل **الله** تعالى جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام يواسيه وينعم عليه. وأعطاه قوة التحمل على البلاء. ومن ثم أعطاه القوة والعزة والسلطنة. وهكذا، ولما تعرض له من أذى وجفاء، سخر يوسف عليه السلام فترة حكمه لمساعدة الضعفاء والفقراء والغرباء، فكان أكثر رحمة ومساعدة لهم.

ومما يجب معرفته، أن من قرأ سورة يوسف وتعمق في معانيها ناله من السرور الذي أصاب يوسف عليه السلام.

وسورة يوسف مليئة بالعبر والحكم بما لا يمكن تعداده. ففيها من أسرار العبر والحكم الطيبة ما للنبوة، وتفسير الأحلام، ورئاسة الدنيا، وحفظ التوازن بمتانة عند البلوى، والصبر على أذى الأعداء، والفرقة، والحب، والعاشق والمعشوق، وحيل النساء ودسائسهن، والامتحان، والعبودية، والحبس، والخلاص، والعزة، والإقبال، والعفو عند الشر عند المقدرة دون الرد بالمثل، والنعمة، والجذب، والإشارة، والبشارة، والتعبير والتفسير.

كما تتحدث هذه السورة في طياتها وراثة الأنبياء، وأسرار خلافة الله، والقوى الروحية والجسدية مثل القلب والروح. فتمثل زليخة النفس الأمارة أمام يوسف عليه السلام. ومن ثم تسلم زليخة، فترتفع في مقامها برؤية التربية الروحية. ثم تجتمع روحها مع يوسف عليه السلام

كالتوأم له. فتنضج نفسها بالبلاء والابتلاء والأزمات إلى أن تصل إلى الله.

وأسباب نزول هذه السورة هي:

يذهب علماء اليهود إلى رؤساء المشركين فيقولون لهم:

"- إسألوا محمداً عن عائلة يعقوب، ولماذا هاجروا من الشام إلى مصر، وما هي قصة يوسف؟"

فيذهب رؤساء المشركين إلى الرسول ﷺ ويسألونه عن ذلك. فتتنزل عليه سورة يوسف. (الآلوسي، التفسير، ١٢، ١٧٠)

كما أن فترة نزول هذه السورة كانت من الأيام الصعبة على المسلمين مليئة بالمحن والبلاء الذي كان يأتي الواحدة تلو الأخرى، وفي الفترة التي فقد فيها رسول الله ﷺ زوجته خديجة وعمه أبو طالب. وازداد الضغط فيها على المسلمين. فكان نزول هذه السورة في السنة التي عرفت بـ (**عام الحزن**) كنوع من المواساة لرسول الله ﷺ في هذه الفترة العصيبة. فهي بشرى للصابرين ومن يسير في سبيل الله بأن النصر والفوز قريبٌ بإذن الله تعالى.

يقول الله تعالى في بداية سورة يوسف:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف، ١-٢)

إن قول الله تعالى «قرآناً عربياً» في الآية الجليلة هي خير دلالة على أن اللغة العربية هي أفضل اللغات. والقرآن الكريم هو تحفة



فنية إلهية لكونه بما يحمله من معاني وألفاظٍ واختيار للكلمات من كلام الله تعالى نفسه. وهي المعجزة الإلهية الباقية إلى يوم القيامة دون أن يتمكن أي مخلوق في الدنيا من أن يكتب مثله أو شبهه.

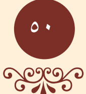
ولقد كرم الله تعالى اللغة العربية بشرف خاص عندما أنزل قرآنه الكريم باللغة العربية. كما أن من حكمة تنزيل القرآن الكريم باللغة العربية هو إلغاؤه لكل أعذار المجتمع من حوله. فمما لا شك فيه أن الوحي الإلهي كان ليتنزل بلغة من اللغات التي يتكلم بها الناس. علماً أنه وبالرغم من نظرة الشمول الكوني، إلا أن كل حركة في هذه الدنيا لا بد لها من أن تنطلق نواتها الأولى من أحد المواقع، وأن تتشكل من بعد هذه الإنطلاقة.

يكمل الله تعالى في الآية الكريمة فيقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف، ٣)

إن سورة يوسف هي السورة الأولى التي أنزلت على رسول الله ﷺ على شكل قصة. وهي وجيزة من الناحية اللفظية، عميقة وواسعة جداً من ناحية المعنى. ويوجد في هذه السورة الكثير من الحكم الجميلة والصفاء والمعاني التي تشكل عبرة لكل معتبر متفكر.

لقد كان يوسف عليه السلام أجمل أولاد يعقوب عليه السلام جميعاً. وكان على نفس الرفعة والنسب معهم جميعاً. فهو إضافة لعلو شرف نسله



الذي يعود إلى أنبياء ثلاثة، كما أنه نالَ كرم وشرف بالنبوة والصورة الحسنة، وتفسير الأحلام، ورئاسة الدنيا، والتعامل الرائع بأجمل صوره مع الأهل والشعب في زمن البلاء والقحط. فما أجمله من علو وما أجمله من كرم. وكان دعاؤه عليه السلام من أجمل الأدعية؛ يقول فيه:

﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ (يوسف، ١٠١)

مناجياً الله تعالى بطلب الموت تقرباً به إليه جلَّ وعَلا، فكان أول نبي دعا الله وناجاه بمثل ذلك. كما أن في هذه السورة تمثيل لقلب يوسف عليه السلام، وروح يعقوب عليه السلام، وجسد رحيل، والحس النفسي لإخوة يوسف الأحد عشر. ويوجد في أرجاء القرآن الكريم مثل ذلك الكثير من المعاني الواسعة التي لا مثيل لها. والبصيرة وحدها هي ما يمكن المرء من رؤية هذه المعاني بحق.

رؤيا يوسف عليه السلام

تقول الآية الكريمة:

﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ (يوسف، ٤)

إن الكواكب الأحد عشر التي رآها يوسف عليه السلام في منامه هم إخوته، والشمس هو والده يعقوب عليه السلام، والقمر هي خالته ليا. ذلك أن والدته رحيل كانت قد توفِّيَتْ.

والحكمة من رؤية يوسف لإخوته على صورة الكواكب هي أن الأخوة هي التأثير المهم الذي يعطي الحياة الإنسانية تدفقها. وذكر الشمس والقمر بعد ذلك هو بمعنى أن يوسف عليه السلام سيلتقي بإخوته قبل أن يلقى أباه وخالته.

وكان يوسف عليه السلام ابن سبع سنين عندما رأى تلك الرؤيا.

يأتي أحد اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويسأله:

«- أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف؟»

فيسكت الرسول عليه الصلاة والسلام لفترة. فيأتيه جبريل عليه السلام ويبلغه أسماء هذه الكواكب. فيلتفت الرسول ناحية اليهودي ويقول صلى الله عليه وسلم:

"-إذا أخبرتك بذلك هل تسلم؟"

فقال اليهودي:

«نعم» فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"- جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له"

فقال اليهودي:

«- والله انها لأسماؤها!» (البورسوي، روح البيان، جـ٤، ص ٢١٢)



أقسام الرؤيا الثلاثة

١. حديث النفس: يرى المرء في منامه عمله وصنعته؛ أو يرى العاشق معشوقه. وهي بالتالي نتيجة لخيال الإنسان.

٢. تخويف الشيطان: و هي الرؤيا التي يراها الإنسان بشكل فوضوي ومختلط فتوقع الإنسان بمحن نفسية.

٣. البشرى الإلهية: وهي أن يقوم ملك بنقل آثار من اللوح المحفوظ كنسخة من أم الكتاب إلى المرء. وهي رؤيا حقيقية، ورؤى صالحة. ويقال عنها «رؤيا صادقة». وكل ما عدا ذلك من الرؤى هي رؤى مختلطة.

والرؤيا الصادقة هي وميض لما هو في اللول المحفوظ.

يقول رسول الله ﷺ:

"إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب، رؤيا المؤمن ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة" وما كان من النبوة فإنه لا يكذب. (انظر: البخاري، التعبير، ٢٦/ ٧٠١٧؛ مسلم، الرؤيا، ٦)

تقول الآيات الكريمة:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف، ٥-٦)



عندما استيقظ يوسف عليه السلام وأخبر والده برؤياه، فهم يعقوب عليه السلام ما سيؤول إليه ولده من مكان علي وشرف كبيرين في الدنيا والآخرة. ولهذا أمره وشدد عليه بأن لا يخبر أحداً من إخوته عن هذه الرؤيا. لأن إخوته قد يحسدوه على ذلك ويوقعونه في الفخ. إذن، كما يجب علينا أن نمتنع عن الحسد، فإن علينا أيضاً أن نسعى لتجنب التعرض له.

ولهذا، فإننا نجد رسول الله ﷺ يحدثنا عن هذا الشأن فيقول:

"استعينوا على قضاء حوائجكم بالسر والكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود" (السيوطي، الجامع الصغير، ١، ٣٤)

النار التي تقتل القلب: الحسد

لم يفهم أبناء يعقوب عليه السلام يهودا وربيل وشام تلك العلاقة الخاصة التي كان يعقوب عليه السلام يظهرها ليوسف. فحسدوه وقالوا:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف، ٨-٩)

فهم يعقوب عليه السلام أن ابنه يوسف سيرثه في النبوة، ولهذا ازدادت صلته به بشكل أكبر. ولكن حسد إخوته الذين كانوا يشعرون بهذه العلاقة الخاصة كان يزداد يوماً بعد يوم. فكان هذا الحسد سبباً في

أن يكونوا فخاً ليوسف عليه السلام. أي أن يعقوب عليه السلام بالغ في حبه، فكان البلاء على مقدار هذا الحب. لأن الله تعالى هو "جامع الأضداد"، أي يجمع الصفات الأضداد في ذاته. فمن أسمائه مثلاً الرقيب أي دائم المراقبة والعلو. ولهذا، فإن الغلو في الحب يجلب الفراق. كما أن حب الله لا يقبل شريكاً.

لقد شاهد يعقوب عليه السلام نور النبوة على جبين ولده يوسف عليه السلام، ولهذا أظهر له زيادةً في الإهتمام. فكان هذا الميل والحب من أبيهم سبباً في حسد بقية إخوانه ليوسف. وأتى اليوم الذي طفحت فيه كأس هذا الحسد واتفق إخوة يوسف على تدبير خطة سيئة له.

إن أهم عبرة في هذه الآية هو أن تبقى المحبة في القلب لكي لا تكون سبباً في ظهور الحسد. وأن على الحب أن يكون بهدوء وعمق.

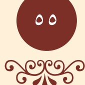


إذا لم يَمِلْ القلب إلى طريق اللّه، ولم يتطهر بِالذِّكْر، فإنّه يَسْودُّ ويصبح قلباً أماراً بالإساءة.

تقول الآية الكريمة:

﴿...**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد، ٢٨)

إن الذكر هو الشعور في القلب بإدراك الله تعالى. ولا يمكن للقلب أن يحفظ من المعصية إلا عبر هذا النوع الحقيقي من الذكر.



فالقلب هو بيت الله والمكان الذي تتحقق فيه محبته. فإن لم يمتليء هذا القلب بالذكر، فإنه سيميل بعد مدة من الزمن إلى رغبات النفس ويموت بعد ذلك.

يقول رسول الله ﷺ:

"....لَا يَجْتَمِعَانِ فِي جَوْفِ مُؤْمِنٍ الْإِيمَانُ وَالْحَسَدُ" (الطبراني، المعجم الصعير، جـ ١، ص٢٥١/ ٤١٠)

وفي رواية أخرى يخبرنا رسول الله ﷺ أن الحاسد يكب على وجهه في النار دون أن يعرض على الحساب.

إن الكبر والحرص والحسد هي مصدر كل الخطايا. يحدثنا الحسن البصري رحمه الله تعالى فيقول:

«– الشر في ثلاثة أمور : الكبر والحسد والحرص.

١. **الكبر**: فأما الكبر فقد منع إبليس من السجود لآدم
٢. **الحسد**: وأما الحسد فقد حمل ابن آدم على قتل أخيه. (حيث قام قابيل بقتل أخيه هابيل)
٣. **الحرص**: وأما الحرص فقد أخرج آدم من الجنة.» (انظر: السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٠١)

بمجرد أن يحسد المرء فهو إذن يعترض على التقدير والمشيئة الإلهية. لأن الحسد هو الرغبة في زوال هذه النعمة التي وهبها الله لغيره ولم تكن فيه ومعه. أما الغبطة فليست كذلك. لأن الأساس في

الغبطة هو أن يتمنى المرء أن تكون تلك النعمة المعنوية أو المادية موجودة له ولغيره بنفس الوقت. لهذا، يمتدح الإسلام الغبطة ويمنع الحسد بشدة.

والحسد يضر بصاحبه أكثر مما يمكن أن يسبب من ضرر للمحسود نفسه. فهو كمن رمى غيره بحجر فعاد إليه هذا الحجر ليفقأ له عينه. ولا فائدة للحسد إلا الغضب. وبالنتيجة يفضح الإنسان فيخجل. إن ما تقدم به أخوة يوسف عليه السلام من حسد أدى إلى أفعالهم السيئة كان سبباً في عودته إليهم في النهاية.

يمنع الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن الحسد فيقول عز وجل:

﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ...**﴾ (النساء، ٥٤)

ويقول الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه:

"**إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ - أَوْ قَالَ: الْعُشْبَ -**" (أبو داود، الأدب، ٤٤/ ٤٩٠٣؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٢)



إن الحب الشديد الذي أحبه يعقوب عليه السلام ليوسف كان سبباً في امتحان الله سبحانه وتعالى له. ولهذا السبب، أراد الله تعالى أن يبتليه فيما أحب، فأبعد يوسف عليه السلام عنه.

علماً أن الولد هو في بعض الأحيان امتحان كبير للأب. فنوح عليه السلام مثلاً برغم دعوته على قومه، لم يتمالك نفسه عندما وجد ابنه



المشرك على حافة الغرق فقال:

﴿...رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾ (هود، ٤٥)

فما كان من الله تعالى إلا أن نبهه بهذا الشكل فقال له:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾ (هود، ٤٦)

خطة الغدر

عندما توصل أخوة يوسف إلى قناعة بشأن يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (يوسف، ١٠)

ويروى أن يهودا هو الذي جاء بهذه الفكرة وأقنع إخوته بها. كم هو عبرة حال هؤلاء الإخوة؛ فأكثرهم رحمة كان من أوصى بحسده أن يلقى يوسف عليه السلام في البئر. وبهذا، كم من عدو خفي يلبس لباس الصداقة بحسده. وهو ما يوجب التنبه إليهم والحذر بقدر المستطاع.



إن أصحاب الإستقامة الحقيقية هم الذين قلوبهم حية فقط. أما ضد ذلك من القلوب البعيدة عن الذكر فإنها تقع تحت تأثير النفس؛ فتجف بنار الشهوة، وتتصلب وتصبح أعضاؤها غير قادرة على العبادة. واستمرار القلوب على هذا الشكل، يجعل منها بعد ذلك

كقطعة الحطب لا تنفعُ إلا للإشتعال في النّار. نسأل الله أن يحمينا من الوقوع في هذا الأمر. يقول الله تعالى:

﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾

(الزمر، ٢٢)

❁

وأخيراً، يأتي إخوة يوسف إلى أبيهم ومعهم ما اتفقوا عليه من خطة غادرة:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف، ١١-١٢)

البلاء مرتبط بما يخرج من اللسان

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف، ١٣)

تتحدث إحدى الروايات أن يعقوب عليه السلام رأى رؤيا. فكان فيها على سفح جبل وكان ابنه يوسف فيها في الصحراء. وتهجم عشرة ذئاب بشكل مفاجيء على يوسف. فيختفي يوسف من بعدها. ولهذا كان قول يعقوب عليه السلام لأولاده "وأخاف أن يأكله الذئب!" مشيراً إلى قلقه. ولكنه كان بذلك القوم وكأنما يؤمن لأبنائه حجة الغياب التي سيعتذرون بها بعد تنفيذ تلك الخطة.

لا يجب على الإنسان أن يمد خصمه بأمور قد يستخدمها ضده.

فحتى تلك اللحظة لم يكن لإخوة يوسف خطة مكتملة كهذه. وكان ما صرح به والدهم هو خيط الأساس الذي تمكنوا خلاله من إكمال خطتهم سراً.

يقول ابن السقيط الذي قتل بعد قطع لسانه:

"من الممكن أن تكون المصيبة التي تلحق بالإنسان جراء زلة لسانه، هي مصيبة أكبر من تلك التي تلحق به من زلة قدمه! فما يقع من مصيبة جراء زلة القدم هو جرح سيندمل مع الأيام. أما ما يخرج من الفم من قول فإنه قد يذهب بالرأس كله".

وعلى الرغم مما رأى من رؤية وخبر، بقي يعقوب عليه السلام في عجز عن ردع أبنائه من اصطحاب يوسف عليه السلام معهم. ولربما يكون هذا القول المأثور هو خير ما يعبر عن هذا الأمر:

«إذا جاء القدر، عَمِيَ البصيرُ!»

فالعبد الذي يقول «لا أفعل هذا الخطأ أبداً» يكون بقوله هذا قد ترك باباً مفتوحاً للشيطان يدخل منه، فيترك الشيطان كل أعماله ويسلط عليه إلى أن يتمكن منه فيقع في الخطأ الذي أصر بقوله على عدم فعله. (السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١١٠)

من هذا المنطلق لا يجب على المرء التكلم بشكل قاطع وأن يلتجيء دائماً إلى اللّٰه تعالى.

لقد كان إخوة يوسف أناساً قصروا في حرمة أبيهم وأخيهم. ولهذا، وعملاً على تحقيق ما بيتوا من خطة وحيلة، توجهوا إلى أبيهم بالقول والتنبيه فقالوا:

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (يوسف، ١٤)

خيانة الإخوة

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف، ١٥)

وما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى "وأوحينا إليه» أي إلى يوسف، هو ما اعتمد عليه معظم علماء التفسير ليؤكدوا أن النبوة أعطيت ليوسف عليه السلام منذ أن كان في هذا العمر والمرحلة[٧].

أمام إصرار أبنائه على أخذ يوسف عليه السلام إلى الصحراء معهم، ولما كان من رغبة ليوسف عليه السلام في الذهاب مع إخوته، قبل يعقوب

٧. لقد أرسل الله عز وجل الوحي إلى كل من يحيى وعيسى عليهما السلام في سن البلوغ. كما قام بمثل ذلك مع بعض عباده بانتظار تهيأتهم للنبوة عندما يشاء. كما فتح الله تعالى باب الولاية لبعض عباده وهم في سن الطفولة. ومن هؤلاء الأولياء الصلح عبد الله التستري. ولهذا، فإننا نفهم من ذلك أنه لا علاقة للعمر بتولي النبوة سواء أكان طفلاً أو قد بلغ الأربعين. ولكن معظم الأنبياء شرفوا بالنبوة في سن الأربعين الذي يعتبر سن الوصول إلى مرحلة الكمال. ولهذا نجد أن معظمهم بدأ برسالته النبوية بعد سن الأربعين.

عليه السلام بمطلب أبنائه على مضض. وحمل الأخوة يوسف عليه السلام على ظهورهم إلى أن تواروا عن أنظار أبيهم سعياً منهم لإراحة قلق أبيهم. وما إن توارى الأب عن الأنظار حتى ترك الأخوة ما كان منهم من عهد. فألقوا يوسف عليه السلام بغضب إلى الأرض وقالوا:

«– يا صاحب الرؤية الكاذبة! أين الكواكب التي رأيتها تسجد لك؟ فليأتوا ليخلصوك منا الآن!»

وبدأوا بضرب يوسف عليه السلام وأذيته. وما التجأ يوسف إلى أخ من إخوته إلا ناله منه أذى أكبر، فقبح وضرب. فبدأ أمام هذا الوضع الذي لا حيلة له فيه بالبكاء وقال:

«– يا أبت! ما أسرع ما نسوا عهدهم إليك ونصيحتك لهم! لو ترى ما يفعلون؛ إن ما يقومون به من أذية ابنك لا يقوم بها أحد لعبده!»

وبحسب إحدى الروايات، فإن ربيل رفع يوسف وألقاه على الأرض. ومن ثم جلس بسرعة على صدره هادفاً قتله. كما أراد أخوه ليفي أن يدق عنقه. عندها توجه يوسف عليه السلام إلى أخيه يهودا أكثر إخوته رحمة بينهم، فقال له راجياً:

« يا يهودا! اتق الله وامنعهم عن قتلي!» وعندها رق قلب يهودا وقال: «– لا تقتلوه! ألم نتعاهد على عدم قتله؟»

فقالوا: «– نعم!»

عندها قال يهودا: «ألا أقول لكم بشيء خير من قتله؟ ألقوه في البئر»



إلقاء يوسف عليه السلام في البئر

وعندما أتت إجابة بقية الأخوة «جيد جداً!» على عرض يهودا، تعاونوا جميعاً على إلقائه في البئر.

ويقال أن هذا البئر هي في جوار الأردن، قام شداد أحد حكام قوم عاد الظالمين بأمر حفره أثناء بناء الأردن. فتحته ضيقة وقعره واسع.

وأخيراً، أتى الإخوة جميعهم إلى البئر. وكان يوسف عليه السلام يتمسك بألبستهم ويرجوهم، ولكنهم كانوا يبعدونه ويركلونه. وأمسكوا به في طرف البئر معلقاً من يديه بأيديهم لكي لا يتمكن من الإمساك بشيء ونزعوا عنه قميصه. فقد اتفقوا على نحر خروف يمرغون بدمه قميص يوسف لإقناع أبيهم. فقال يوسف لإخوته عند نزع قميصه:

«- يا إخوتي! دعوا لي قميصي. فإن مت كان كفناً لي، وإن بقيت حياً كان لباساً لي!.» ولكنهم لم يستمعوا له.

وبعد أن وصل يوسف إلى منتصف البئر قطع إخوته الحبل لكي يقع فيه. ولما كان البئر مليء بالماء، فقد تسلق يوسف إلى صخرة في طرفه. ووقف على قدميه ونادى إخوته عل الرحمة لعلّها تنال من قلوبهم فيخرجونه. إلا أن إخوته أرادوا رميه بالحجارة لأنه «لم يمت!». لكن يهودا منعهم من ذلك.

وفي هذه الأثناء، نادى الله تعالى جبريل فقال له:

«إلحق عبدي!»



فأسرع جبريل عليه السلام إلى يوسف وأمسك به ووضعه على تلك الصخرة. وكان يحضر له من الجنة طعامه وشرابه. ومن ثم ألبسه قميص إبراهيم عليه السلام. يقول حسن البصري:

«عندما أُلْقي في البئر، كان يوسف يبلغ الثانية عشرة. وقد التقى به أبوه يعقوب بعد أربعين سنة كاملة»

وكانت البئر موحشة جداً. فيها من الحيايا والعقارب وسائر الحشرات. ولكنها أمرت جميعاً ألا تخرج من جحورها.

وعندما ألقي يوسف عليه السلام في البئر، التجأ إلى ربه قائلاً:

«- يا شاهداً لا يغيب! يا قريباً لا يبتعد! يا غالباً لا يغلب! أخرجني من الضيق الذي يلم بي إلى الرفاهية! وافتح لي باب النجاة!»

وبحسب إحدى الروايات فإن يوسف عليه السلام بقي في البئر ثلاث ليال. وتروي رواية أخرى بأنه لم يلبث فيه إلا ساعة واحدة.

وبينما كان يوسف عليه السلام في البئر، قام جبريل بتعليمه هذا الدعاء:

«يا رافع الغم! يا مجيب الدعاء! يا مضمم كل أنواع الكسور! ومسهل كل أنواع الصعوبات! يا صاحب من لا أهل له، ومؤنس كل وحيد يا الله! يا إلهي يا من لا إله غيره! أنزهك وأرجوك أن تنقلني من وحشتي هذه إلى الرفاهية ، وأن تفتح لي باباً للنجاة! قد تربع حبك في قلبي إلهي، فلا أذكر أحداً بعدك قط. إحفظني يا إلهي! يا أرحم الراحمين!».

عندما ألقي يوسف في البئر بدأ بذكر ربه. وعندما سمعت الملائكة مناجاته طلبت من الله تعالى أن تستمع إلى هذا الصوت الجميل. فقال تعالى للملائكة: «- ألستم من قال قبل ذلك؛

﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...﴾ (البقرة، ٣٠)"

ومن ثم سمح الله تعالى لهم بالإستماع إليه بعد أن ذكرهم بما كان من قولهم.

إن الروح والقلب يميلان إلى عالم الروحانيات. أما القوة والأحاسيس التي تعود للنفس فإنها تميل إلى عالم الحيوانيات. فإذا تُرِكَ الإنسان لحاله، تكون الغلبة فيه للنفس؛ فيتحكم البدن بالروح، وهو حال الفاسقين.

أما إن نال القلب أخلاقاً حميدة من خلال الصحبة والذكر، فإن الغلبة فيه تكون للروح والقلب. وعندها يتحكم القلب والروح بالجسد والنفس. وهو حال السعداء.

ويُظْهِر الأنبياء والأولياء الكرام صبراً وتحملاً على البلوى التي تصيبهم بما يمن الله به عليهم من الوحي والإلهام.وبهذا تكون هذه الإمتحانات وسيلة لهم تقرب قلوبهم من الله ﷻ.

لقد امتحن الله ﷻ يعقوب ويوسف عليهما السلام بقدر شديد وحزن كبير ليصبرا رغم كل ذلك فيزداد تعلقهم باللَّه ويتجها إليه وحده دائماً. فيزداد تعلقهما به، ويتجها دائماً إليه. فيكون تقربهما به وسيلة تنجيهم من كل ما يتعلق بالدنيا من الأمور الفانية فيصلا إلى الدرجات الرفيعة العالية!. فكم من درجة رفيعة لا يصل إليها المرء إلا من خلال المحن والمشقات.

ولهذا، لم يكن بقاؤه عليه السلام في السجن اثنتي عشرة سنة إلا لحكمة أراده اللَّه تعالى ليوسف عليه السلام فيمتلك من خلال المشقة والحلاوة والرياضة والمجادلة أنواع الكمال المعنوي. ولربما كان بقاؤه بقرب أبيه سبباً يمنعه من الوصول إلى ذلك. ولهذا، نجد أن معظم الأنبياء توجهوا في حياتهم إلى الهجرة بعيداً عن أرضهم وديارهم في فترة من الفترات وعاشوا حياة الغرباء.



بعد أن ألقى إخوة يوسف أخاهم في البئر اتجهوا نحو طريق العودة إلى البيت، فأتوا أباهم وفي عيونهم دموع الكذب. تتحدث الآيات الكريمة عن هذا الأمر فتقول:

﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (يوسف، ١٦– ١٧)

بحسب إحدى الروايات، تأتي امرأة إلى القاضي شريح تبكي بعد شجار بينها وبين زوجها. فقال الشعبي للقاضي:

"- يا أبا أمية! إني أظن هذه المرأة مظلومة. ألا ترى كيف تبكي!"

فقال له القاضي شريح:

"- يا شعبي! لقد أتى إخوة يوسف أباهم يبكون على الرغم من ظلمهم. ليس من الصحة بوجه أن يحكم المرء بناء لمشاهد البكاء! بل يجب عليه أن يطلع على حقائق الأمور فيبني حكمه عليها."



علماً أن إخوة يوسف لم يكتفوا بالبكاء كذباً وإنما أضافوا على ذلك:

﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف، ١٨)

ويروى أن يعقوب عليه السلام أمسك بقميص يوسف الذي أحضر إليه مضرجاً بالدماء ومرغه في وجهه وبكى قائلاً:

"- لم أر في حياتي ذئباً رحيماً إلى هذه الدرجة! يأكل ولدي ولا يمزق قميصه!".



صبر جميل

لقد أصبح حزن يعقوب عليه السلام على ولده يوسف قصة تتناقلها الألسن. ويعبر الشاعر يونس أمره عن ذلك الأمر فيقول:

لقد كنت يعقوباً بحالي،

وكان اسم المولى على لساني،

فقدت يوسف في أرض كنعان،

يبكي ويبكي يعقوب قائلاً: يا يوسفي!

أخذوا يوسف وعادوا بدم،

وقالوا ببهت أكلته الذئاب،

لا أدري ما فعلوا بقميص يوسف،

يبكي ويبكي يعقوب قائلاً: يا يوسفي!

وهكذا، لم يبق ليعقوب عليه السلام إلا البكاء ذرفاً للدموع صابراً على ألمه وحزنه. ولهذا، لم يشتكي لأحد عن حاله صابراً وقال:

﴿**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ...**﴾ (يوسف، ٨٦)

أخرج ابْن جرير عَن الْحسن رضي الله عنه عَن النَّبِي ﷺ أَنه سُئِلَ مَا بلغ وجد يَعْقُوب على ابْنه

قَالَ: وجد سبعين ثَكْلَى

قيل فَمَا كَانَ لَهُ من الْأجر

قَالَ: أجر مائَة شَهِيد وَمَا سَاءَ ظَنّه بِاللَّه سَاعَة من ليل أَو نَهَار

وهكذا، لقب هذا الصبر بقوله: «صبر جميل».

والصبر الجميل هو تلقي المصائب والبلاء بعيداً عن العويل، والشكوى، بمتانة وتوكل. فمن يشكو ربه لعباده يفقد خاصية الصبر.

إخراج يوسف عليه السلام من البئر وبيعه

وبينما كان يعقوب عليه السلام يصبر صبراً جميلاً، كان يوسف عليه السلام يعيش في بئره متوكلاً ومسلِّماً أمره لله عز وجل. وفي هذه الأثناء:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (يوسف، ١٩- ٢٠)

وعلى الرغم من أنهم فتنوا بجمال يوسف عليه السلام، إلا أن من أخرجه من البئر باعه بثمن بخس من الدراهم. ذلك أنهم كانوا يخافون من أن يخرج أحد فيطالب به، فباعوه بسرعة بالرغم من جماله الباهر عملاً على التخلص منه قبل أن يطالب به أحد.

يقول الشيخ الكبير محيي الدين ابن العربي قدس اللّه سره:

« يقول تعالى:

﴿...وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (الأحزاب، ٣٨).



إن سر هذا القول هو أن اللّٰه تعالى إذا أراد أمراً فإن زلة بسيطة من عباده كفيلة بتحقيق ذلك»

علماً أن يوسف عليه السلام وقف يوماً أمام المرآة ينظر إلى نفسه ويشاهد جماله فيقول:

«– لو أنني أباع عبداً لكنت لا أقدر بثمن؛ وكان سعري غالياً جداً!»

إن هذه الزلة البسيطة التي قام بها إعجاباً بنفسه، لربما كانت سبباً في أن بيع عبداً وبسعر بخس زهيد لا قيمة له.

يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عائداً من المسجد إلى داره فخرج له أولاد يقولون له:

«كن لنا جملاً كما تكون للحسن والحسين»



إن المهم ليس الجمال الظاهري الفاني، وإنما جمال القلب والأخلاق. يحدثنا رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فيقول:

"إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ" (مسلم، البر، ٣٣/ ٢٥٦٤؛ ابن ماجه، الزهد، ٩)

كما أن سيدتنا هاجر قدمت من فرعون هدية وجارية إلى سيدتنا سارة. فكان أن ولد لهذه الجارية إسماعيل عليه السلام وكان من نسلها الأنبياء وكان آخرهم سيدنا ورسولنا عليه الصلاة والسلام.



إن لا قيمة كبرى لشكل الجسد. فهو غشاء للروح. ويكتسب الإنسان عزته وشرفه ببنيته الروحية أو يذل من خلالها. فإن كان للمرء أعمال صالحة وقلب نقي صاف، فإنه يكون مقبولاً عند اللَّه تعالى. وإن لم يكن كذلك، فلا أهمية بعد ذلك لجمال وجهه أو كثرة ماله أو عدمه.

فإن استعبد بدن الإنسان، فكيف يباع بخساً زهيداً! فكيف بمن باع روحه وقلبه لشهوته ورغبات نفسه فكان عبداً لها، فكيف بها ستكون عاقبته؟

لهذا، يجب على المؤمن أن يعرف قيمته وعزته، وأن لا يرضخ في أي يوم من الأيام لنفسه فتستعبده. علماً أن اللَّه تعالى يقول:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ (الفرقان، ٤٣)

❁

تقول الآية الكريمة:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَيهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْويهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٢١)

بحسب كتب التفسير، كان الذي اشترى يوسف ﷺ تاجر عبيد قام بعد ذلك ببيعه إلى وزير المال في مصر. لأن وزير المال تنبه إلى ذكاء وفطنة يوسف ﷺ، فأراد بشرائه أن يستفيد منه بعد ذلك في أمور الدولة مستقبلاً. كما أنه أراد أن يجعله ولداً له لأنه كان عقيماً لا ولد له.

وشراء العزيز ليوسف ﷺ يدل على أن يوسف ﷺ بعد أن بيع بسعر زهيد بخس لتاجر العبيد، بيع مرة أخرى للعزيز بسعر مرتفع أيضاً. علماً أن من اشتراه أولاً زينه وألبسه وأخرجه للبيع بحيث بقيت مزايدته ثلاث أيام كاملة. ومن ثم قام عزيز مصر بشرائه لقاء وزنه من المسك، ووزنه من مواد الزينة، ووزنه ذهباً، ووزنه فضة، ووزنه من الحرير.



بحسب بعض الروايات، فإن اللّه تعالى يقول:

"– يا ابن آدم! أنت تريد وأنا أريد. ولا يكون إلا ما أريد. فإن سلمت لي فيما أُريد أعطيتك ما تريد. وإن نازعتني في ما أريد، قلبت ما تريده رأساً على عقب. فلا يكون إلا ما أريد..."

لقد امتدح اللّه تعالى العلم في القرآن، وقبح الجهل والجهالة.

جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال أي الأعمال أفضل؟ قال"**العلم**



باللّه" ثم أتاه فسأله فقال مثل ذلك فقال يا رسول **الله**: إنما أسألك عن العمل فقال ﷺ:

"إن العلم ينفعك معه قليل العمل وكثيره" (المناوي، فيض القدير، ٢، ٢٧/ ١٢٤٠)

يقول المثل، الوصول إلى كمال العلم خير من الوصول إلى كمال العمل. ولكن الخطأ في العلم، أخطر من الخطأ في العمل. علماً أن شرط العمل الأول هو العقيدة النقية.

ولهذا، دعى الأنبياء جناب الحق سبحانه وتعالى طلباً في زيادة العلم. فكان علم آدم عليه السلام بالأسماء كلها وسيلة لسجود الملائكة واكتساب احترامهم، وكان فهم سليمان عليه السلام وذكاؤه العبقري سبباً في حصوله على أكبر سلطنة في التاريخ، وكان علم يوسف بتفسير الرؤى سبباً في خلاصه من الأزمات والسجن والوصول إلى الحكم.

سيدنا يوسف عليه السلام وزليخة

يقول اللّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

(يوسف، ٢٢)

كَبُرَ يوسفُ عليه السلام، واشتدَّ بنيانه، وأصبح شاباً شديدَ الجمالِ. فكان حاله سبباً بأن تفكر فيه سيدة البيت الذي يعيش فيه بأسلوب مختلف عما يجب عليه. يروي لنا القرآن الكريم تفاصيل ذلك بقوله عز وجل:



﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف، ٢٣– ٢٤)

كانت زليخةُ تمتلك أوصاف النفس الزبون الثلاثة؛ أي الثروة والشهرة والشهوة. وكانت صاحبة حسن وجمال، وكانت لا تجد في أحد ما يتناسب مع أوصافها، ما جعلها محط الأنظار للجميع. وكانت زليخةُ قد أغلقت باب الغرفة بإحكام شديد.

ولهذا فكانت جرأتها في طلب الخطيئة أشد قوة وعزماً. فقالت ليوسف عليه السلام برغبة شديدة:

«هيت لك!» أي «تعال إليَّ» تقصد في قولها الإصرار على الفعل السيء المشين. وأمام هذا المشهد الذي يذيب إرادة الكثيرين عن المقاومة، تمكن يوسف عليه السلام بما أعطاه اللَّه من قوة وثبات عظيمين بقوله تعالى:

«ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه». علماً أن من أشد ما يمكن للرجل أن يتعرض إليه من امتحان في حياته هو: أن تدعوه امرأة ذات الأوصاف المتميزة من الجمال والشباب والثروة، وأن يضاف على ذلك الخلوة، فيقول لها «كلا».

وهكذا، وأمام كل ما كان أمامه من أمور قوية جاذبة، تمسك بدرع من اللّٰه تعالى بقوله «معاذ اللّٰه» فكان نعم العبد المخلص، وخير صاحب للتقوى بالتجائه إلى اللّٰه ﷻ. ولهذا جاءت الآية القرآنية الكريمة تتحدث عن برهان اللّٰه الذي كان صوناً من اللّٰه ومحافظة له ؈.

ولهذا، إن من خير الأمور التي تمكن المرء من مقاومة أمور الدنيا ورغباتها المتمثلة مجازاً في قوله تعالى «هيت لك» أي «تعال إلي»، هو أن يقول المرء في قلبه «معاذ اللّٰه» «ملتجئاً إلى اللّٰه» تعالى في قدرته التي لا نهاية لها.

وتنقل بعض كتب التفسير عن كلمة «برهان» المذكورة في الآية الكريمة ما يلي: عندما سمع يوسف ؈ صوتاً يقول له «إياك، إياك!» لم يهتم لذلك الصوت.

ولكن، بعد أن تكرر هذا الصوت ثلاث مرات متتالية، ظهر شكل يعقوب ؈ في ذلك المكان. فرجع يوسف ؈ إلى نفسه وأعرض بوجهه عن زليخة.

فكان يعقوب ؈ بشكله مساعدة معنوية ليوسف ؈ بإذن اللّٰه، ومانعاً لميله نحو زليخة التي تمثل النفس الأمارة بالسوء.

فكانت هذه الحادثة التي ذكرت في الآية الكريمة نموذجاً للإستعانة والإستغاثة، والرابطة المعنوية.

يقول علي بن حسن في إحدى الروايات:

كان لزليخة صنم لها تضعه في غرفتها. فقامت بتغطيته بلباس قبل أن تدعو يوسف عليه السلام إليها. فسألها يوسف الذي رأى ذلك:

«- لماذا قمت بذلك؟»

فقالت له زليخة: «- استحييت أن يراني في ساعة المصيبة!»

فقال لها يوسف عليه السلام:

«- تستحيينَ من قطعة الحجر مما لا يسمع ولا يرى ولا يفهم شيئاً، ولا حق لي في أن أستحي من ربي الذي خلق كل شيء في أجمل وجه؟»

عندما رأى يوسف عليه السلام برهان ربه قام مسرعاً نحو الباب. فلحقت به زليخة:

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف، ٢٥)

فقال لها العزيز:

"- من الذي أراد بأهلي سوءاً؟"

فأضافت زليخة إلى ذنبها ذنباً آخر فقالت مفترية على يوسف:

"- أراد هذا الشاب أن يراودني عن نفسي."

فالتفت العزيز إلى يوسف وقال:

"- هل هذا هو نتيجة الإحسان الذي قدمته إليك؟ لم يكن عليك أن تحزنني!"

فقام يوسف عليه السلام بسرد الوقائع الحقيقية للحادثة دفاعاً عن نفسه من ذلك الإفتراء:

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف، ٢٦ – ٢٧)

يروى أن يوسف عليه السلام قد دعا ربه أن يظهر له دليلاً يؤكد براءته وصدقه. فكان لخال زليخة طفل ذو ثلاثة أو أربعة أشهر فنطق بشكل معجز وشهد ببراءة يوسف عليه السلام.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (يوسف، ٢٨ – ٢٩)

وبدأت هذه الحادثة تنتشر بين الناس.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَيهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يوسف، ٣٠)



النساء تقطِّعن أيديُهنَّ عند رؤية يوسف

عندما سمعت زليخة بما كان من قيل وقال، قررت أن تمتحن نساء المدينة:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

(يوسف، ٣١)

وكلمة «متكأ» المذكورة في الآية الكريمة هي بمعنى المخدة التي يُسْتَنَدُ عليها، وتأتي بمعنى «مجلس الطعام». لأنهم كانوا وبناءً لعادات المغرورين من الناس في زمانها، كانوا يأكلون ويشربون ويتسامرون ساندين ظهورهم إلى الخلف. ولهذا، فقد منع رسول اللَّه ﷺ الأكل مستنداً على شيء. ولهذا يقول رسول اللَّه ﷺ:

"لاَ آكُلُ وَأَنَا مُتَّكِئٌ" (البخاري، الأطعمة، ١٣/ ٥٣٩٩)

مقارنة منها بجمال وجه سيدنا محمد ﷺ بجمال يوسف عليه السلام، تقول سيدتنا عائشة رضي الله عنها في وصف النبي ﷺ:

وَلَوْ سَمِعَ أَهْلُ مِصْرَ أَوْصَافَ خَدِّهِ
لَمَا بَذَلُوا فِي سَوْمِ يُوسُفَ مِنْ نَقْدٍ
لَوَائِمُ زُلَيْخَا لَوْ رَأَيْنَ جَبِينَهُ
لآثَرْنَ بِالْقَطْعِ الْقُلُوبَ عَلَى الْأَيْدِ

كان رسول اللّه ﷺ يدعو ربه دائماً بأن يجعل سيرته كجمال خلقه. فكان إذا نظر إلى المرآة يعرج على جمال الأخلاق بقوله:

"اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي" (ابن حجر، فتح الباري، جـ ١٠، ص٤٥٦)

أمام ما كان من فعل لنساء مصر أمام ما رأوه من جمال يوسف عليه السلام قالت لهم زليخة:

﴿قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف، ٣٢)

وهكذا، وأمام ما كان من فتنة النساء أمام يوسف عليه السلام الذي كان وجهه يلمع كالشمس وأجمل من البدر مكتملاً في الرابع عشر من كل شهر، رفع يوسف عليه السلام يديه يطلب عون ربه وملتجئاً إليه يطلب حفظه من شر هذا الموقف.

إذ أن حيل هؤلاء النسوة الغافلات عن الحق سبحانه وتعالى لهي أشد من مكائد الشياطين.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف، ٣٣)

يقول بعض كبار الصالحين من العلماء:

" إن إعطاء النفس تنازلاً، أي أن يستجيب المرء لرغبات نفسه، هو أمر يباعد المرء عن المحافظة على نفسه من شرها. والنجاة من

ذلك هو بالالتجاء إلى اللَّه، والتقيد بأوامره. ولهذا، نجد أن يوسف عليه السلام التجأ إلى ربه ووصل إلى الفلاح".

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(يوسف، ٣٤)

إن لم يتسلح الإنسان بحفظ اللَّه تعالى، فإنه ما من قلب حتى ولو كان قلب نبي حائز على العصمة، فإنه ونتيجة لبشريته، لا يمكنه أن يكون آمناً من مكائد الدنيا، والميل إلى بعض الرغبات، ووسوسة الشيطان وأحاديث النفس. فلا يمكن له أن يحمي نفسه بنفسه! ولهذا، كان "برهان اللَّه» إلى يوسف خير مثال يوضح هذه الحقيقة.

ولهذا، فإن من واجبنا كعباد لله؛ أن لا نأمن لحيل أنفسنا أبداً، وأن نبقى في حالة من التيقظ فنلجأ دوماً إلى اللَّه تعالى مدركين لعجزنا في هذا الشأن.

السجن

وقبولاً من اللَّه تعالى لدعاء يوسف عليه السلام:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾

(يوسف، ٣٥)

نزع عن يوسف عليه السلام لباسه وألبس لباساً مصنوعاً من الريش، وربطت قدميه بسلسلة من الحديد. وعندما اقترب يوسف عليه السلام من



باب السجن أحنى رأسه وقال "بسم اللّٰه" ودخل. والتف حوله جميع من في السجن فبدأ بالبكاء. فأتاه جبريل عليه السلام يسأله عن سبب بكائه. فأخبره يوسف عليه السلام بأن لم يجد مكاناً يمكنه من الصلاة فيه، فقال له جبريل عليه السلام: "– صل حيث بدا لك! فلقد طهر اللّٰه أربعين عرشاً داخل السجن وخارجه"[٨]

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (يوسف، ٣٦ – ٣٧)

وحول اسباب إلقاء هذين الشابين في السجن يروى ما يلي:

حاول بعض زعماء مصر من الناس المتزعمين فيها قتل الملك ريان بن الوليد عبر وضع السم له ومن ثم اختيار أحدهم مكاناً له في منصبه. ولهذا فقد قام هؤلاء الزعماء بمحاولة إغراء شابين يعملان

٨. في عهد الأنبياء الأولين والأمم السابقة، لم يكن مسموحاً لهم العبادة حسب شريعتهم. فكانوا لا يستطيعون العبادة إلا في أماكن محددة. أما رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم فقد منح لخصوصية مكانته وذاته المباركة تميزاً بأن جعل اللّٰه تعالى سائر أرجاء الأرض أماكن طاهرة يمكن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم العبادة فيها. ولهذا نجد أن رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم قد قال: «... وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً...» (البخاري، التيمم، ١/ ٣٣٥)

في بلاط القصر أحدهما ساق والآخر طباخ لدى الملك. وأقنعوا هذين الرجلين بوضع ذلك السم في طعامه وشرابه.

ولكن ساقي القصر كان قد فهم سوء هذا العمل، فعدل عن وضع السم للملك. أما الطاهي فوقع في سوء عمله وارتكب هذا الذنب. وعندما أراد الملك أن يمد يده إلى طعامه صاح به الساقي وقال: ”– أيها الملك! إياك أن تأكل، فإن هذا الطعام مسموم“

وقال له الطاهي:

”– أيها الملك! إياك أن تشرب، فذلك الشراب مسموم“

وأمام ذلك الأمر، طلب الملك من الساقي أن يشرب من ذلك الشراب. فشرب الساقي دون اي تردد.

ثم أمر الملك الطاهي بأن يأكل من ذلك الطعام. لكن الطاهي أبى ورفض.فأطعم الملك من ذلك الطعام أحد الحيوانات فخر قتيلاً جراء ذلك مباشرة.

فأمر الملك بحبس كلا الرجلين. فرأى كل منهما ما كان من رؤيا وردت حول ذلك في القرآن الكريم. (انظر: القرطبي، الجامع، جـ٩، ١٨٩)

وأراد يوسف عليه السلام أن يعلم عقيدة التوحيد لهذين الرجلين اللذين يشاركانه حياته في هذا السجن. فما كان منه قبل أن يفسر لهما معاني أحلامهما إلى أن بدأ بإخبارهما حول ما هو عليه من دين الحق، وأن ما لديه من علم ليس إلا تكرماً من اللّه تعالى إليه،

وأن أهل مصر هم على ضلال من أمرهم. فكان يحضرهم بذلك ليدعوهم إلى دين الحق.

وما يجب أن يستخلص من عبرة في هذا المقام هو أن المرء مهما تعاظمت أمامه الظروف والشروط، فإنه لا يجب عليه أن يتخلى أبداً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولهذا، كانت الآيات الثلاثة المتعاقبة تتحدث عن تبليغ يوسف عليه السلام لهما:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَآؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٣٨ - ٤٠)

تأويل يوسف عليه السلام للأحلام

بعد أن دعا يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن إلى عقيدة التوحيد، بدأ يفسر لهما تفاصيل رؤيا كل منهما على حدة فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف، ٤١)



﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسِيهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف، ٤٢)

وكانت النتيجة تماماً كما أشار يوسف إليهما. فأخرج الساقي من السجن وعاد إلى وظيفته التي كان عليها. أما الطاهي فكان مصيره الإعدام.

ويتحدث بعض المفسرين على أن طلب يوسف العون من صاحبه في السجن متناسياً بذلك ذكر اللّٰه تعالى وعونه، قد أدى إلى تأنيب اللّٰه تعالى له بأن أبقاه في السجن بضع سنين أخرى. وهذا الحال الذي حصل هو لدى الأنبياء بما يسمى "الزلة".

وعقاباً له عليها، مكث يوسف عليه السلام سبع سنوات أخرى إضافة للسنوات الخمس الآولى التي كان قد قضاها قبل ذلك.

وهكذا، كان مجموع ما قضاه في السجن اثنتي عشرة سنة كاملة.

ويروى أنه خلال الفترة التي سجن فيها يوسف عليه السلام، كان كل من خرج من السجن يعود إليه بين الفينة والأخرى ليزوره ويتحدث إليه في جلسات طويلة.

وفي أحد الأيام، وبينما كان حارس السجن يتحدث إلى يوسف عليه السلام قال له:

"– يا يوسف! إني أحبك لدرجة لا أحب أحداً مثلك قط."



فقال له يوسف عليه السلام:

"- إني ألتجيء إلى اللّه ليحميني من حبك لي!"

فقال له حارس السجن:

"- لماذا؟" فأجابه يوسف عليه السلام:

"- كان أبي شديد الولع بي، فألقاني إخوتي في البئر؛ وأحبتني زليخة فألقي بي في السجن؛ والآن، أمام حبك لي من يعلم المكان الذي سألقى به!؟".



عن مالك بن دينار أنه قال: لما قال يوسف عليه السلام للساقي (للشرابى):

"- أُذْكُرْنِي عند ربك!"

قيل له: (أي أوحى اللّه عز وجل إليه بقوله):

"- يا يوسف! اتخذت من دوني وكيلا؟ لَأطِيلنَّ حبسك!"

فبكى يوسف عليه السلام وقال:

"- يا ربي! يا رب أقسى قلبى كثرة الأحزان والبلوى فقلت كلمة ولا أعود"

ويخبر حسن البصري أنه يبكي كلما يقرأ هذه الرواية ويقول:

" نحن إذا نزل بنا امر فزعنا الى الناس"



يقول رسول اللَّه ﷺ:

"رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس" (البرسوي، روح البيان، جـ٤، ٢٦٤-٢٦٥)

لكن ما يقدم اللَّه تعالى لأنبيائه وأوليائه من بلاء ومشقة وضيق، لا يعتبر جزاء وعقاباً من اللَّه لهم، بل هو هدية مهداة منه جلَّ وَعَلا.

يقول رسول اللَّه ﷺ:

"إذا أحب اللَّه عبداً ابتلاه!" (علي المتقي، كنز الأعمال، ٣، ٣٣٤/ ٦٨١١)

عن أبي سعيد الخدري قال:

دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حرّه بين يديّ فوق اللحاف فقلت:

"يا رسول اللَّه ما أشدّها عليك"

قال ﷺ:

"إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ"

قلت: "يا رسول اللَّه أيُّ الناس أشدّ بلاءً؟."

قال: **"الأنبياء"** قلت: «يا رسول اللَّه ثم من؟.»

قال: **"ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ"** (ابن ماجه، الفتن، ٢٣/ ٤٠٢٤)

رؤيا حاكم مصر

وتكمل الآية الكريمة هذه القصة بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ. وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٤٣ - ٤٦)

يفسر يوسف عليه السلام رؤية الحاكم بما أعطاه اللّٰه تعالى من العلم فيقول:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف، ٤٧ - ٤٩)

بعد تفسيره لما كان من رؤيا، يفرح الحاكم بما حصل عليه من نتيجة ويرغب بمكافأة يوسف عليه السلام:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، ٥٠)

لم يذكر يوسف عليه السلام اسم زليخة تأدباً. كما أنه لم يرغب في أن تسعى لحيلة جديدة لما كان يظنه منها من عداوة وصلت إلى قمتها. فيجمع الحاكم تلك النساء جميعاً:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف، ٥١)

فيوضح يوسف عليه السلام سبب حركته هذه على بساطتها فيقول:

﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (يوسف، ٥٢)

يبين اللَّه عز وجل في هذه الآية الكريمة بأنه لا يحب الخائنين أصحاب الحيل والمحتالين بقوله جلَّ وَعَلا:

﴿...إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ (الأنفال، ٥٨)

وأكبر خيانة هي تلك التي يقوم بها المرء تجاه اللَّه ورسوله. لذلك، ينبهنا اللَّه تعالى لهذا الشأن فيقول جلَّ وَعَلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال، ٢٧)

إن الخائن ممن يمنع حقوق العباد مخالفاً أوامر اللّٰه تعالى ونواهيه، هو الذي سيعلم بعد ذلك أن الخيانة لا تعود في نهايتها بالضرر إلا على الخائنين أنفسهم كما كان الحال في المثل الذي ضربه القرآن الكريم عن «أصحاب ضروان» الذين خانوا الأمانة فانقلبت عليهم بشكل واضح مباشر.

قصة ضروان

يروى أن رجلاً كريماً من أهل اليمن كان يمتلك حديقة بقرب صنعاء للعنب والتمر والمحاصيل. وكان هذا الرجل الكريم يقتسم بكل كرم وزيادة حصص الفقراء والغرباء في فترة جمع هذا الحصاد. وعندما قارب على الموت، جمع أولاده وأوصاهم بأن يواظبوا على ما كان عليه من كرم وجود. ولكن، وبعد أن توفي هذا الرجل الكريم، دخل الحرص أعين أولاده فقالوا يتعاهدون فيما بينهم:

«- إن عائلتنا كبيرة جداً، وأملاكنا قليلة. فلا نعطين فقيراً شيئاً بعد اليوم! ولنجمع محاصيلنا قبل أن يأتونا طالبين...»

فقام اللّٰه ﷻ، وبناءً على ما كان من نية مبيتة منهم، بإحراق هذه الحديقة وجعلها خربة شديدة السواد. وأصبحت هذه الحديقة الكبيرة بمنظر لا يمكن التعرف عليها منها. وعندما رأى الإخوة ما آلت إليه حديقتهم قالوا يتعجبون فيما بينهم:

«- هل أتينا إلى المكان الصحيح؟»



لقد كان والدهم يوزع نصيب الفقراء بكل كرم وجود فتزداد بركة حديقته من دعاء المحتاجين له بالخير. فكان كل الفقراء والمحتاجين يستفيدون من تلك الحديقة. لكن هذه الحصة التي كان والدهم ينفقها على الفقراء، كبرت في أعينهم ورغبوا بالامتناع عن إعطائها. فكانوا يجهلون بذلك تلك البركة التي كان اللّٰه تعالى يرسلها إلى تلك الحديقة.ذلك أنهم كانوا في غفلة أعمت قلوبهم عن الحق.

لهذا، فإن اللّٰه تعالى يقول:

﴿...**ولا تكن من الغافلين**﴾ (الأعراف، ٢٠٥)

وهذه القصة التي تعرف باسم «أصحاب الضروان»، قد رويت في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلاَ يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ. فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ. فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ**﴾ (القلم، ١٧ – ٢٥)

عندما رأوا نتيجة بخلهم وحيلهم بعد أن وصلوا إلى الحديقة، احترقوا بنار الندامة. يخبرنا اللّٰه تعالى عن مفاجأتهم وندامتهم فيقول:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (القلم، ٢٦ – ٣٢)

يخبرنا اللّٰه سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة عن العاقبة المحزنة لأصحاب الحديقة الذين خلت قلوبهم من الرحمة باستخدام الحيلة ليمنعوا الفقراء والمساكين عن حقهم في الصدقة في قصة معبرة جميلة. فما من نية في القلب إلا ويعلمها اللّٰه تعالى. فعظمته تعالى قد وسعت كل شيء. ولهذا، نجد اللّٰه تعالى يختم هذه القصة بهذا التحذير المهم في قوله:

﴿كَذٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (القلم، ٣٣)

فراسة يوسف عليه السلام

لم يشأ يوسف عليه السلام الخروج من السجن قبل أن يفهم الملك الحقيقة كاملة، وقبل أن يقبل الجميع حقيقة المسألة كاملة وأسباب إلقائه في السجن لأسباب غير منصفة. فاستخدم عقله، وصبره ووقاره ليمنع كل من يحسده من الصيد في الماء العكر أكثر مما حصل له. ولم يقبل الخروج من السجن إلا من بعد أن أثبت براءته من التهمة الملقاة عليه افتراءً وكذباً بكافة الإسنادات والدلائل.

ولهذا، يجب على كل مسلم أن يأخذ عبرته من فراسة يوسف عليه السلام هذه، وأن يتصرف بدقة وصرامة تامة فيحترس من مواضع التهم والإتهام. وقد أكد علماء المسلمين على ضرورة الإحترازِ من توجيه التهم إلى المؤمنين[٩].

يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: "من ذهب في طريق الإتهام وقع فيه"

ويمكننا أن نشاهد في سيرة رسول اللّٰه ﷺ دقة مشابهة بشأن التخلص من التهم كما كان عليه الحال مع يوسف عليه السلام.

تحدثنا أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها عن حادثة عاشتها مع رسول اللّٰه ﷺ فتقول:

جئت إلى رسول اللَه ﷺ أزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت معه ساعة، ثم قمت أنصرف، فقام النبي معى يودعني، حتى إذا بلغت باب المسجد، عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار، فسلما على رسول اللّٰه، فقال لهما النبي ﷺ:

"عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ"

فقالا: سبحان اللّٰه يا رسول اللَه! وكبر عليهما، فقال:

---

٩. التهمة: هي الإعتقاد بارتكاب جرم دون التأكد من فعله بالدليل القاطع، أو الوضع الذي يؤدي إلى الشك بهكذا أمر.



"إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا" (البخاري، الاعتكاف، ١١/ ٢٠٣٥؛ مسلم، السلام، ٢٣ – ٢٥)

وكما يجب الحذر من الوقوع في قفص الاتهام، يجب التنبه أيضاً إلى ضرورة تجنب توجيه أصابع الإتهام للغير: يحذر اللَّه جلَّ وَعَلا عباده في القرآن الكريم فيقول:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء، ٣٦)

❁

وبعد أن برأ يوسف عليه السلام نفسه من التهم التي وجهها إليه الناس بشكل قاطع وحازم، توجه إلى ربه جلَّ وَعَلا ليحميه من أمارة نفسه فقال عليه السلام:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف، ٥٣)[١٠]

---

١٠. يقال أن الآيات ٥٢ و ٥٣ هي من كلام زليخة أيضاً. وفي هذه الحالة يكون معنى هذه الآيات كالتالي: «إنني لست أحاول أن أبرئ نفسي. فبينما أنا أسعى ليعرف يوسف بالحقيقة بأنني لم أخنه، فأنا لست أسعى من خلال ذلك لأن أزكي نفسي وأبرّئها. فما فعلته فعلته أمام عينيه، ولم أخنه من خلفه، أي بغيابه» وهكذا، فإن زوجة العزيز اعترفت بذنبها واستغفرت، فأقرت بالحقيقة وأعلنت إيمانها بشكل واضح باللّٰه تعالى. وظهر من خلال ذلك براءة وعفة يوسف u بشكل واضح براق لسائر الشعب.

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى في آية أخرى:

﴿...وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور، ٢١)

ولهذا، إن ما يجب على العبد هو أن يحفظ نفسه من شرها بالتمسك بالاستغفار والالتجاء إلى اللَّه والتضرع إليه وأن يدعو اللَّه ﷻ بالوصول إلى يوم القيامة أبيض الجبين.

ويجعل اللَّه من العبد سلطاناً

وفي نهاية الأمر، وبعد أن أدرك المَلِكُ سياسة وذكاء وروعة يوسف ﵇، أراد أن يأتي به إلى مقام رفيع. ويتحدث القرآن الكريم عن هذا الأمر بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف، ٥٤)

عندما خرج يوسف ﵇ من السجن كتب على بابه:

«هنا دار البلاء، وقبر الأحياء، ومحل ضحك الأعداء على خصومهم، وامتحان الأصدقاء.»

ومن ثم اغتسل ولبس ثوبه الجديد. ودعا اللَّه لمن في السجن فقال:

«اللَّهم أمل قلوبهم إلى الصالحين، ولا تخفِ عنهم أخبار الأصدقاء!»

وعندما أتى إلى حضرة الملك قال:

«إلهي، أرجو الخير منك وزيادته قبل أن يأتيني منه. وألتجيء لعزتك وقدرتك من شره.»

وهذا الملك ليس العزيز الذي اشترى يوسف عليه السلام. فبحسب ما يروى، توفي العزيز زوج زليخة قبل أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن. أما الملك الذي يتحدث عنه القرآن الكريم هنا، فهو رجل فاضل من سلالة يرجع أصلها إلى الخليج العربي أتت مصر وحكمت فيها أربعمئة سنة كاملة. وكان ملكاً يتقن العديد من اللغات. وعندما وجد أن يوسف عليه السلام يتقن لغات أكثر منه تعجب لذلك الأمر. ومن ثم أراد أن يستمع إلى تفسير رؤيته من يوسف عليه السلام بشكل مباشر. فأعاد عليه يوسف عليه السلام ما كان من تفسير ذكره سابقاً. فسأله الملك عن كيفية أخذ احتياطاته أمام ما أخبره به من تفسير.

فأجابه يوسف عليه السلام بقوله:

«- يجب عليكم في سنوات الوفرة أن تزرعوا الكثير. وبهذا تستطيعون أن تؤمنوا معيشتكم في سنوات القحط، كما يمكنكم أن تصدروا من هذا المحصول فتزيدوا من خزينة الدولة».

فقال له الملك:

«- ومن سيقوم بهذا الأمر؟» فأجاب يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، ٥٥)



وكما تدل هذه الآية، فإن من الجائز أن يطلب المرء وظيفة إدارية يعتقد بقدرته فيها على إقامة أحكام الدين والعدالة. ولكن، لا يجب على المسلمين أن يتنافسوا على هذا النوع من الطلبات.

يقول أبو موسى الأشعري: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: «أمرنا يا رسول الله». وقال الآخر مِثله.

فقال رسول اللَّه ﷺ:

"إِنَّا لاَ نُوَلِّي هَذَا مَنْ سَأَلَهُ، وَلاَ مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ" (البخاري، الأحكام، ٧/ ٧١٤٩؛ مسلم، الإمارة، ١٥)

كما يمكن الفهم من هذا الحديث، فإن أهل الأمر إذا أرادوا أن يعينوا أحداً في وظيفة أو موقع ما، فإنه يجب عليهم أن يبحثوا عن الرجل الذي تتواجد فيه الصفات المطلوبة، وليس لمن يطلبها من الناس بناءً للرغبة والطلب، وإنما يجب مراعاة من تليق به.

أما ما كان من طلب يوسف عليه السلام للإمارة كما ورد في الآية القرآنية الكريمة، فهو تنفيذ لأمر اللَّه تعالى، ودليل أيضاً على واجب سحب السلطة من يد الكافر والظالم عندما لا يبقى هناك أي إمكانية أخرى لإظهار الحق وقدرة اللَّه تعالى وردع الباطل. لكن هذه الوظيفة ثقيلة الحمل ومسؤوليتها كبيرة جداً. ولهذا فإنها لا تعطى إلا لمن يليق بها. وهكذا، ولأنه كان يحمل كل الصفات المطلوبة بدرجة عالية تمكنه من إصلاح العالم وتأدية وظيفته على أكمل وجه، هذا وقد تَسلَّم يوسف عليه السلام وزارة المال في هذه الدولة.

يقول اللّٰه تعالى:

﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يوسف، ٥٦ – ٥٧)

بل إن الملك أعطى يوسف عليه السلام صلاحياته الخاصة وسلمه زمام أمور الحكم والتصرف في مصر كاملة. وما كان من الملك من إظهار العزةِ ليوسف عليه السلام والإعتماد عليه وهو النبي المرسل، فإنه كان إيمانُ الملك بلطف من اللّٰه أمام يوسف عليه السلام. وآمن معه كثير من الناس أيضاً. لأن يوسف عليه السلام هو النبي الذي أرسل إليهم ليدعوهم إلى التوحيد.

إن مما يجب معرفته، هو أن اللطف والكرم وسيلتان أزليِّتان للسعادة. حتى ولو جاءت إحداهما من الكافر، فإن على المؤمن أن لا يغفل في تلك الساعة عن الإستفادة من لينه وكرمه فيدعوه إلى الإيمان والتوحيد. ذلك أن تلك اللحظة قد تكون وسيلة لوصول ذلك الكافر إلى بَرِّ النجاة.



ومنذ أن تسلم يوسف عليه السلام وظيفته في إدارة وحكم مصر، أولى اهتمامه مباشرة بالزراعة. فزاد من إنتاج الدولة. وخزن الفائض من هذا الانتاج. وما أن حَلَّت سنوات القحط حتى بدأ يوسف عليه السلام

باستخدام هذا المخزون في أرجاء دولته، وتصديره إلى الأماكن الأخرى مؤمِّناً الربح لخزينة الدولة. وبدأ الناس يأتوه من كل مكان طلباً للزرق والحصاد.

زواجه من زليخة

في هذه الأثناء، كانت زليخة قد ضيعت كل ما تملك، ولم يبق لديها أي شيء. وجفت عيناها بحب يوسف وضعف جسدها. فكانت كالعجوز في ما آلت إليه من حال. وسكنت في النهاية في إحدى الأماكن الخربة على الطريق الذي يسلكه يوسف عليه السلام. وجلست تفكر في حالها وما مر بها من أحداث، ففهمت حقيقة الأمر وكلمت الصنم الذي كانت تعبده في السابق فقالت:

«– عار عليك أنت ومن عبدك! لم ترحم عجزي وعميي وفقري! فها أنا اليوم أنكرك من الآن فصاعداً وأؤمن برب يوسف.»

وهكذا، آمنت زليخةُ بربها واتجهت للذكر صباحَ مساء.

وفي أحد الأيام، كان يوسف عليه السلام يركب حصانه ويسير مع حاشيته بالقرب من مسكن زليخة. فخرجت زليخة مسرعة من بيتها ووقفت في منتصف طريقه ونادت بأعلى صوتها:

«أسبح بقدرة من جعل السلاطين عبيداً؛ وجعل من العبيد بعبادتهم الحق سلاطين!...»[١١]

١١. أنظر: ظاهرة الملوك لكاتبه سيد علي الحمداني، حضره/ نجدت يلماز، إسطنبول، ٢٠٠٣، صفحة ١١٨ – ١١٩.

ويصل صوتها بإذن اللّٰه تعالى إلى مسمع يوسف عليه السلام. ويبعث يوسف عليه السلام من يسأل عن أمر هذه المرأة التي لم يعرفها. فترفض زليخة الحديث إلى أحد إلا ليوسف عليه السلام. فتطلب منه أن يدعو اللّٰه لها فيرد عليها جمالها ويمدها بنظره وأن يقبل بالزواج بها.

فيستجيب يوسف عليه السلام لطلبيها الأوليان فيدعو اللّٰه تعالى لها فيرد عليها ما كان لها من جمال وعيون. أما عند الطلب الثالث، فأحنى يوسف عليه السلام رأسه وانتظر. فأتاه جبريل في تلك اللحظة وقال له: «- يا يوسف، يقرئك ربك السلام ويأمرك بأن لا ترفض طلب هذه المرأة! فتزوّجْ بها؛ فهي زوجتك في الدنيا والآخرة!»

وأمام هذا الأمر الإلهي، يتزوج يوسف عليه السلام من زليخة.

ومن ثم يرفع يوسف عليه السلام يديه إلى السماء ويدعو اللّٰه بقوله:

«يا من أحسن إلي بكل هذه النعم يا أرحم الأرحمين يا اللّٰه! أحمدك حمداً لا نهاية له!

يا إلهي! أرجو أن تكمل نعمك علي فتريني وجه أبي يعقوب، وأن تريني له فتنير عينيه برؤيتي وأن تفتح لي أبواب اللقاء بإخوتي يا ربي! أنت قابل الدعاء وأنت القادر على كل شيء!»

الأخوة الآتون لطلب الرزق وخطة يوسف عليه السلام

في هذه الأثناء، يُبْقي يعقوب عليه السلام ابنه بنيامين الأخ ليوسف من أبيه وأمه، ويذهب بقية أبنائه إلى مصر طلباً للزرق بسبب ما كان من

القحط. تتحدث الآيات الكريمة عن هذه الحادثة بقوله تعالى:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ. فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ (يوسف، ٥٨ – ٦٠)

وسبب طلب يوسف إحضار أخيه الذي لم يأت معهم هو التالي:

بسبب ما كان من أيام قحط، كان الرزق يعطى على قدر الحاجة فقط. ولهذا كان يتوجب على الشخص أن يتواجد بنفسه لأخذ رزقه. ولهذا، عندما طلب إخوة يوسف الرزق لأبيهم وأخِيهم الذي لم يأت معهم، قبل يوسف عليه السلام عذر الأب العجوز وأرسل له الرزق استثناءً لمرة واحدة. ولكنه وضع عليهم شرط إحضار أخيهم الآخر في المرة القادمة. وكان يرجو عبر هذه الوسيلة أن يرى أخاه وأن يأخذ منه أخبار والده. فقال له إخوته:

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ. وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، ٦١ – ٦٤)

عندما يقول يعقوب عليه السلام:

«فاللَّه خير حافظاً وهو أرحم الراحمين» يقول اللَّه تعالى:

«وعزتي وجلالي، لأحضرن إليك ولديك معاً ما دمت تتوكل علي بهذا الشكل»

وما نفهمه من ذلك، أنه لا يجب على الإنسان التوكل على البشر الفانين وإنما أن يكون توكله الدائم لله رب العالمين. فكل شيء عدا اللَّه سبحانه هو بحاجة إلى الحفاظ على نفسه أولاً. أما اللَّه تعالى فليس بحاجة إلى شيء. ولكن، لا يجب التوكل على اللَّه بدون التمسك بالأسباب.



ويحاول أبناء يعقوب بكل الوسائل إقناع أبيهم بأخذ البضاعة إلى مصر آخذين أخاهم بنيامين معهم، ويسعون لإقناعه بذلك:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (يوسف، ٦٥)

وفي النهاية، قبل يعقوب عليه السلام بإرسال بنيامين.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ. وَقَالَ



يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف، ٦٦ – ٦٧)

لقد كان طلب يعقوب عليه السلام لأولاده أن يدخلوا المدينة من أبواب مختلفة هو لأنهم كانوا جيدي المظهر والملبس، ولما نالوا من اهتمام الملك وإكرامه في المرة السابقة. فهو لم يشأ أن يصيبهم ضرر من أصحاب النوايا السيئة الذين قد يحيكوا لهم المكائد. كما أن أنظار الحيرة كانت قد تجمعت حولهم. ولهذا فإن من الممكن أن يتعرضوا لأضرار أخرى لو دخلوا جميعاً من مكان واحد.

علماً أن رسول اللَّه ﷺ يقول: **"الْعَيْنُ حَقٌّ"** (البخاري، الطب، ٣٦/ ٥٤٠)

"الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَتُدْخِلُ الجَمَلَ الْقِدْرَ" (السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، رقم ٧٥٩٣)

ولهذا السبب، يجب على الإنسان أن يحرص على أن لا يصيب أحداً بالعين غفلة. ومن لا يلتجيء إلى اللَّه عز وجل دائماً لا يمكنه التخلص من العين. أما من يلتجيء إلى الحق تعالى فهو في حفظ من اللَّه.

كان رسول اللَّه ﷺ يعوذ الحسن والحسين فيقول:

"إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ" (البخاري، الأنبياء، ١٠/ ٣٣٧١)



وإن رأى أحدهم شيئاً فأعجبه وجب عليه منعاً للعين أن يقول:

مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ اِلاَّ بِاللَّهِ

ولكي يكون هذا الأمر خيراً وبركة عليه فليقل:

بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ وَعَلَيْكَ

❁

وبعد أن استمع أبناء يعقوب عليه السلام لنصائح أبيهم، خرجوا مرة اخرى لطلب الرزق.

تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضيهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٦٨)

أنا أخوك يوسف!

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف، ٦٩)

يروى أن يوسف عليه السلام أكرم إخوته بمائدة من الطعام. وأجسلهم إلى المائدة اثنين اثنين. فبقي بنيامين وحده فبكى وقال:

"– لو كان أخي يوسف حياً لكان يجلس الآن معي."



فأخذه يوسف عليه السلام إلى جانبه على مائدته. وبعد مائدة الطعام، استضاف يوسف عليه السلام إخوته في غرف مزدوجة أيضاً. فبقي بنيامين مرة أخرى وحده. فقال عندها يوسف عليه السلام:

"- لا شريك له! فليبق إذن معي!"

وهكذا بات بنيامين ليلته عنده.

فقال له يوسف عليه السلام:

"أتقبلني أخاً لك عوضاً عن أخاك الذي مات؟"

فقال له بنيامين مجيباً:

"- من يستطيع أن يجد أخاً مثلك؟ ولكنك لست ابن أبي يعقوب وأمي رحيل."

فعندها بكى يوسف عليه السلام ونهض إلى بنيامين وعانقه. ثم أخبره بالحقيقة فقال:

«- إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون»

ويقول يوسف عليه السلام لبنيامين «فلا تبتئس بما كانوا يعملون» يشير اللَّه تعالى إلى أن حيل الحاسدين لا تصل إلى التوفيق. ولهذا، فإن إخوة يوسف على الرغم مما كان منهم من الحسد والأفعال والأذية، إلا أن آمالهم لم تصل إلى نتيجتها. فجمع اللَّه تعالى الأخوين أولاً، ومن ثم جمع الأب بولديه.

احتجاز يوسف عليه السلام لبنيامين

بعد أن عرف يوسف عليه السلام أخاه بنيامين بنفسه قال له:

«- يا أخي! سأحتجزك عندي. تعلم أن ألم أبي وكدره كبيرين جداً منذ فراقي. فإن احتجزتك ها هنا، فإن حزنه سيزداد. ولكنه يتوجب علينا فعل ذلك لنتمكن من الوصول إليه. وسأعمل على تحضير خطة لهذا الهدف.»

وبعد أن أخبر بنيامين بهذا الأمر:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ. قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ. قَالُوا فَمَا جَزَآؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ. قَالُوا جَزَآؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (يوسف، ٧٠ - ٧٥)

بحسب شريعة يعقوب عليه السلام، فإن السارق يقبض عليه ويخدم صاحب المال لقاء ما سرقه من البضاعة عبداً لسنة كاملة. أمّا في قانون مصرفكان السارق يضرب ويدفع ضعفي ما سرقه من البضاعة أو المال. ولما كان يوسف يريد أن يحتجز أخاه بنيامين عنده، فإنه

أراد أن يكون العقاب بناءً لشريعة يعقوب عليه السلام، ولهذا سألهم عن جزاء من يكون سارقاً منهم. تقول الآية الكريمة:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، ٧٦)

تمكن يوسف عليه السلام بأمر اللَّه تعالى وفراسته أن يضع خطة جيدة ليتمكن من احتجاز أخيه بنيامين عنده. وبحسب ما يروى فإنه قد أخبر أخاه بهذه الخطة وطلب منه تأييده.

ولم يكن هدف يوسف عليه السلام من ذلك الأمر أن يعاقب إخوته انتقاماً. لأنه كان قد عفا عنهم. ولكن فيما كان منهم من عمل هو أيضاً يحتوي على حق لله تعالى لا يمكن ليوسف التحكم به. ولهذا فإنه كان يريد أن يغفر اللَّه سبحانه وتعالى لهم أيضاً. ولهذا، وقبل أن يعرفهم بنفسه، أراد أن ينبههم بتحذيره لهم "أنتم سارقون" لتكون هذه التهمة سبباً رئيسياً في إشعال نار الندامة لديهم. فأكبر جرم تحقق على أيديهم هو السرقة؛ سرقة يوسف من أبيه بما كان منهم من حيلة. وعملاً منه على توجيههم نحو باب التوبه من كل ما ارتكبوه من جرم فإنه احتجز أخاه بهذه الطريقة. وهي فعلاً الحقيقة التي يمكن مشاهدتها عبر الآيات التالية التي تخبر كيف لانت قلوب إخوته بعد ذلك وكيف ذهبوا وعادوا بقلوب صافية نقية.

ولهذا، فإن هذه الحادثة التي كانت تحمل في أرجائها عدداً من الحكم والعبر، فإنها أيضاً كانت عقاباً ربانياً وتربية إلهية.

ومن جهة أخرى، لم يستخدم يوسف عليه السلام، الذي لم تسنح له الفرصة بعد بأن يعرف بنفسه، صلاحيات مقامه ومنصبه ليحتجز أخاه استبداداً وقوة، فلم يستخدم صلاحيات مقامه ووسائله، ولم يستثمرها. بل ابتعد عن كل فعل يعبر عن الأفعال الشائبة من الظلم والقوة، وتناول القضية من زاويتها القانونية العدلية وصولاً إلى الحل الموفق الذي نجح فيه.

وتمكن يوسف عليه السلام بنفس الوقت من تطبيق شريعة أبيه في مصر أيضاً وفتح الباب أمام تطبيقها دائماً.

إن اللّه تعالى إذا أراد أمراً يسر له أسبابه.فعلم يوسف عليه السلام من جهة هذا الحل، كما منع عن إخوته الفطنة إلى هذه الحيلة فاستخدمهم للحكم على أخيهم، فكانوا هم من حكم عليه وأجاب. وهكذا، ودون أن يدوس قوانين الدولة، ألزمهم بحكمهم بإرادتهم الحرة، كما فتح الباب في مصر لتطبيق هذا الحكم في مصر استناداً إلى نظرية العمل بالمثل.

ومن خلال هذه الخطة، تمكن يوسف عليه السلام من وضع إخوته في وضع يائس، أوقعهم فيه ضمن حدود الحالة التي أخبر عنها والدهم بقوله «إلا أن يحاط بكم»، فخلصهم بذلك من اليمين الذي حلفوا به لأبيهم ومسؤوليته. (الملالي، ٤، ٢٨٩٤ - ٢٨٩٨)

وعندما أخرج صواعه من حمل أخيه بنيامين:

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

(يوسف، ٧٧)

فعوضاً عن محاولتهم للدفاع عن أنفسهم وأخيهم بنيامين بقولهم "كلا، إن في هذا الأمر لشيء خطأ"، حملتهم ضغينتهم لأخيهم يوسف وأخيه إلى إفلات خطأ آخر من أفواههم باتهامه بما ليس فيه.

وبالنسبة لتهمة السرقة التي اتهم فيها الأخوة يوسف عليه السلام فإن هناك عدة آراء منها:

أ- كان جده أبو أمه كافراً فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك، فهذا هو السرقة.

ب- أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء، وقيل سرق عناقاً من أبيه ودفعه إلى المسكين وقيل دجاجة.

ج- أن عمته كانت تحبه حباً شديدا فأرادت أن تمسكه عند نفسها، وكان قد بقي عندها منطقة لإسحاق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها.

د- أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة..
(الرازي، مفاتح الغيب، جـ١٨، ٤٩٠)

كما يمكن لهذا القول أن يكون بمعنى الإشارة، فكان منهم أمام قوله «أنكم سارقون!» أن يردوا بقول كهذا نفياً وقلقاً منهم أمام هذا الاتهام.

يقول إخوة يوسف:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّـآ إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ (يوسف، ٧٨ – ٧٩)

إن الظلم أنواع متعددة: إن الحكم بعكس ما أمر اللّٰه تعالى به هو بالإضافة لكونه من الظلم، فإن طلب الظلم والرضى به هو أيضاً ظلم بحد ذاته.

كما أن تخطي الحدود وتجاوزها، إضافة لكونه ظلم بحق الآخرين، فإن ارتكاب المعاصي التي تجلب العقاب يوم القيامة هو أيضاً ظلم يرتكبه الإنسان بحق نفسه.

ويجب على من ارتكب ظلماً أو بلية أن يستغفر اللّٰه ويتوب إليه راجياً منه النجاة مما قام به وارتكبه.



يقول الصلح بن عبد اللَّه التستري:

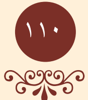
"إن اللَّه إذا أحب عبداً أظهر له الخطايا كبيرة في عينه وفتح له باب التوبة. هذا الباب، هو مدخل بإذن اللَّه تعالى إلى جنات الأنس. وإذا غضب على عبد، جعل الذنوب في عينيه صغيرة وابتلاه بأنواع البلاء المختلفة. ذلك أن من صغرت الذنوب في عينيه هو عبد لا يقبل النصيحة والموعظة، فيكون بذلك من الخاسرين."

❁

بدأ إخوة يوسف يفكرون بما يمكنهم أن يقوموا به أمام ما وضعوا فيه من أمر وما الذي يمكنهم أن يخبروا أباهم به. تصف الآيات القرآنية الكريمة حالهم فيقول جلَّ وَعَلا:

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (يوسف، ٨٠ – ٨٢)

فذهبوا إلى أبيهم ونقلوا إلى أبيهم ما قاله إخوانهم بالضبط.



الأسى الذي يفتح باب المكافأة

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف، ٨٣)

لم يشأ يعقوب عليه السلام أن يصدق أقوال أبنائه هذه المرة على الرغم من صدقهم، لما قام به إخوة يوسف في السابق من كذب عليه. فقال لهم: " كلا، بل لقد خدعتكم أنفسكم وجرتكم إلى أمر عظيم، وإلا فما علم العزيز بشريعتنا التي تمسك السارق أسيراً عنده؟"

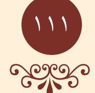
﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف، ٨٤)

وكان يعقوب عليه السلام مذ أن فقد ابنه يوسف لا يتمكن من النوم. وكان يعقوب عليه السلام أشرف الناس عند اللَّه تعالى في تلك الحقبة من الزمن على وجه الأرض.

وبنتيجة البكاء المستمر الذي أصابه، ابيضت عينا يعقوب عليه السلام. ويقال بأن حكمة ذلك هي أن لا يتمكن من رؤية بقية أبنائه فيزداد عليه حزنه وألمه وكدره.

يقول رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم:

"إِنَّ اللَّهَ عز وجل يَقُولُ:: **إِذَا أَخَذْتُ كَرِيمَتَيْ عَبْدِي فِي الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ جَزَاءٌ عِنْدِي إِلَّا الْجَنَّةَ**" (الترمذي، الزهد، ٥٨/ ٢٤٠٠)



وبحسب رواية البخاري فيقول:

"إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ" (البخاري، المرضى، ٧/ ٥٦٥٣)

بكى يعقوب عليه السلام أربعين سنة. ويروي بعض الأئمة عن العمى الذي أصيب فيه فيقولون: لقد اعطى اللَّه تعالى يعقوب عليه السلام عمى البصر، لا ليشاهد مظهر يوسف الخارجي، بل ليتمكن من رؤية الجمال المطلق الدائم المتجلي. لأن نور الجمال الإلهي قد تجلى في يوسف عليه السلام، وهو السبب الذي دفع يعقوب عليه السلام لمحبة يوسف بهذه الدرجة. ولوقوعه في خطأ لا إرادي أمام المولى عز وجل الذي هو "الحسن المطلق" أخذ اللَّه تعالى يوسف منه، وأخذ عينيه اللتين تنظران إلى ظاهر يوسف عليه السلام.

وهو ما يشير إلى أن العبد إذا ما نظر إلى الدنيا بظاهر ما فيها ولم يدرك فناء هذه المظاهر، فإنه لن يتمكن من رؤية "الحسن المطلق" أي الجمال الإلهي أو الجمال المطلق.

ولا تيأسوا من رحمة اللَّه

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٨٥ – ٨٦)

ومن ثم قال يعقوب عليه السلام لأبنائه:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، ٨٧)

إن الرسالة التي تشير بها إلينا هذه الآية الكريمة مهمة جداً. فمهما كان حال العبد فإنه لا يجب عليه أن يتجه إلى اليأس، وأن يبقى أمله باللَّه سبحانه وتعالى قائماً. فكما توضح الآية الكريمة، فإن اليأس من رحمة اللَّه تعالى لا يقوم به إلا الكافرون.

ورد في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ:

"الفاجر الراجي لِرحمة اللّه تعالى أقرب منها من العابد المقنط"

(السيوطل، الجامع الصعير، جـ٢، ص ٦٨)

لأن قطع الأمل باللَّه تعالى، هو نزع لصفة "الرحمن والرحيم" منه جلَّ وَعَلا، وبالتالي جهل بالرحمة الإلهية. علماً أنه حتى فرعون مصر، كان ممن ذكر اللَّه تعالى في رمقه الأخير.

يقول اللَّه تعالى في آية أخرى:

﴿...لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾ (الزمر، ٥٣)

وبناءً على هذا الأمل الذي تحدثنا عنه، يرسل يعقوب عليه السلام برسالة مع أبنائه إلى عزيز مصر، أي إلى يوسف عليه السلام. وكان يعقوب عليه السلام يجهل حينها أن ابنه يوسف هو عزيز مصر نفسه. ويقول له



في هذه الرسالة: «بسم اللّٰه الرحمن الرحيم، من إسرائيل يعقوب ابن إسحاق ابن خليل اللّٰه إبراهيم، إلى عزيز مصر: نحن سلالة تعرضت للكثير من البلوى. فابتلي جدنا إبراهيم بنار نمرود فصبر. فأوصله اللّٰه إلى بر السلامة. وابتلي أبي بمحن أخرى أيضاً فصبر. فكافأه اللّٰه تعالى أيضاً. أما أنا، فقد ابتلاني اللّٰه بفقد ابني يوسف. فأصبحت عيناي لشدة البكاء والحسرة عليه عمياء لا ترى، وانحنى ظهري. فكنت أسلي نفسي بولدي الذي أسرته عندك. لقد قلت عنه بأنه سرق. ومن كان من نسلنا لا يسرق. فنحن لا نلد من السارقين. فإما أن تعيده إلي، أو أن أدعو عليك دعاء يصيب به أولادك حتى البطن السابع بتأثيره!»

وعندما قرأ يوسف عليه السلام هذه الرسالة بكى وكتب له جواباً:

«بسم اللّٰه الرحمن الرحيم،

من عزيز مصر إلى إسرائيل يعقوب؛

يا أيها العجوز، لقد أتتني رسالتك. قرأتها وفهمت فحواها. تتحدث عن الآباء الصالحين وصبر كل منهم على بلائه. فكما صبر كل منهم على ابتلائه فاصبر أنت أيضاً! والسلام!»

وعندما بلغ يعقوب عليه السلام جوابه قال:

«– إقسم باللّٰه العظيم، إن من يكتب مثل هذه الرسالة ليس بملك، إن هي إلا رسالة نبي. ومن كتب هذا لا بد وأنه يوسف.»

فأرسل أولاده مرة أخرى إلى مصر ليستعلموا عن الأمر مرة أخرى. فخرج أبناؤه مباشرة إلى هناك:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَيةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ. قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (يوسف، ٨٨ – ٨٩)

بحسب ما تروي التفاسير فإن إخوة يوسف عليه السلام الذين ألقوه في البئر، كانوا يؤذون أخاهم الأصغر بنيامين أيضاً ويحقرونه.

عفو رائع

﴿قَالُوا ءَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ. قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، ٩٠ – ٩٢)

إن هذه الآيات الكريمة لهي تشير في الوقت نفسه إلى أسلوب من أجمل أساليب التربية، وهو الإجابة على الإساءة بالإحسان. علماً أن علو الشأن في مثل هذه الحالات يكون سبباً في انتهاء عداوة الأعداء، فينقلب المرء إن لم يكن صديقاً أو كان عدواً نحو الصداقة، ومن كان صديقاً فإن صداقته ومحبته تزداد.

تخبرنا الآية الكريمة بشكل جميل ذلك فتقول:

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت، ٣٤)

ونذكر لرسول اللَّه ﷺ مثالاً للعبرة في هذا الشأن:

كان أبو سفيان صديقاً لرسول اللَّه ﷺ قبل نزول الوحي. ولكنه عاداه بعد النبوة وهجاه.وكان شاعر الرسول حسن بن ثابت رضي الله عنه يجيب على هذا الهجاء، ثم أسلم فحسن إسلامه.

وكان إسلامه يوم الفتح قبل دخول رسول الله ﷺ مكة، لقيه هو وابنه جعفر بن أبي سفيان بالأبواء فأسلما. وقيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أبي أمية بين السقيا والعرج. فأعرض رسول الله ﷺ عنهما، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي سفيان:

إيت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف عليه السلام:«تاللَّه لقد آثرك اللَّه علينا، وإن كنا لخاطئين»

فيجيبه إمام الرحمة والشفقة رسول اللَّه ﷺ بالآية الكريمة من سورة يوسف:(**لاتثريب عليكم اليوم، يغفر اللَّه لكم، وهو أرحم الراحمين**) عافياً بذلك عما كان منه من أخطاء وأفعال سابقة. وكان أبو سفيان بعد أن اسلم لا يوفع رأسه لرؤية النبي ﷺ استحياءً منه لِفَخْرِ الكائنات سيدنا محمد ﷺ. (واقدي، المعازي، ٢، ٨١٠ –٨١١؛ ابن هشام، السيرة، ٤، ٢٠ – ٢٤؛ ابن عبد البر، الإستيعاب، ٤، ١٦٧٤)

وعندما فتح رسول اللَّه ﷺ مكة المكرمة تجمع أهل قريش في حرم المسجد الحرام. وجلسوا في جوار الكعبة. وكانوا ينتظرون ماذا يفعل بهم رسول اللَّه ﷺ.

فيأتيهم رسول اللَّه ﷺ ويقول لهم سائلاً:

«- يا أهل قريش! يا أهل مكة! ماترون أني فاعل بكم؟»

فيجيب أهل قريش: «- خيراً (أي نظن أنك ستقوم بخير) أخ كريم وابن أخ كريم. (أي أنك أخ، صاحب كرم وصاحب خير! فأنت اليوم صاحب قوة وقدرة، فعاملنا بالخير والحسنى!)»

فيقول لهم رسول اللَّه ﷺ بناءً على جوابهم هذا:

"**أقول كما قال أخي يوسف** -لإخوته-:

"**(لاتثريب عليكم اليوم، يغفر اللَّه لكم، وهو أرحم الراحمين) اذهبوا فأنتم الطلقاء**"

لقد مكن اللَّه سبحانه وتعالى رسوله ﷺ من أهل قريش، وأرضخهم له، وعلى الرغم من أن فرصة أخذ الإنتقام لما بدر منهم سنوات طويلة من عذاب وأذية للمؤمنين، إلا أن رسول اللَّه ﷺ عفا عنهم بهذا الشكل وتركهم أحراراً. ولهذا أطلق على أهل مكة اسم: «الطلقاء: أي الأحرار». (ابن هشام، السيرة، ٤، ٣٢؛ الواقدي، المجازي، ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد، الطبقات، ٢، ١٤٢ - ١٤٣)

وهذا الحال أيضاً هو بنفس الوقت تجلٍّ لكمال اللَّه تعالى بصفته ستار العيوب، أي الذي يستر العيب ويعفو عن الخطأ.



ويكتب الشاعر ضياء باشا كلمات من الشعر يصف فيها حال يوسف عليه السلام مع إخوته فيقول:

يجبر مولانا صاحب القدرة الظالمين على القول:

تاللّه لقد آثرك اللّه علينا[١٢]

أَلْقُوا بِقَميصي على وجه أبي

كان يوسف عليه السلام يرسل الضيافة صباح مساء إلى إخوته. وكان إخوته يشعرون بالخجل الشديد من عزة كرمه معهم عندما يتذكرون ما كان منهم من أفعال سيئة بحقه. فيرسلون رجلاً إلى يوسف يقولون له:

«أنت تكرمنا صباح مساء! ولكننا نخجل منك لما فعلناه بك!»

فيجيبهم يوسف عليه السلام قائلاً:

«كان أهل مصر ينظرون إلي دائماً بنفس المشهد الذي رأوني فيه أول مرة. وكانوا يقولون «ننزه اللّه تعالى الذي رفع عبداً بيع بعشرين درهماً إلى هذا المقام». أما اليوم، فلقد اكتسبت شرفاً من خلالكم. لأنهم عرفوا بأني أخ لكم وحفيد نبي عظيم مثل إبراهيم عليه السلام»

ولم ينطق يوسف عليه السلام بهذه الكلمات فخراً وتكبراً، وإنما سعياً منه للتخفيف عن إخوته، وتأمين الراحة لهم، وتخفيف حرجهم تجاهه.وهو ما يظهر مرة أخرى صفاته المتميزة المتمثلة

١٢. «تاللّه لقد آثرك اللّه علينا» (يوسف، ٩١)



في عفوه وكرمه. وبينما كان يوسف عليه السلام يظهر هذا النوع من العفو والمسامحة لإخوته، قال لهم بعد أن أعطاهم قميصه شفاءً لأبيه من العمى الذي أصابه:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (يوسف، ٩٣)

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ. قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ (يوسف، ٩٤ – ٩٥)

رؤية يعقوب عليه السلام (شفاء عينيه)

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَيهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٩٦)

وكان يهودا هو من أحضر هذا الخبر المفرح لأبيه. فقال:

”– لقد كنت أنا من أحضر إليه القميص المضرج بالدم فكنت السبب في حزنه وكدره. والآن، سأحضر له أنا أيضاً هذا القميص لأكون سبباً في سعادته!“ فخرج مسرعاً من مصر إلى أرض كنعان بحماس شديد ورأس مرفوع وسرعة كالسهم كما روي عن ذلك.

ويقال بأن هذا القميص هو نفسه ذلك القميص الذي أحضره جبريل عليه السلام من الجنة لإبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار.

يقول مولانا جلال الدين الرومي -قدس اللّه سره- تعليقاً على الموضوع الذي تحدثنا عنه أعلاه بقوله: "إن ما رآه يعقوب عليه السلام في وجه يوسف من تميز كان أمراً خاصاً به. فلم يحظ أحد آخر من إخوة يوسف بمثل هذا النور. لكن عالم القلب عند إخوة يوسف كان بعيداً عن رؤية وفهم (الوجه الحقيقي) ليوسف عليه السلام. عندما رأى يعقوب عليه السلام تلك الخصوصية فيه تعلق به قلبه.لقد كان ليوسف جاذبية خاصة عند يعقوب. ولهذا، عندما وصل إليه رائحة قميصه تمكن من معرفته حتى من مسافة بعيدة. أما أخاه الذي حمل هذا القميص فكان محروماً من الإحساس بهذه الرائحة. لأن قميص يوسف كان أمانة في يد أخيه. فكان أخو يوسف مكلفاً بحمل هذا القميص وتسليمه ليعقوب عليه السلام. أي أن هذا القميص كان في يد أخيه كالجارية المتميزة بين يدي بائع العبيد. وليست لشخص تاجر العبيد بنفسه. فكانت تعود لشخص آخر غير تاجر العبيد. كم من عالم أتى، لم يكن له نصيب من العلم الذي اقتنى. فكان حافظاً للعلم، ولكنه لم يكن حبيباً لله عز وجل."

ويعتبر تأثير قميص يوسف عليه السلام على عيني يعقوب عليه السلام نموذجاً ومثالاً للتبرك والإستعانة بالأشياء...

تقول الآية الكريمة:

﴿...قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف، ٩٧ -٩٨)



وعندما قال يعقوب عليه السلام "سوف أستغفر لكم ربي" أي بعد حين، هو إشارة لضرورة استحقاق العفو من الطرف المظلوم أولاً قبل أن يستغفر لهم. أي أنه أجل استغفاره لهم إلى أن يلتقي بيوسف عليه السلام ويتأكد من غفرانه لهم. ويوضح البعض بأن تصرف يعقوب عليه السلام هذا، إن هو إلا تأجيل للدعاء والإستغفار إلى وقت أكثر قبولاً مما هم عليه الآن. ولهذا، وبحسب رواية محارب بن دسار، يقول:

عندما أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المسجد وقت السحر في إحدى الأيام، وجد أحدهم يناجي ربه ويقول:

«اللهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت، وهذا سحر، فاغفر لي».

قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: «-إن يعقوب عليه السلام أخر بنيه إلى السحر بقوله: (سوف أستغفر لكم ربي)

كان يقصد تأجيل ذلك الإستغفار إلى وقت السحر. لأن اللَّه تعالى يمتدح هذا الوقت فيقول «**والمستغفرين بالأسحار**» (آل عمران، ١٧)**.**» (انظر: الطبري، التفسير، جـ٨، ص٨٥، جـ١٦، ص٢٦١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

"يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ" (مسلم، المستغفرين، ١٦٨/ ٧٥٨)



وفي حديث آخر يقول ﷺ:

"...وَقَدْ قَالَ أَخِي يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} يَقُولُ: حَتَّى تَأْتِيَ لَيْلَةُ الْجُمْعَةِ..." (الترمذي، الدعوات، ١١٤/ ٣٥٧٠)

الوصول وتحقق الرؤيا

وقف يوسف عليه السلام والحاكم وجميع الخلق صفاً لاستقبال يعقوب عليه السلام وعائلته. وعندما وصل يعقوب أمام يوسف عليه السلام نزل الجميع عن أحصنتهم وتعانق النبيان بشوق ومحبة. يقول الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف، ٩٩)

إن المكافآت الكبرى تأتي دائماً بعد كثير من الصبر والمصائب والابتلاءات الكبيرة. ويرفع يعقوب عليه السلام يديه إلى السماء بعد هذا اللقاء مباشرة ليشكر اللّٰه تعالى ويقول: «إلهي! اغفر لي بكائي على يوسف، وقلة صبري على فراقه، وما فعل أبنائي بإخوتهم!»

وكان يوسف عليه السلام أيضاً في حالة كبيرة من الشكر والحمد:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف، ١٠٠)

لقد أدرك يوسف ﷺ بعد تحقق نعم اللّٰه ﷻ عليه كاملة بأن هذه الحياة الدنيا ليست مكان استقرار، وأن كل ما فيها من أشياء إن هي إلا أشياء زائلة، وبأنه بعد أن وصل إلى القمة فإن الزوال قادم. فذكر نعم اللّٰه تعالى التي تلطف بها عليه شاكراً له ومناجياً فقال ﷺ:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف، ١٠١)

وإذا ما لفت المرء انتباهه إلى هذه الآيات الكريمة، فإننا نجد أن يوسف ﷺ هو نموذج لسائر المؤمنين على حسن المعاملة. فنضجه ومسامحته ومجاملته لإخوته الذين ألقوه في البئر تخلصاً منه، على الرغم من قوته وقدرته على الانتقام منهم، إن هو إلا إشارة للمؤمنين إلى قمة الكمال الأخلاقي. إنه وعلى الرغم من وصوله من العبودية إلى الحكم، لم يخرج لنفسه أي حصة من هذا الأمر وربطه جميعه بلطف اللّٰه عليه.

كما حاول تأويل أكبر خطأ ارتكبه إخوته في حقه وعزا ذلك إلى الشيطان فلم يرم بهذا الأمر في وجوههم. وأخيراً، إن لجوءه إلى اللّٰه تعالى هذا، إن هو إلا دليل على مدى تبعيته وتسليمه لله تعالى وقلقه الدائم إلى أن "يلفظ أنفاسه الأخيرة". كما أن دستور المتصوفين الأساسي الذي يعتمد على «مصاحبة الصالحين» هو واضح بشكل كبير في مثال يوسف ﷺ ودعائه.

وبحسب ما يروى، فإن يعقوب عليه السلام يعيش مع ابنه يوسف عليه السلام في مصر أربعة وعشرين سنة إلى أن يتوفاه اللّٰه تعالى هناك. وينقل جثمانه الطاهر عليه السلام إلى الشام بناءً لوصيته ويدفن فيها بجوار والده إسحاق.

كما عاش يوسف عليه السلام ثلاثة وعشرين سنة أخرى بعد وفاة والده. ومن ثم، قام أهل مصر بوضع جثمانه في تابوت من الرخام ودفن في قلب النيل. فأراد أهل مصر أن يبقى يوسف عليه السلام في مدينتهم لما كانوا يكنون له من الحب. ومن ثم، قام موسى عليه السلام باستخراج نعشه من مكانه وقام بدفنه إلى جوار والده يعقوب. عليه السلام!...



يقول الحديث الشريف:

"الْمَوْت تحفة الْمُؤمن" (الديلمي، مسند الفردوس، جـ ٤، ص ٢٣٨/ ٦٧١٥)

إن أول ما يتخلص منه المرء عنه الموت هو نفسه. لأن أكبر عدو للإنسان هو نفسه الأمارة بالسوء.

الآيات الأخيرة من سورة يوسف

يسأل المشركون رسول اللّٰه ﷺ بعض الأسئلة امتحاناً له بناءً لتوجيه اليهود لهم. فينزل اللّٰه عز وجل هذه الآيات الكريمة.

نزل اللّٰه عز وجل هذه القصة وكثيراً غيرها من أخبار الغيب إلى رسول اللّٰه ﷺ لتروى إلى الناس تأكيداً على نبوته ﷺ وصحة الكتاب

الذي أنزل إليه. إلا أن الكافرين، وعلى الرغم من كل هذه الدلائل، لم يؤمنوا لرسول اللّٰه ودعوته التي نشرها دون طلب لأي أجر دنيوي. ولهذا، يقول اللّٰه ﷻ تخفيفاً عن الرسول ﷺ ومواسياً:

﴿ذلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ. وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف، ١٠٢ – ١٠٤)

ويؤكد اللّٰه تعالى عبر هذه الآيات على أن كفر هؤلاء ليس مخصوصاً بالنبي ﷺ أو عن الآيات المنزلة إليه فحسب:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف، ١٠٥ – ١٠٦)

أي أنهم وإن لم ينكروا وجود اللّٰه بشكل كامل، ولكنهم لا يؤمنون به إلا إشراكاً واضحاً أو خفياً.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. قُلْ هـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف، ١٠٧ – ١٠٨)

تبين هذه الآية أيضاً أن الدعوة لا يمكن لها أن تتحقق إلا ضمن شروط معينة تجيزها وتؤمن منها الفائدة. أي أن الدعوة لا يمكن لها أن تكون بشكل أعمى وبهدف مقاصد باطلة؛ وإنما يجب عليها أن

تكون على بصيرة، يعرف فيها المرء ما يقول، بكل إخلاص وإيمان، وأدب وحكمة، يكون هدفها نيل الرضى والقبول من اللَّه ﷻ. وإلا فلا يكون الدين والتدين إلا مجرد تسمية أو ادعاء فارغ لاقيمة له.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف، ١٠٩)

أما بالنسبة لهذه الآية الكريمة، فكان تنزيلها جواباً من اللَّه تعالى على الكفار لقولهم: "لو أنزل اللَّه إلينا ملائكة أنبياء!".

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف، ١١٠)

وينهي اللَّه تعالى هذه السورة بتأكيده على أهمية القرآن الكريم وقصصه للبشرية فيقول جلَّ وَعَلا:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف، ١١١)

مما لا شك فيه هو أن اللَّه تعالى بعظمته، قد قدم إلينا كل شيء على أفضل وأكمل وجه!...



سيدنا يعقوب عليه السلام

حرّان
قبرص
بيروت
دمشق
البحر الأبيض
بادية الشام
دجلة
القدس
عمّان
بابل
الخليل
إيران
إيلات
سيناء
مدين
الخليج العربي
مصر
البحر الأحمر

سيدنا يوسف عليه السلام

البحر الأبيض
القدس
تونس
الخليل
البحر الميت
بادية الشام
معان
النيل
إيلات
مصر
سيناء
البحر الأحمر

الارتباط والاستعانة والاستغاثة

إن السالك في لغة التصوف هو المرء الذي يعمل على اتمام سير سلوكه باتباعه لتربية القلب وإرشاد المرشد الكامل. وطالب هذه التربية القلبية يحافظ على التوجه الذي أعطاه مرشده أي شيخه دون أي خلل، ويعمل بذلك على حماية قلبه من الكسوف. ويعمل على متابعة حالة التسليم هذه بكل نجاح.

أما المرشد فهو الإنسان الذي يدل على تربية القلوب.

❁

والرابطة لغة هي الصلة والعلاقة والاتصال. وبنظرة واقعية، ما من مخلوق في هذا الكون بلا رابطة معينة. والرابطة تتكون من خلال الإستعانة المادية والمعنوية ومن خلال الإستغاثة (أي طلب العون).

وبتعريف آخر، فإن الرابطة تأتي من المحبة. وهي بالتالي المحافظة دائماً للياقة والمحبة القلبية.

والرابطة هي بأنواع ثلاثة:

١ . رابطة طبيعية:

وهي المحبة التي يظهرها المرء لأقاربه. كمحبة الأم لأولادها.



٢. الرابطة المتدنية (السفلية):

وهي الارتباط بالأمور الممنوعة الشيطانية والنفسية والميل إليها. كالمقامر الذي ينشغل بقماره بشكل دائم بشكل ينسى فيه عائلته وأولاده.

٣. الرابطة العلوية (رابطة التصوف):

هي الإرتباط بالوسائل والوسائط التي توجه الإنسان إلى اللّٰه تعالى بمشاعر علوية ومفاهيم مقدسة. وتكون هذه الرابطة هبر التواجد جسدياً أو روحياً مع الأشخاص الواصلين إلى مراتب المشاهدة والتجلية[١٣] للإستفادة من روحانيتهم عبر تنمية مشاعر المحبة إليهم.

يقول اللّٰه تعالى في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩)

والملفت في هذه الآية الكريمة هو أن اللّٰه تعالى لم يقل فيها «كونوا صادقين!» وإنما أمرنا بأن «كونوا مع الصادقين!» محافظة على التقوى. وهو ما يشير إلى ضرورة أن يعمل الإنسان على تأدية عبوديته لله تعالى في جماعة من الناس الصادقين.

١٣. التجلية: معنى الكلمة هو "التلميع" وهو المصطلح الصوفي الذي يعني تلميع القلب من الأدران السلبية، أي تنقيته من الأفكار والمطالب المادية التي تبعده عن اللّٰه تعالى. وهو ما يؤدي إلى زيادة عشق اللّٰه وزيادة ذكره وطلب لطفه، فيصبح القلب فيها صافياً براقاً لامعاً.



إن من يؤسس للرابطة مراعياً لشروط المحبة والمعية (الوحدة)، فإنه يرتفع بمقداره ومزاياه وأخلاقه. فأحوال الأقوياء من الناس قوية سارية. أي أن الشخصية القوية بصفاتها ومزاياها هي شخصية تتميز بتأثيرها. فصاحب الشخصية القوية هو مصدر إلهام للشخصيات الضعيفة. كما أن الأشخاص الذين يتميزون بالرحمة والتضحية والتفرغ، هم أشخاص مؤثرون على الجمع من الناس من حولهم.

وهذا التأثير الذي يمتلكونه هو في السلب كما هو في الإيجاب تماماً، كما هو كان عليه مثال فرعون وهامان وأمثالهما من الناس الذين تميزوا بقوتهم عن الآخرين وما كان من التفاف للناس حولهم امتثالاً لهم من الفراعنة.

والرابطة بمعناها التصوفي تكون وسيلة للسمع المعنوي. فتذهب المشاعر النفسية والأنانية من القلب، وتنتقل إليه أحوال الكمال المأخوذة من المرشد الذي يشكل المثل الأعلى له. وتصبح أملاك الدنيا تتخذ وسيلة في هذه الدنيا خارج القلب لا غاية يعيش لأجلها المرء.

وقلب المرشد هو كالمكبر تماماً. ولهذا، فإن المشاعر المنفية في القلب احترقت لديه بمظاهر التجلي الإلهي. ولذائذ الدنيا الفانية انتهت حياتها لديه. وتنتقل هذه الأحوال من المرشد إلى قلب مريده مع الزمن وتزداد بازدياد المحبة بينهما. ويصبح المرشد والمريد كالمرآة يعكس أحدهما حال الآخر.

مع العلم أن الحديث النبوي الشريف يقول:

"الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ" (البخاري، الأدب، ٩٦/ ٦١٦٨)

"مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ" (أبو داود، اللباس، ٤/ ٤٠٣١)

وبعد أن بين الإمام الغزالي -قدس اللّٰه سره- أن حضور القلب شرط من شروط الصلاة قائلاً:

«يجب تخيل الرسول ﷺ بعيون القلب بين الجلوس الأول والأخير...» مشيراً إلى الرابطة التي يجب أن تكون مع النبي ﷺ.

انعكاس الأحوال

الأحوال التي ذكرنا أعلاه سارية. وأشكال تحقق هذه الأحوال كل منها بشكل مفصل هي على الشكل التالي:

١. **النظر**: (الرؤية المعنوية):

وهي رؤية النبي ﷺ وأولياء اللّٰه.

يقول رسول اللّٰه ﷺ:

"اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللّٰهِ" (الترمذي، التفسير، ١٥/ ٣١٢٧)

إن رؤية المرء صاحب القلب السليم تكون وسيلة لنقل الحال إليه. فالفيض الذي في قلبه ينعكس على قلب من رآى.

ولقد كان الصحابة الكرام ﷺ يشاهدون رسول اللّٰه ﷺ عندما تغشاه الرؤى فكانوا متميزون في هذه الأمة بما جعلهم يرتقون إلى



رتبة الصحابة. ولهذا، فإنه لا يمكن لأحد من المؤمنين أن يصل إلى مرتبة الصحابة لأنه لا يمكن له أن يرى ما كان من رؤى للنبي ﷺ.

٢. القول:

إن من تمكن من تزكية نفسه وقلبه، هو إنسان متميز بقول يعبر عن حالته التي يعيش فيها. فيكون قوله قولاً مؤثراً فيمن يخاطب من الناس لما يحتوي عليه من هذا الكم من الأحاسيس والمشاعر.

٣. الصحبة:

إن مجالس الدروشة تحمل في طياتها أيضاً عملاً جماعياً ظاهراً. فتنتقل بالتالي تجليات القلب الخاصة بين أفراد المجلس ويعكس بعضها الآخر. فتكون الشخصيات القوية مصادر إلهام لضعافها الذين يستفيدون من هذه المجالس بتعبئة الطاقة المعنوية منهم.

٤. التبرك ببقية الطعام:

كان الصحابة رضوان اللّٰه عليهم يتسابقون إلى أخذ البركة من بقايا أطعمة رسول اللّٰه ﷺ في مختلف الأوقات والأماكن.

وتروي أحاديث السيرة النبوية الشريفة أن رسول اللّٰه ﷺ كان يكرم أصحابه من الحليب الذي يشربه، فكانت البركة تحل على ذلك الحليب فلا يقل حجمه، ويستفيد منه الشارب بفيض من بركته في الوقت نفسه.



يحدثنا سهل بن سعد الساعدي ﵁:

أن رسول الله ﷺ أتي بشراب، فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام:

"أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاَءِ؟"

فقال الغلام:

لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً، قال: فتله رسول الله ﷺ في يده. (البخاري، الأشربة، ١٩/ ٢٦٥٠)

وعن أبي أيوب الأنصاري ﵁ أنه كان يصنع للنبي ﷺ طعاماً فإذا جيء به إليه (بعد أن يأكل الرسول ﷺ) سأل عن موضع أصابعه (أصابع سيد العالم ﵇) فيتتبع موضع أصابعه. (مسلم، الأشربة، ١٧٠ - ٢٠٥٣/١٧١)[١٤]

وفي غزوة تبوك، وعندما افتقد المسلمون للماء، قام رسول الله ﷺ بسكب قليل من الماء على يده، وأخرج بمعجزة من الله تعالى الماء كالنبع الفائض من سبابة يده فامتلأت القرب بالماء وشرب جميع من في الجيش. وكان هذا الماء الذي خرج من سبابة رسول الله ﷺ أكثر شفاء وفضلاً من ماء زمزم. لأنه خرج من يده المنورة وجسمه الشريف عليه الصلاة والسلام.

١٤. للتفاصيل حول هذا الموضوع يمكن قراءة كتاب التصوف من الإيمان إلى الإحسان لمؤلفه عثمان نوري طوبّاش، صفحة ٤١١-٤١٤.



٥. نقل الحال عبر الأشياء:

بحسب أحد الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ المستند للعديد من الروايات، واحدى هذه الرويات عن جابر رضي الله عنه يقول:

«كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت» (البخاري، المناقب، ٢٥/ ٣٥٨٥)

كذلك الأمر، بالنسبة لإرسال النبيّ ﷺ بردته الشريفة لأويس القرني طالباً منه الدعاء لأمته حيث قال:

«...**فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ!**» (مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٣ -٢٢٥)

وعندما أرسل يوسف عليه السلام قميصه من مصر، بدأ يعقوب عليه السلام يحس برائحة هذا القميص من أرض كنعان، وبرأت عيناه مما أصابها من العمى عندما ألقي على وجهه عليه السلام. كما أن هناك أموراً أخرى قد يستفاد منها معنوياً إضافة إلى التبرك بالأشياء. فمن هذه الأشياء مثلاً قراءة السلسلة الشريفة. في الرابِطة والمراقبة لتكون وسيلة للفيض المعنوي.

علماً أن سفيان بن أمية رضي الله عنه يقول:

«ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة؟» (عجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٨٢/ ١٧٧٢)



وقصة أصحاب الكهف التي أتى ذكرها في القرآن الكريم أيضاً، هي أيضاً قصة تجذب الإنتباه بشكل كبير. إن قطمير على الرغم من أنه كلب، إلا أنه نال حصة له من حالتهم الجميلة التي كانوا عليها لما قام به من حماية الصالحين والصادقين من أهل الكهف. ولهذا، فهو أيضاً سيدخل الجنة مع الصادقين. (إسماعيل حقي بورسوي، روح البيان، جـ ٥، ٢٢٦).

فالكلب الذي لم يفترق عن الصالحين من عباد الله تعالى والذي بقي ليؤمن لهم الحماية أمام الكهف، إن تمكن من الوصول إلى هذه الدرجة الرفيعة، فمن المؤكد إذن أن حال المؤمن الحقيقي الذي يرتبط بكل إخلاص مع أصحاب الله تعالى، ستكون على درجة كبيرة من الرفعة.

كان الصحابة الأكارم ﭫ بمعظمهم يعيشون حياة تتضارب مع فطرة الخلق قبل ظهور الإسلام. ولكنهم، ومع إدراكهم للهداية، انعكست عليهم مشاعر رسول الله ﷺ ليصبحوا أكثر الناس فضلاً في هذه الدنيا. كما أن هذه المشاعر تنتقل بالتسلسل من رسول الله ﷺ إلى مرشدي الكمال والصالحين عبر رابطة السالكين والصحبة. وبالنتيجة، إن شخصية رسول الله ﷺ المثالية، تسري إلى المريد كل بحسب نسبة استعداده.

يقول الله تعالى في سورة المائدة في الآية ٣٥:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ..﴾



بحسب بعض المفسرين، فإن الدخول في تربية الإرشاد الكامل هذه هي من خلال التخلق بأخلاق النبي ﷺ.

يقول الإمام مالك رحمة الله عليه:

"توسلوا برسول الله ﷺ في دعواتكم..."

ويقول الإمام الشافعي رحمة الله عليه:

"إذا ما اعترضني أي موضوع ما، فإني أصلي صلاة الحاجة ركعتين، ومن ثم أذهب إلى قبر الإمام أبي حنيفة، فأزوره. فتتيسر لي حاجتي..."

ويقول الإمام الجزري -قدس الله سره-:

" توسلوا بالنبي والرجال الصالحين طلباً لقبول دعواتكم!"

وإليكم بعض الأمثلة عن التوسل برسول الله ﷺ:

يروي لنا ابن عباس قوله:

كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء وقالوا:

إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم.

قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة:



﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة، ٨٩) (القرطبي، ٢، ٢٧؛ الواحدي، أسباب النزول، ص ٣١)

بعد وفاة النبي ﷺ أصيبت المدينة بقحط شديد. فيشتكي الناس إلى عائشة ﵂ هذه الشدة. فتوصيهم أم المؤمنين عائشة ﵂ بقولها:

«– انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف»

ففعلوا، فأمطرت السماء مطراً حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق: أي عام الوفرة». (دارمي، المقدمة، ١٥، جـ ١، ص٢٢٧/ ٩٣)

وهذا بعض مما يروى من قصص عن التوسل بالرجال الصالحين:

كان عمر بن الخطاب ﵁ إذا قحطوا –أصيبوا بالجفاف– يأخذ العباس بن عبد المطلب ﵁ ويستسقي به طلباً للمطر. (اُنظر: البخاري، الاستسقاء، ٣)

وكان هناك رجل يكثر من الذهاب إلى عثمان بن عفان ﵁ طلباً لحاجة له؛ وكان عثمان ﵁ لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته. يلتقي هذا الرجل بعثمان بن حنيف ويشتكي إليه هذا الأمر. فيقول له عثمان بن حنيف:



«- إذهب إلى مكان الوضوء وتوضأ، ثم اذهب إلى المسجد وصل ركعتين.

ثم قل: «إلهي! بحرمة نبي الرحمة نبينا محمد ﷺ أطلب منك وأتوجه إليك. يا محمد! أتوجه إلى ربك معك، فاستجب لي دعائي!» ومن ثم اطلب ما تشاء. فذهب هذا الرجل وفعل ما قيل له وأتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه. فأمسك به الحارس من يده وأخذ به إلى جوار عثمان رضي الله عنه. فأجلسه عثمان على حصيرة بجواره.

وقال له: «- ما حاجتك؟». فأخبره بها.

فقام عثمان رضي الله عنه بحل مشكلته على الفور وقال له: «- لماذا لم تخبرني إلى الآن بحاجتك. من الآن فصاعداً إن كانت له حاجة فأت إلينا!».

فيذهب الرجل على فوره إلى عثمان بن حنيف ويقول له:

«- كافأك الله خيراً، لم يكن يلبي حاجتي أو يلتفت إلي حتى كلمتك». فيقول له عثمان بن حنيف رضي الله عنه:

والله ما قلت ذلك من نفسي. فإني قد شهدت على حادثة:

يأتي رجل ضرير البصر إلى رسول الله ﷺ ويقول له:

«- يا رسول الله! أدع الله أن يعافي لي بصري! فإني أستصعب بشدة عمى عيني!» فيقول له رسول الله ﷺ:

"-إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"



فيقول له الأعمى: فَادْعُهْ

فأمره رسول الله ﷺ أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء:

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِيَ، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ" (أُنظر: الترمذي، الدعوات، ١١٨/ ٣٥٧٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢، ٢٧٩)

ويضيف الحاكم في روايته بأن الضرير يقف على رجليه وعينه ترى. (الحاكم، المستدرك، ١، ٧٠٧ –٧٠٨)

يحدثنا عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ ﵁ عن الرسول ﷺ أنه قال:

"إِذَا أَضَلَّ أَحَدُكُمْ شَيْئًا، أَوْ أَرَادَ عَوْنًا، وَهُوَ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسٌ فَلْيَقُلْ: يَا عِبَادَ اللهِ، أَغِيثُونِي ; فَإِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا لَا نَرَاهُمْ" (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ص ١٣٢/ ١٧١٠٣؛ الإمام النووي، الأذكار، ٢٠١)

ويروي لنا الإمام النووي ناقل هذا الحديث الشريف قصة حصلت معه لنفسه فيقول:

"إن من قام بنقل هذا الحديث إلي يحدثني أنه عاش حادثة مشابهة فنفذ ما أمر به رسول الله ﷺ، وكانت النتيجة تحقق هذا الأمر كما ذكر الرسول تماماً. فعجبت لما قال.

ومن ثم في أحد الأيام، شردت ناقة أحد الناس الذين كنت معهم. فذكرت له هذا الحديث الشريف. فإذا بنا نرى الناقة توقفت

عن الهرب دون أي سبب وتمكن صاحبها من الإمساك بها بكل سهولة".

ويروي لنا منصور بن عبد الله حال أبي عبد الله بن جلا بهذا الشكل فيقول: يقول ابن جلا:

"ذهبت إلى المدينة المنورة. وكنت في حال من الفقر الشديد. ووصلت إلى قبر الرسول ﷺ الشريف. فسلمت عليه وقلت:

"- يا رسول الله! إني في فقر شديد! وأتيت إليك ضيفاً."

وبعد مدة من الزمن أصابني النعاس فغفوت. فأشاهد رسول الله ﷺ يقدم إلي فطيرة. فأكلت نصفها وأفقت؛ فوجدت النصف الثاني بقربي"[15]



عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

"رأيت رسول الله في منامي. فأظهر العطف والحنان. ثم ذهبت لزيارة إحدى أمهات المؤمنين.

فأَرَتْني مرآة رسول الله ﷺ. فنظرت إلى المرآة فرأيت فيها وجه النبي المنير، ولم أر فيها وجهي..."

١٥. أنظر: كلبازي، التعرف، ترجمة س. أولوداغ، صفحة ٢١٤.
للتفاصيل المتعلقة حول التوسل أنظر كتاب عثمان نوري طوبّاش، التصوف من الإيمان إلى الإحسان، ص ٣٩٩-٤١٠.



ما نقل في هذه الرواية هو فعل الرابطة ونتيجتها. والفناء فيمن حصل على الرابطة هو كذلك.

يقول الحاج عبيد الله أحرار:

"إن كلمة "كونوا" التي ذكرت في القرآن الكريم في الآية الكريمة «يا أيها اللذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»، هي كلمة تفيد الاجتماع الدائم مع الصادقين. فالـ «الكينونة= كونوا» إذا ذكرت بشكلها المطلق تكون شاملة لطرفي الحقيقة والحكم. فالكينونة الحقيقية هي أن تكون في مجلس الصادقين بسلام قلبي؛ والكينونة الحكمية أيضاً هي أن تكون في تخيل لهم في غيابهم»

وبهذا الشكل، فإن الحنان والأدب الذي يتم إظهاره عندما يكون المرء في حضرة المرشد، يتم إظهاره أيضاً في غيابه ويتخلق المرء بأخلاقهم فيكون ذلك الحال «فناءً في الشيخ».

يجب فهم هذا الأمر بشكل جيد، إن الشخص المرتبط، أي أن المرشد الكامل، ليس فرداً ثالثاً بين العبد وربه. لأنه لا رهبانية في الإسلام. فالمرشد ليس إلا شخصية نموذجية متمثلة للمرء لتكون مثالاً يحتذي به المريد.

فكما أننا خلال سفرنا نتخذ من السيارة وسيلة لا غاية، فإن المرشد الكامل أيضاً هو حبيب لله تعالى يعلم قلب المريد ويزين له حياته الداخلية بأخلاق رسول الله ﷺ. فالقدسية هي لله وحده.

وما وراء مقام الفناء في الشيخ يوجد أيضاً مقام الفناء في الرسول. وهذه المرتبة هي أن يتكامل المرء في كل آن من حياته بأخلاق الرسول ﷺ وكأنه في حضرته. وخير من عايش هذه الحال بأفضل طريقة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

فبحسب ما يروى:

«كان أبو بكر الصديق وبما هو عليه من توجه روحاني مع رسول الله وكأن رسول الله لا يفارق عينيه حتى أثناء تجديده لوضوئه. أي أن أبا بكر الصديق كان لا يفارق حالة التجسم المعنوي بوجه رسول الله المبارك حتى أثناء وجوده في أماكن الغسل والطهارة»

وحالة «الفناء في الرسول» هذه المتجلية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه يقابلها من رسول الله ﷺ قوله أثناء وفاته عليه الصلاة والسلام:

"...لاَ يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ" (البخاري، المناقب، جـ ٥، ص٤/ ٣٦٥٤)

إن هذا الحديث الشريف ليظهر بشكل رائع التدفق القلبي المتبادل. وبنتيجة هذا التدفق المعنوي في قوله تعالى:

﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾ (الحديد، ٤)

﴿...وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق، ١٦)

ينال الإنسان للسر الموجود في هاتين الآيتين في تجل ظاهر لمقام الفناء في الله.

وكدليل آخر في القرآن الكريم على الرابطة، تقول الآية الكريمة:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف، ٢٣ - ٢٤)

ويعلق المفسرون على كلمة "برهان" الموجودة في قوله تعالى "لولا أن رأى برهان ربه» فيقولون:

«إن القصد من البرهان هو تجلي وجه يعقوب عليه السلام فجأة أمام يوسف عليه السلام في مواجهة الميل إلى المرأة، ويضع إصبعه في فمه ويخاطبه بقوله:

«- إياك، تحكم بنفسك، وأعرض بوجهك عنها!.» وبهذا التنبيه الذي رآه يوسف عليه السلام متمثلاً بأبيه الذي تصور له حياً أمامه، يستجمع يوسف عليه السلام نفسه ويمتنع عن هذا الفعل المشين».

وكما تم تفسير هذه الآية الكريمة بتمثل هيئة يعقوب عليه السلام أمام يوسف عليه السلام ورؤيته له، فإن تخيل المريد لشيخه ورؤيته لحالاته أمامه وحمله في فؤاده هو أمر مماثل. وتأدية الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ واستحضار رابطة محبته في القلب هي أيضاً نوع من أنواع الرابطة.

إن رؤية الإدراك البشري المجرد أو الشعور به، هو أمر لا يمكن تحققه دون نِسبته إلى شيء معين أو شكل معين. فيعرض العلم في العالم، والعشق في العاشق والفن في الفنان.

فالتقديم المجرد من العرض هو أمر مستحيل. فالمعلم وصبيه، والأستاذ وتلميذه وغيرها من أمثلة العلاقات، كلها أمور ذات علاقة بالرابطة. فالرابطة والمرشد هي أمور مقابلة لخصوصية القلب المعنوية.

فكما يتواجد المرء بالأحاسيس العلوية أدباً في جوار المرشد الكامل بشكل فيزيائي، فإن نفس الأمر يستمر في غيابه في تلك الحالة المعنوية، وهو ما يؤدي إلى الوصول لحقيقة الرابطة. لأن العلاقة الفيزيائية مع أحباب الله هي أمر لا يمكن حصوله بشكل دائم.

وتؤمن الرابطة تسلسل الفيض من النبي عليه الصلاة والسلام إلى أحباء الله تعالى. فمن يتعرض من الناس للكهرباء فإن تيارها يصل بنفس القوة إلى آخر إنسان متصل بهذه السلسلة من الناس. وبنتيجة الرابطة يتحقق الدعم المعنوي. ويقال عن ذلك الأمر إستعانة و إستغاثة.

رابطة الموت

إن تأسيس رابطة مع الموت في عالم التصوف يدعى «تفكر الموت». ذلك أن لتفكر الموت تأثير كبير على حال وأفعال الإنسان.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

"اَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ" (الترمذي، الزهد، ٤/ ٢٣٠٧)

"كَفىَ بِالْمَوْتِ وَاَعِظاً..." (السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٧٧/ ٩٦٧٠)

عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال:

"كنت مع رسول الله ﷺ. فجاءه رجل من الأنصار فسلم على النبي ﷺ،

ثم قال: "– يا رسول الله! أي المؤمنين أفضل؟"

فقال له رسول الله ﷺ:

"أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا".

فقال ذلك الرجل سائلاً: «– فأي المؤمنين أكيس؟»

فقال رسول الله ﷺ:

"أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ" (ابن ماجه، الزهد، ٣١/ ٤٢٥٩)

بالفعل، إن التفكر بالموت هو أمر يخفف من حب الدنيا النفسي الذي يؤرق الإنسان. ذلك أن المحبة القصوى للثروات المؤقتة في الدنيا، والمراتب، والمواقع والجمال النفسي والتعلق

بها قلبياً، هي رأس الأمراض المعنوية كالغفلة. وحماية لقلوبنا من الارتباطات المماثلة تكمن في تذكر القبر، والتفكر في أحوال الموت الذي سيصيبنا في المستقبل؛ فإنه سيحمينا من الهوى والحماس الفارغ، والحرص الدنيوي عبر تحويلنا إلى الخشوع في العبادة والتوبة بحق. إن ما نداوم عليه من الذكر والروابط ستكون إن شاء الله وسيلة لسعادتنا ونجاتنا في الآخرة إن شاء الله ﷻ.[١٦]

نسأل الله تعالى أن يجعل قلوبنا منبعاً للذكر والمحبة...آمين...

١٦. للتفاصيل المتعلقة بالموضوع يمكنك قراءة كتاب التصوف من الإيمان إلى الإحسان، لمؤلفه عثمان نوري طوبّاش، ص ٢٥٥ - ٢٥٧.




سيدنا
شعيب
عليه السلام

من أعاد القلوب إلى وجدانها بخطابته
الملقب بخطيب الأنبياء
سيدنا شعيب
عليه السلام

هو من نسل إبراهيم عليه السلام أو صالح عليه السلام. ويروى أنه يصل بنسبه إلى ابنة لوط عليه السلام من ناحية أمه، وأنه ابن خالة أيوب عليه السلام. وهو في نفس الوقت عم موسى عليه السلام لزوجته (أي والد زوجة موسى عليه السلام).

وقد أرسل إلى شعبي مدين و الأيكة فكانت الأيكة اللتين هما بلدين متجاورين أحداهما في الجبل والأخرى في الغابات. (أُنظر: الحاكم، المستدرك، جـ ٢، ٦٢١/ ٤٠٧٥)

كان شعيب عليه السلام الذي ولد في مدين ابناً لعائلة من أشراف هذا القوم. وعاش شبابه بين أفراد قوم مدين. وكان أهل هذه المنطقة يعيشون في الضلال والشبق. أما شعيب عليه السلام فكان يعيش حياة بعيدة عن شرورهم، نزيهاً ونقياً. فكانت حياته ونصائحه نموذجاً لهؤلاء.

أهل مدين

ومدين هي المنطقة الممتدة من خليج العقبة وصولاً إلى وادي حمص. وتأخذ هذه المنطقة اسمها من قبيلة تسمى بهذا الاسم عاشت في هذه المنطقة.



ترك أهل مدين عبادة اللَّه تعالى وطاعته ووقعوا في طرق العصيان والضلالة. وعبدوا الأصنام والنحوت. وكان أهل مدين يعملون في التجارة لما كانت عليه مدينتهم من موقع يتوسط خطوط القوافل. ولكن، اشتهر هذا الشعب بالحيل التي أصبحت لديهم كالصنعة والبراعة. فكان الشعب عند سعيه للتجارة يتلاعب في أوزان البضاعة فيزيد حجم ما سيأخذ وينقص حجم ما سيعطي. وعند رغبتهم في بيع شيء ما، فإنهم يزيدون من سعر ما يبيعون وينقصون حجم ما يعطون، مستخدمين الحيلة بإظهار القليل كثيراً. بل وكانوا يستخدمون موازين مختلفة، ميزان للشراء وآخر للبيع.

كما كان أهل هذه المدينة يغيرون على الناس في سفرهم فيغتصبون جزءاً من بضاعتهم. وكانوا يقومون بذلك بشكل خاص مع الغرباء والمساكين فيستولون على بضاعتهم بشتى الطرق المختلفة. فكانت علاقاتهم البشرية تتمحور تماماً حول الحيلة والأذية والظلم. فكانوا لا يشكرون اللَّه تعالى على ما يمن به عليهم من نعم، بل ويجحدون إلى أبعد الحدود فيعصون اللَّه ويعبدون الأصنام. وباختصار؛ كان إيمان أهل مدين وثنياً بعبادة الأصنام، وتعاملهم التجاري ينطلق من الحيلة، ووظيفتهم الأمثل هي المراوغة. فكانت مدين هي بكل معنى الكلمة مكاناً هدمت فيه الأسس العلوية كاملة، ليحل محلها ردم أخلاقي واقتصادي وسياسي وعقائدي.

وبينما كان أهل مدين يعيشون في هذا الشكل السفيه من حياة الغفلة، أرسل اللَّه سبحانه وتعالى إليهم شعيب ﷺ. فتوجه إليهم شعيباً ﷺ بنصائح جميلة. وشرح لهم أوامر اللَّه تعالى وما نهى عنه. ودعاهم للإيمان باللَّه وحده وترك ما هم عليه من الشرك؛ وأن يتركوا ما هم عليه من التلاعب بالموازين والقياس في عمليات الشراء والبيع؛ وأن يؤمنوا بيوم القيامة وأن لا يتجهوا نحو الانهزامية في هذه الحياة. وأخبرهم بأن عذاب اللَّه شديد وأن نعمه لا تعد ولا تحصى.

يقول اللَّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (هود، ٨٤)

﴿...قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف، ٨٥)

﴿...يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ...﴾ (العنكبوت، ٣٦)



بهذا الشكل، أبلغ شعيب عليه السلام أهل مدين بالحقائق. وبدأ يدعوهم إلى التصديق بيوم القيامة والحساب الإلهي، ويحثهم على العمل لما سيؤمن لهم الفائدة والربح هناك.

وكان شعيب عليه السلام يسعى بشكل خاص لتحذير قومه بالابتعاد عن الغش في القياس والبيع. وكان يؤكد لهم محذراً بأن عدم امتناعهم عن هذه الأعمال سيؤدي إلى زوال ما هم عليه من النعم كافة. فاللّٰه تعالى أنعم على أهل مدين بالعديد من الأملاك والنعم الوافرة. ولكنهم عوضاً عن التوبة والشكر، استمروا في تخطي الحدود والحيل والغش. ويكمل شعيب نصائحه إلى قومه فيقول:

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود، ٨٥)

ثم بين شعيب عليه السلام لهم أسس التجارة. وهو أن يصلح التاجر قياسه وميزانه وأن يرضى بالربح العادي. فبالربح العادي أمن في التجارة والعمل، ورعاية من اللّٰه تعالى للعبد وبياض لوجهه. ولهذا، نجد شعيباً عليه السلام يكمل في نصائحه لهم فيقول:

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (هود، ٨٦)

"أي أنني لا أستطيع أن أعاقبكم على ما تفعلون من أعمال سيئة، كما أنني لا أملك لكم أن أمنع زوال هذه النعم التي تعيشون فيها! وإنما أنا أبلغكم بما أوحِي إلي!"

عبر ما ذكرنا من الآيات القرآنية الكريمة، نفهم أن شعيباً عليه السلام دعا قومه إلى هذه الأمور الخمسة:

١. التوحيد وعبادة اللّٰه وحده.

٢. التصديق به نبياً.

٣. إيفاء الكيل والميزان، وترك الحيلة والغش.

٤. رعاية حقوق الناس جميعاً. وترك سائر أعمال الغصب، والسرقة والرشوة وقطع الطريق وغيرها من الأعمال المشينة سراً وعلانية.

٥. الإبتعاد عن الفساد في الدين والدنيا.

ويمكن تلخيص هذه الأسس الخمسة التي دعا إليها شعيب قومه بأنها: "تعظيم الخالق، والرحمة والشفقة بالمخلوقات». علماً أن هذا التعريف يجمع في طياته كافة الأمور المتعلقة بالتوحيد وتصديق النبوة وحقوق العبد وترك الفساد في الأرض.

وكانت دعوة شعيب ذات تأثير كبير. فأثرت في الأوساط من حوله بشكل كبير. وبدأ الناس يزورونه جماعات جماعات فيؤمنون به ويمتثلون بما أمر به. فكانوا يعبدون اللّٰه ولا يحيدون عن الحق في تجارتهم. ولكن، كان هناك أعداد كبيرة من الناس أيضاً ممن لم يؤمنوا.

وعضب من كفر من قومه لهذا الأمر، فكانوا يجدون الربح الحلال قليلاً. وكانوا يتناجون فيما بينهم فيقولون: «لا يمكن لأحد أن يغنى من الربح الحلال!»، فيدعون الناس للباطل والظلم.

ويقول كفرة القوم لنبيهم:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود، ٨٧)

والقصد من الصلاة هنا هي الدين. لأن الصلاة هي أكبر العبادات وأشملها وبالتالي فهي وكأنها تمثل الدين بكامله. وبهذا، فإن الصلاة هي عبادة مهمة جداً.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود، ٨٨)

إن قول شعيب عليه السلام في هذه الآية الكريمة:

"وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» هي بمعنى: «أنني لا آمركم إلا بما أقوم به. وإن كنت أمنعكم عن شيء فسأكون بينكم أول من يمتنع عنه".

أن يكون المرء في دعوته على هذا النحو من الشفافية هو فضيلة مهمة امتدحها اللّه تعالى. وأي تصرف بأسلوب آخر هو أمر مذموم

وممنوع عنه بشدة. ولهذا، وعندما اتجه علماء بني إسرائيل في آخر عهدهم إلى هذه الخصال السيئة قال اللّٰه تعالى في حقهم مخاطباً:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة، ٤٤)

ويقول رسول اللّٰه ﷺ في هذا الشأن أيضاً:

"يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ:

- يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟

فَيَقُولُ:

- بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ" (مسلم، الزهد، ٥١/ ٢٩٨٩)

استمر شعيب عليه السلام بدعوة قومه ضمن هذه الأطر دون أن يكل أو يتعب. واستمر قومه بصدهم وإعراضهم عن السماع إلى نصائحه ووصاياه. وكان شبقهم يتزايد يوماً بعد يوم.

وعلى الرغم من عدم قدرتهم على أصابة شعيب عليه السلام بأي أذى لما كان ينتسب إليه من قبيلة قوية، إلا أنهم كانوا يقومون بتهديد من



آمن معه من الناس. فينبههم شعيب ﷺ بهذا الشأن فيقول:

﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف، ٨٦)

وعلى الرغم من كل ما كان يواجهه من صعوبات، تابع شعيب ﷺ دعوته لقومه. وكان يتبع في عمله ودعوته أحكام الدين الحنيف الذي أنزل إلى إبراهيم ﷺ. وانتشرت نبوته إلى الشام. فكانت القلوب المؤمنة المتعطشة لرؤيته تسافر باتجاه مدين للقاء به. فكان أهل مدين يقفون على الطرقات يحاولون صد المؤمنين ممن يسعى للتشرف بزيارة شعيب ﷺ. وهو ما يدل على تبعيتهم الظاهرة للشيطان. ذلك أن الشيطان عندما طرد من الرحمة الإلهية خاطب اللَّه تعالى فقال:

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف، ١٦ - ١٧)

ولهذا، كان شعيب ﷺ يعمل لمنع قومه من؛

١. الوقوف على الطرقات تهديداً للناس وأذى لهم،

٢. صد الناس عن الإيمان باللَّه ،



٣. صرف المؤمنين وحديثي العهد بالإيمان إلى طريق الضلال بإيقاعهم في الشبهات المختلفة والتردد.

التحذيرات الأخيرة

يحزن شعيب عليه السلام لتصرفات قومه السيئة وعصيانهم المستمر، ويريد بكل عزم وصبر كبيرين أن يوقظهم من ثباتهم على الجهل. فيحذرهم بكلامه الأخير إليه فيقول:

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (هود، ٨٩)

أي أنهم هلكوا في زمان قريب من زمانكم. ولهذا فإنهم أقرب من هلك من الأقوام من الناحية الزمنية إليكم. وهم ليسوا ببعيدين عنكم بكفرهم وسيئاتهم والأمور التي أوجبت هلاكهم. ولهذا الأمر هلكوا. ولهذا وجب عليكم أن تتعظوا لحالهم!..

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود، ٩٠)

ولم يرض المتنفذون من قومه من الكفار بعرض شعيب عليه السلام إليهم هذا وقالوا: **﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾** (هود، ٩١ – ٩٢)

وعندما يئس شعيب عليه السلام من إيمان هذا القوم الضالين، توجه إلى ربه يفوضه بحال قومه. فلم يبق أمامه ما يمكن له أن يقوم به لأجلهم. ولكنه توجه إليه في محاولة أخيرة علهم يتعظون بتذكيرهم بالعذاب الإلهي فقال:

﴿وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (الأعراف، ٨٧)

لكن أهل مدين اتهموا شعيباً عليه السلام بالكذب مرة أخرى. وهددوه ومن آمن معه بطردهم من مدين. لأنهم وجدوا بمعيشة المؤمنين بينهم تهديداً لهم ولأعمالهم:

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف، ٨٨)

ثم أضاف قائلاً:

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّينَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف، ٨٩)



يرفض شعيب ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يعود إلى دين قومه، مستثنياً في ذلك إرادة اللَّه سبحانه وتعالى في هذا الأمر. وكان موقفه هذا تعبيراً عن تسليم إرادته لله رب العالمين. فالأنبياء والأولياء هم دائماً في خوف دائم من تغير أحوالهم ومن غضب اللَّه سبحانه جَلَّ وَعَلا.

ولهذا السبب نجد أن شعيباً ﷺ يقول:

"- إن تركنا لدين اللَّه والعودة إلى دينكم هو أمر لا يمكن القبول به. أما إن أراد اللَّه إهلاكنا، فلا يمكننا أن نفعل شيئاً آخر. لأن كل أعمالنا ملك يده سبحانه. فيعز من يشاء بما كان منه من طاعة؛ ويعذب من يشاء بما كان منه من معاصي."

وكان رسول اللَّه اللَّه ﷺ يدعو ربه دائماً بقوله:

"اَللّٰهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ" (مسلم، القدر، ١٧/ ٢٦٥٤)

وعلى الرغم من نصائح شعيب ﷺ، لم يتغير حال قومه من العصيان أبداً. وكانوا إضافة لما هم عليه من الكفر، لم يستطع قوم شعيب ﷺ من تحمل المؤمنين من القوم فيما بينهم. فكانوا يشجبونهم، ويهددونهم بشكل دائم مستمر.

وكانوا يقطعون الطريق أمام من يأتي مؤمناً بشعيب ﷺ لتقبيح صورته في أعينهم، في محاولة منهم لردع هؤلاء الناس عن الإيمان



به. ويصف القرآن الكريم هذه الحالة بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف، ٩٠)

الصيحة المرعبة تأتي من الأعلى

لم يبق لشعيب عليه السلام ما يمكن تقديمه لهؤلاء الناس الضالين عن السبيل. ولهذا، نجده يقول لهم في آخر الأمر:

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (هود، ٩٣)

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (هود، ٩٤)

ويفسر هذا الأمر في آية قرآنية أخرى بقوله تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، ٩١ – ٩٢)

وهكذا وجد أهل مدين عاقبة أعمالهم القبيحة ونتيجة عصيانهم لله ورسوله وضلالتهم وحيلهم وأخطائهم. فهذا الجزاء هو النهاية الحتمية لكل ظالم لا يجب حتى الحزن عليه:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف، ٩٣)

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود، ٩٥)

إن مهلك قوم شعيب عليه السلام كان كما هو الحال في قوم ثمود عذاب من اللّٰه تعالى بالصيحة والضجيج إهلاكاً لهم لما كان منهم من صد عن النصيحة. وهلاكهم بشكل متشابه هو دلالة على تقارب ما كانوا عليه من سوء الأخلاق. مع العلم أن كلاً من القومين لعنوا بنفس الشكل لابتعادهم عن رحمة اللّٰه تعالى، فشابه قوم مدين في هذا الأمر قوم ثمود.

فهلك قوم ثمود بصيحة من أسفل منهم، وهلك قوم مدين بصيحة أتتهم من فوقهم. وهكذا، كانت نتيجة كل من القومين عذاب وخسارة بابتعادهم عن رحمة اللّٰه تعالى.

أصحاب الأيكة[١]

الأيكة لغة هي الغابات الكثيفة المتكررة. وهذا المكان من الناحية الجغرافية هو الموقع الممتد من البحر الأحمر وصولاً إلى مدين. ويقال عن الذين عاشوا في هذه المنطقة بأنهم من الأيكيين.

١. الأيكة قريبة من مدين ومن منطقة قوم لوط



كلف شعيب عليه السلام بدعوة أصحاب الأيكة إلى الطريق القويم لما كانوا عليه كما هو حال أهل مدين من الغنى والوفرة والنعم بعيداً عن التوحيد والهداية.

وكذب أصحاب الأيكة نبي اللّه شعيباً كما كذب به أهل مدين.

يقول اللّه تعالى في الآية الكريمة:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء، ١٧٦)

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (الحجر، ٧٨)

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء، ١٧٧ – ١٨٠)

يخرج أنبياء اللّه تعالى إلى الناس بصفتين اثنتين:

١. رفضهم لأي منفعة أو أجر دنيوي، وأن الأجر والثواب هو من عند اللّه سبحانه وتعالى.

٢. كونهم أسوة حسنة للجميع، لمعرفتهم بأن الأجر والثواب هو من عند اللّه تعالى.

ويشار إلى أهمية كلتا هاتين الصفتين في سورة يس. فيقول فيها حبيب النجار إلى "أصحاب القرية" يحدثهم عن الدعوة ويدعوهم إلى العقل السليم بقوله: "يا أصحاب القرية! هل يطلب منكم هؤلاء

الذين أتوا إليكم أي أجر ما؟ أليس هؤلاء الناس على الهداية (أسوة حسنة)[٢]؟

ولطالما انهم لا يطلبون منكم أجراً، وهم على الإستقامة والهداية (أي يعيشون حياة فاضلة)، إذن أطيعوا أمرهم!"

يكمل شعيب عليه السلام نصيحته إلى أهل الأيكة بقوله:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء، ١٨١ – ١٨٤)

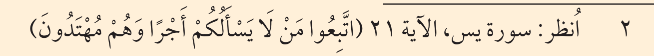
﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء، ١٨٥ – ١٨٧)

عذاب من السماء: نار حامية

وأمام جرأة القوم على طلب العذاب من اللّٰه تعالى:

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء، ١٨٨)

فدعا اللّٰه تعالى. وناجاه ليحل العذاب الذي طالب به القوم. فبدأت الرياح الساخنة تهب فجأة. وظهر ذباب أزرق اللون وسلط


٢ أُنظر: سورة يس، الآية ٢١ (اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)



عليهم. فأصبح الكفار لا حيلة لهم. وازدادت حرارة الجو شيئاً فشيئاً. فبدأ الناس يهربون إلى الأماكن القريبة من المياه الجارية، والأشجار، والظل. ولكن حرارة الجو كانت تزداد يوماً بعد يوم. وفي هذه الأثناء، قام جبريل عليه السلام بإمساك غيمة خارج المدينة. فلما رأى الكفار هذا الغيم ظنوا أنه مكان رطب الجو فخرجوا جميعاً إلى هناك. وعندما اجتمعوا جميعاً سمعوا صوت نداء يقول لهم:

"يا أيها الأيكييون! ظننتم بتكذيبكم نبيكم أن العذاب لا يأتينكم أبداً! فلتكلموا أصنامكم التي تسجدون لها أيضاً، إن كان لها قوة، فلتأت لتخلصكم!"

وبدأت الحجارة والنار تنهمر على الكافرين من الغيم الذي تجمعوا تحته. فاحترق كل ما يعود إليهم من ملك. بل وحتى الشجر والحجر...

تروي الآيات القرآنية:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

(الشعراء، ١٨٩ – ١٩١)

إذن، من الأقوام الذين أرسل إليهم نبي اللّٰه شعيب عليه السلام، هلك قوم مدين بصيحة جبريل والزلزلة؛ وهلك أصحاب الأيكة بالنار والحجارة التي انهمرت عليهم من الغيم الذي ظنوا بأنه ظل لهم.

بعد الهلاك

بعد هلاك من عصى من الشعبين، سكن شعيب عليه السلام في مدين. وتزوج وأصبح والداً لابنتين.

ويلقب شعيب عليه السلام بين الأنبياء بلقب: «خطيب الأنبياء». لأنه كان يحدث قومه بأجمل الكلام، ويجيب على أسئلتهم بشكل كامل ومقنع.

وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة، ويولي الكثير من اهتمامه لحقوق العباد. وكان يفعل كل ما في وسعه ليعدل باستخدامه أدوات الكيل والميزان، ويظهر دقة كبيرة في تتبع الحق وتعليمه للناس.

ومن خصائصه أيضاً أنه كان نبياً كثير البكاء. فضعفت عيناه عند هرمه بشكل كبير، وخارت قوى جسده.

ويروى أنه بكى مرات عديدة لدرجة كاد يفقد بها بصره كما يقال. فكان اللّٰه تعالى يشفي بصره ويقول له من خلال الوحي:

«– يا شعيب! ما سبب بكائك؟ هل هو شوق للجنة، أم مخافة من النار؟»

فيجيبه شعيب عليه السلام:

«– يا ربي! إنك لتعلم أن بكائي هذا ليس شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار. محبتك عمرت في قلبي. ويشتد قلقي لفكرة: «أن



أتمكن من رؤية جمالك!..» فإن تمكنت من رؤيتك فلا شيء بعد ذلك عندي...»

فيوحي إليه اللَّه بقوله:

«– ما دمت صادقاً في قولك فرؤية جمالي مباركة لك يا شعيب! ولهذا السبب أقدم إليك كليمي موسى بن عمران ليعمل على خدمتك!»

هذه هي حال القريب من اللَّه. فهم بعكس أهل الغفلة يفكرون قبل كل شيء في رضى اللَّه سبحانه وتعالى فيجعلونها في مقدمة اهتماماتهم ويؤخرون مرضاة الناس لتكون من آخر اهتماماتهم. وتعمر قلوبهم محبة اللَّه تعالى فلا يهتمون بما في الدنيا ولا يبالون بما فيها.

يرسل اللَّه سبحانه وتعالى أنبياءه لتوعية قلوب الناس بعيداً عن الغفلة، وتعليمهم الأخلاق الحميدة، وحثهم على العبادة بإخلاص وصولاً إلى محبة اللَّه تعالى، ودعوة لهم إلى «دار السلام».

ومن كان قلبه مهيأً للصحوة، فإنه يتجه بكل تصميم نحو التربية والإرشاد، ويعمل كل ما في وسعه للتقدم في سبيل الحق. أما من كان بعيداً عن هذه الرغبة، فإنه يتكبر ويعاند، ولا يستمع إلى إرشادات الأنبياء والرسل، فيكونون ممن لا يصل إلى مرتبة اليقين، فيفسقون ويظلمون وتقسى قلوبهم. ويكونون كمن لا يهتدي طريقه في حالة محزنة من العجز والضياع.

ولهذا، عمل شعيب عليه السلام طيلة حياته، بما أعطاه اللّٰه من قوة ورحمة، بكل غيرة وإرادة وتصميم على إنقاذ الناس مما هم عليه من حال تألم له القلوب. وضحى في سبيل ذلك بكل ما أوتي من قوة.

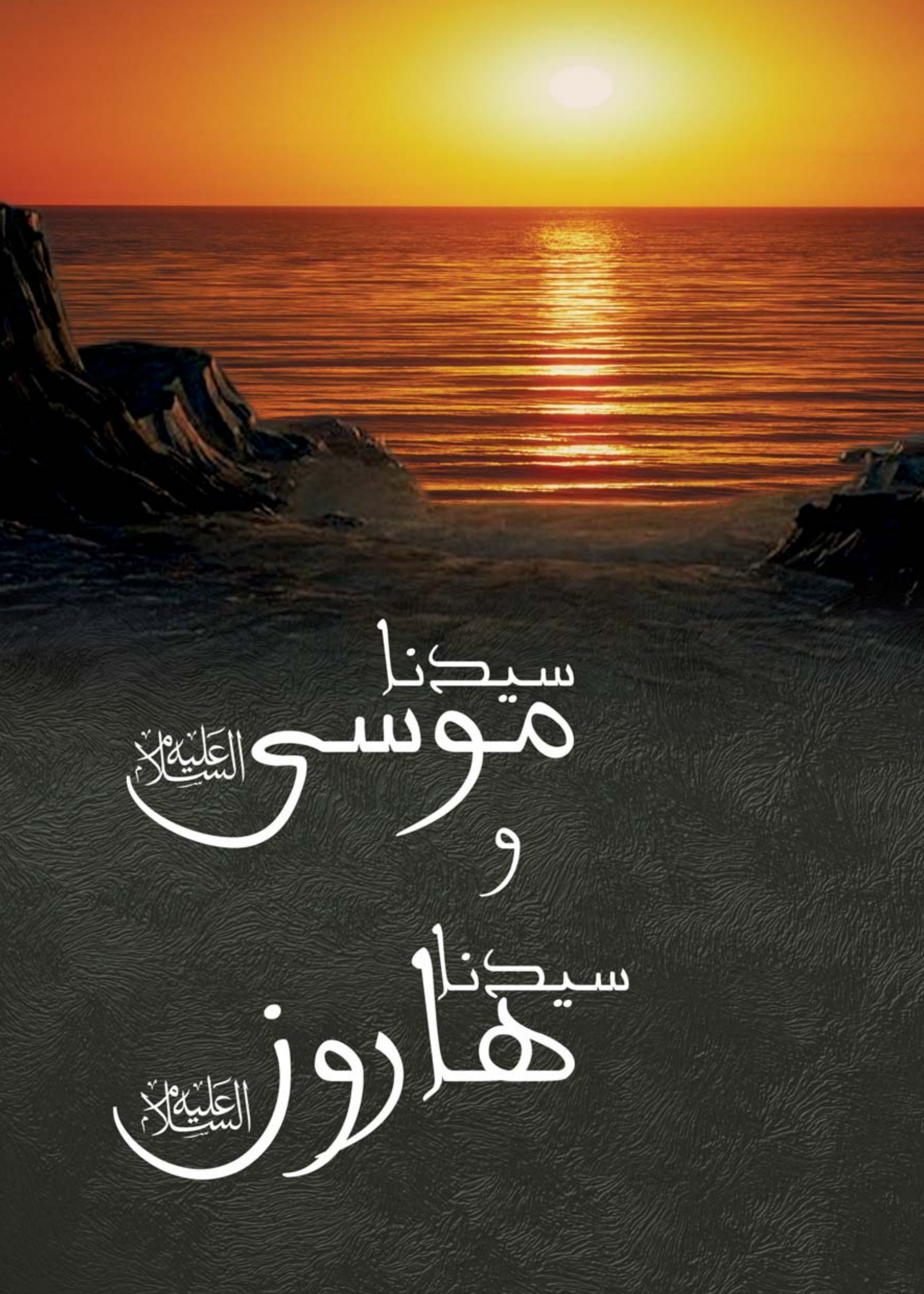


وبعد ما أصاب قوم مدين والأيكة ما أصابهم من الهلاك، توجه شعيب عليه السلام ومن آمن معه من الناس إلى مكة ليمضي فيها ما تبقى من عمره وحياته. وتوفي فيها ودفن في الكعبة المعظمة أسفل الأخدود الذهبي، أي دفن في الختيم.

عليه السلام!..



معان
الجزيرة العربية
سيناء
مدين
تبوك
كليبه
تيمه
مصر
البحر الأحمر
ديار ثمود


سیدنا
موسیٰ علیہ السلام
و
سیدنا
ھارون علیہ السلام

الذي أغرق بمعجزته فرعون الأحمق
في أعماق البحر الأحمر، صاحب العصى
سيدنا موسى
عليه السلام

و

ومساعده الصالح أخوه
سيدنا هارون
عليه السلام

يعتبر موسى عليه السلام النبي الثالث من الأنبياء أولي العزم. وهو من نسل يعقوب عليه السلام. ونبي بني إسرائيل. وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم. فلقد ذكر اسمه في مختلف الآيات الكريمة في أماكن مختلفة أكثر من ١٣٦ مرة.

وموسى عليه السلام هو أخ لهارون عليه السلام.

كان ريّان بن مالك فرعون مصر في زمن يوسف عليه السلام عندما كان وزيراً لخزينة الدولة (وزير المالية) رجلاً مؤمناً. ولكن، بعد وفاته خلفه فرعون قابوس. ولكن هذا الرجل لم يكن مؤمناً بيوسف عليه السلام. إلا أن يوسف لم ينزع عنه وظيفته. ومن ثم توالى الفراعنة على عرشِ مصر، ولم يهتموا بحال بني إسرائيل.



بعد يوسف عليه السلام، بقي بنو إسرائيل في مصر. وكانوا مرتبطين ديانة بكل من يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام. أما الأقباط سكان مصر الأقدمين فكانوا من الوثنيين. وكانوا يعبدون الأصنام والنجوم. وكانوا ينظرون إلى بني إسرائيل باحتقار ودونية. وكان فراعنتهم غدارين ظلمة. كما كانوا يقلقون من تكاثر بني إسرائيل. ذلك أن تكاثر بني إسرائيل الذين كان يقال عنهم الأسباط، سيكون سبباً في انتقال الحكم إليهم.

وعندما لم يطق الأقباط تحمل هذا الأمر أكثر من ذلك، قاموا وعلى رأسهم فراعنتهم بتعذيب الأسباط وظلمهم وأذيتهم. فبدأ الصبطيون يتململون من هذا الظلم الواقع بهم، وتعبوا من هذا الحال. فهم خسروا هنا كل ما كان لديهم من حقوق إجتماعية وسياسية. فقرروا العودة إلى ديار كنعان موطن يعقوب عليه السلام. ولكنهم لم يوفقوا إلى ذلك أبداً. ذلك أن فرعون كان يجبرهم على العمل في أمور شاقة كبناء الأهرامات، ولهذا كان يرفض ذهابهم.

وكانت قبائل بني إسرائيل الإحدى عشرة كل منها تنتسب إلى أحد أبناء يعقوب عليه السلام. وكان فرعون يشغلهم في ظروف صعبة جداً ويبقيهم تحت وطأة الضغط المستمر. وكان يفرض على غير القادرين على العمل منهم ضرائب كبيرة، بحيث يربط أيدي من لا يحضر ضريبته قبل غياب الشمس، ويبقيه على هذه الحالة شهراً

كاملاً. تتحدث الآيات الكريمة عن ظلم فرعون بهذا الشكل فتقول:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص، ٤)

﴿...إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص، ٨)

أمام هذا الظلم وعصر الإنحطاط، أرسل اللّه ﷻ موسى عليه السلام:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص، ٥-٦)

الرؤيا التي افزعت فرعون

يرى فرعون في إحدى الليالي في منامه ناراً تخرج من بيت المقدس تحرق بيوت الأقباط، ولا تضر أحداً من بني إسرائيل. ففسرت له رؤيته بقولهم:

«- سيخرج طفل من بني إسرائيل ويهدم لك سلطنتك!».

ولهذا، يأمر فرعون بقتل كل طفل ذكر يولد لبني إسرائيل.

فتصنع آلات من القصب؛ ويدخلونها إلى بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل لتعجيل ولادتهن بكل أذى وتعذيب. فإن كان المولود ذكراً قتل من فوره.

ويقال أن السبب الآخر الذي دفع فرعون لارتكاب مثل هذا العمل السيء والقبيح هو:

كان بنو إسرائيل يتحدثون فيما بينهم عن ولد من نسل إبراهيم عليه السلام سيولد ويكون سبباً في هلاك ملك مصر (فرعون). وَعَزوا سبب هذا الأمر إلى الحادثة التي حصلت بين سيدتنا سارة زوجة إبراهيم عليه السلام وفرعون. لأن فرعون أراد أن يسيء إليها ولكنها نجت بحماية اللَّه تعالى. ولهذا أراد اللَّه تعالى أن يأتي من بني إبراهيم عليه السلام ونسله من ينقذ بني إسرائيل من ظلم هؤلاء الفراعنة.

وأصبحت هذه البشرى منتشرة بين أبناء بني إسرائيل. بل وبدأ الأقباط أنفسهم يتناقلون هذه الرواية. وعندما وصل هذا الخبر إلى فرعون، جمع رجاله واتفقوا على قتل كل ولد ذكر يلد لبني إسرائيل. وكان قصده منع أي ولد من أبناء إسرائيل من النمو ليهلكه. ولكن هذه الخطة لم تكن لتقف أمام مشيئة اللَّه سبحانه.

وفي هذه الأثناء، يلد لعمران أحد الرجال من نسل يعقوب عليه السلام سيدنا موسى عليه السلام. وكانت إحدى القابلات من أقارب موسى عليه السلام. ورأت نوراً مشعاً على جبينه عند ولادته. فدهشت واستغربت الأمر.

وبعد أن خرجت القابلات بعد انتهاء الولادة، دخل رجال فرعون إلى الدار. فتقوم أمه على عجلة وقلق بوضع موسى عليه السلام في الموقد. وعند خروج العساكر تقوم مسرعة بفتح الموقد فتجد

موسى عليه السلام آمناً كما كان إبراهيم عليه عليه السلام آمناً داخل النار. فتأخذه إلى صدرها وتفرح فرحاً كبيراً وتشكر اللَّه تعالى على ذلك. ومن ثم يلهمها اللَّه تعالى أن ترضعه إلى أن تحس بالخطر فتلقيه في نهر النيل، وبأن لا تحزن لأنه سيرجع إليها ويكون نبياً كبيراً. تروي الآية القرآنية هذه البشرى بقوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(القصص، ٧)

فتذهب أم موسى مسرعة إلى أحد النجارين وتصنع لولدها صندوقاً، فتضع موسى عليه السلام فيه وتلقيه بعد ذلك في نهر النيل.

ويتنبه النجار لهذا الأمر فيسرع إلى فرعون ساعياً إلى إفشاء هذا السر. ولكن لسانه يعجز عن النطق فلم يستطع الحديث إليه بشيء. فطرده رجال فرعون في نهاية الأمر.

ويدخل هذا الصندوق عبر نهر النيل إلى حديقة القصر. فتأخذه الجواري وتسلمه لسيدتنا آسيا.

سيدنا موسى في قصر فرعون

وتكون آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون هي امرأة من نسل ملك مصر زمن يوسف عليه السلام الريان بن الوليد. وعندما أحضر إليها



موسى عليه السلام داخل هذا الصندوق، دخل حبه إلى قلبها بشكل كبير. فكان الطفل جميلاً جداً. فأخذته إلى صدرها تضمه إليها. ومن ثم أحضرته إلى جانب فرعون وقالت:

«– فليكن ولدنا، فيكون في المستقبل عوناً لنا، ويحمينا! فلا تزهق روحه! فهو يعتبر ولداً جميلاً لكلينا!» وحاولت أن تقنعه بمثل هذا الكلام الجميل إلى أن وفقت إلى ذلك.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (القصص، ٩)

وبدأ من في القصر يبحث عن مرضعة لموسى عليه السلام. ولكن هذا الطفل أبى أن ترضعه أي أم كانت. وتخبر اخت موسى عليه السلام مريم من في القصر أن والدتها قد تتمكن من إرضاع هذا الطفل. وذلك لأن امها قالت لها:

﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص، ١١ – ١٢)

فيقبل العرض الذي أتتهم به أخته:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (القصص، ١٣)



ولكن والدة موسى عليه السلام لم تقبل مباشرة عرض آسيا لها بأن ترضع موسى عليه السلام، وذلك لكي لا يشتبه أحد بها أن تكون والدته. ولأنها كانت تعلم أن الوعد الذي ذكر في الآية الكريمة لا بد له وأن يتحقق:

"– لدي ولد آخر يدعى هارون![1] فإن قبلتم بذلك أرضعته؛ وإلا فلا أرضعه لكم!."

وهكذا لم يفطن أحد إلى أنها والدته عليه السلام. وأرضعت موسى عليه السلام حليبها لقاء أجر من المال.

وكان فرعون وامرأته يعتقدان أنهما بتربية موسى عليه السلام بين أحضانهما سيكون سبباً كافياً لأن يربى على الطريقة التي يشاؤون. ولكن حياة الإنسان مرتبطة عادة بأمرين اثنين: الوراثة والتربية... فيكون الإنسان عادة إما تحت تأثير الوراثة وأحياناً أخرى تحت تأثير التربية أو يكون تحت تأثيرهما معاً. ولهذا يتحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة فيقول بأسولب دقيق «وهم لا يشعرون».

ويروى أن فرعون كان قد قتل قرابة ٩٨٠,٠٠٠ طفلاً برئياً بهدف إيجاد (العثور) موسى عليه السلام. فكانت حكمة اللّه تعالى أن جعل

١. كان فرعون يستخدم بني إسرائيل كالعبيد له يستفيد منهم في الأعمال الشاقة، ولهذا، كان يقوم بقتل أطفالهم عاماً ويدعهم عاماً. وهارون u ولد في ذلك العام الذي لا يقتل فيه الأطفال.



موسى عليه السلام في قصر فرعون نفسه يتربى تحت حمايته، ليأتي اليوم الذي سيقض فيه عرشه وسلطنته بكلمة الحق. لأن الأنبياء هم دائماً في رعاية اللّٰه عز وجل يتربون تربية خاصة بعنايته.

علماً أن رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم يحدثنا في الحديث الشريف فيقول:

"أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي" (السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٢٦٢)

وبدأت والدة موسى عليه السلام ترضع ابنها موسى في قصر فرعون. ولكن الوزير هامان اشتبه بهذه الحالة فقال سائلاً:

"هل هذا ابنك؟! فهو لم يرض أن ترضعه أي أم أخرى، ولم يرض إلا بحليبك أنت!."

فأجابته أم موسى عليه السلام مقنعة له بقولها:

"لا أدري ما السبب، لكن كل الأطفال تحبني، وأنا احبهم جميعاً"

وبالنتيجة، خصص لها معاشها، وبقيت تحت رعايتهم. وهو لطف من اللّٰه سبحانه وتعالى بها.

يقول اللّٰه تعالى في القرآن الكريم:

﴿...إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص، ١٠)

وكانت سيدتنا آسيا كلما اشتاقت لموسى عليه السلام تدعوه ووالدته إلى القصر وتغدق عليه بالهدايا. وفي يوم من الأيام، يؤتى بموسى



عليه السلام إلى غرفة فرعون. فيحتضنه فرعون. فيقوم موسى عليه السلام بشد لحيته بقوة؛ يقتطع بها شعراً منها، ويلكمه على وجهه ويلتقط السوط من يد فرعون ويضربه بها. فيغضب فرعون ويقول:

"هذا هو عدوي الذي كنت أنشد" ويقرر قتل موسى عليه السلام.

فتسرع سيدتنا آسيا لتقول:

"- إنه طفل! لا إدراك له... فإن شئت امتحناه. فلنضع في طبق ياقوتاً وفي الآخر جمرة. فإن أخذ موسى الياقوتة فهو ذكي؛ وإن أخذ الجمرة فهو طفل!."

يرضى فرعون بهذا الرأي. ويؤتى بطبقين أحدهما جمر والآخر ياقوت، ويوضع كلا الطبقين في متناول يد موسى عليه السلام. وبينما يحاول موسى مد يده نحو طبق الياقوت، يأتي جبريل عليه السلام بأمر من اللّٰه تعالى فيحول يد موسى عن ذلك الطبق. فيأخذ موسى جمرة من الطبق الآخر ويضعها في فمه. فيحترق لسانه ويصبح صاحب لثغة في كلامه. وتستمر هذه اللثغة إلى يوم جبل الطور في اليوم الذي دعا ربه فيه.

وعندما يرى فرعون هذا الأمر يقول:

"- نعم، فعل ذلك ببراءة الطفولة!" وعفا عن موسى. وأعاده إلى حماية القصر.



يروي محيي الدين ابن العربي –قدس اللّٰه سره– في كتابه فصوص الحكم فيقول:

«يقتل فرعون ٩٨٠ , ٠٠٠ في محاولة لمنع ظهور موسى عليه السلام. يقتل جميع هؤلاء الأطفال ليكونوا مدداً في حياة موسى عليه السلام وتقوية لروحانيته. ذلك أن فرعون وعائلته لم يكونوا يعرفون موسى عليه السلام ولكن اللّٰه يعرفه. ولهذا كانت حياة كل من هؤلاء الأطفال هي حياة لموسى عليه السلام. وهذه هي الغاية من ذلك»

❁

ويحبب اللّٰه سبحانه وتعالى الناس جميعاً بموسى عليه السلام:

﴿...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه، ٣٩)

وبسبب هذا اللطف الإلهي، كانت المودة تتولد في أفئدة كل من يرى موسى عليه السلام من الناس فيحبونه. وأخيراً، أعطاه اللّٰه سبحانه وتعالى النبوة:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص، ١٤)

وكلمة «أَشُدَّهُ» المذكورة في الآية الكريمة تأتي بمعنى كمال موسى عليه السلام من الناحية الجسدية والروحانية معاً، وهو ما يعرف عند رأي الأكثرية بأنه سن الأربعين. فأعطاه اللّٰه سبحانه وتعالى



"الحكم" و"العلم" عندما وصل إلى هذه السن. وكلمة "الحكم" المذكورة في الآية تأتي بمعنى "الحكمة"، وتفسر في معظم التفاسير بأنها "النبوة".

ومن ثم يبدأ موسى عليه السلام بتبليغ دعوته ويبين بطلان وسوء دين فرعون.

مقتل القبطي

كان لفرعون خبازٌ ماهرٌ ظالمٌ من الأقباط يدعى فاطون. وكان هذا الخباز يوماً يضرب رجلاً من الأسباط يدعى سامري. فطلب السامري المعونة من موسى عليه السلام. فدخل موسى بينهما محاولاً أن يفصل بينهما؛ فوكز فاطون ودفعه. وأمام هذا التدخل البسيط وقع فاطون على الأرض وخر ميتاً.

فحزن موسى عليه السلام كثيراً لهذا الأمر. فلم يكن عنده أدنى نية في قتل فاطون. وما أراد إلا أن يحمي السامري. فالتجأ إلى اللّٰه تعالى بكل حزن طالباً منه المغفرة.

يخبر اللّٰه تعالى عن هذه الحادثة في الآية الكريمة فيقول:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (القصص، ١٥)



ولكون موسى عليه السلام كان قد بدأ عملية التبليغ والدعوة للناس إلى حقيقة التوحيد في كل مكان، كان أقباط فرعون قد اتخذوا جبهة وصفاً ضده. ولهذا دخل عليه السلام إلى المدينة في وقت متأخر بعد أن دخل الناس إلى منازلهم. وقوله "هذا من عمل الشيطان!" هو إنما لكونه عمل لم يشأ له موسى عليه السلام الحصول، وإنما وكأنه إشارة إلى استحقاق المقتول لعقوبة الموت إشارة إلى ذنوبه. وإضافة إلى ذلك، ولكونه لم يؤمر بقتل هذا الرجل، فإن قول موسى عليه السلام هذا هو ربما إشارة أيضاً إلى الفعل الذي ارتكبه. ولكنه لم يكن يخطط لهذه النتيجة. ولهذا، وعندما تعرض لهذا الموقف والنتيجة التي لم يكن يفكر فيها قال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾

(القصص، ١٦ – ١٧)

في هذه الأثناء، توجه الأقباط إلى فرعون يشكون مقتل هذا القبطي ويطالبونه بإيجاد قاتله. فطلب فرعون شاهداً يشهد بمن قتله. ولكنهم لم يتمكنوا من إحضار أي شاهد. ولهذا، خرج فرعون إلى خارج المدينة ليبحث عن هذا القاتل.

في اليوم التالي، يشاهد موسى عليه السلام نفس السبطي يتشاجر مع قبطي آخر مرة أخرى. فيطلب السبطي المعونة من موسى للمرة

الثانية. فيقول له موسى:

«لقد ظلمت نفسي بسببك!»

فما كان القبطي الذي كان في هذا الموقف يستمع إلى قول موسى إلا أن أسرع إلى فرعون ليشتكي موسى ويقول:

«- إن موسى هو من قتل فاطون خبازكم!»

فيأخذ فرعون قراراً بالقصاص[2]. فيسرع ابن عم فرعون إلى موسى سراً ليخبره بما كان. لأنه كان من الذين آمنوا له عليه السلام.

ويحدثنا رب العزة والجلالة عن حال موسى عليه السلام بعد أن قتل ذلك القبطي وطلب الغفران منه تعالى بهذا الشكل فيقول في الآيات الكريمة:

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (القصص، ١٨ - ١٩)

---

٢. بحسب ما يبينه فخر الدين الرازي، فإن موسى عليه السلام لم يقصد قتل هذا القبطي. ومن ناحية أخرى كان القبطي مشركاً. ولهذا لم يكن واجباً عليه القصاص. ومن ناحية أخرى، لكون هذه الحادثة هي حادثة قد تمت بشكل غير مقصود فإنها لا توجب القصاص أيضاً.



وفي هذه الأثناء جاء رجل ينبه موسى عليه السلام من المؤامرة عليه:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص، ٢٠ – ٢١)

وبتصرفه بهذا الشكل، يظهر لنا موسى عليه السلام بنفس الوقت كيفية وجوب التوكل بشكل حقيقي.

فهي أولاً الاستشارة، ومن ثم العزم (أي القرار)، ومن ثم التدبير (أي التنفيذ) وأخيراً ترك النتيجة لله سبحانه وتعالى (بالدعاء والرضى). هذا هو التوكل!..

من مصر إلى مدين

ودون أي إضاعة للوقت، ينطلق موسى عليه السلام باتجاه مدين. وفي واقع الأمر، كانت تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها موسى خارج المدينة وهو بالتالي لا يعرف إلى أين سيتجه. بل إنه لم يحمل معه ما يقتات به في هذه الطريق. فأرسل اللّه تعالى إليه جبريل عليه السلام يدله إلى طريق مدين. وكانت مدين في ذلك الزمن تبعد مسافة ثمانية أيام عن مصر.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (القصص، ٢٢)



يروى أنه كانت هناك صلة من القرابة بين أهل مدين وموسى عليه السلام. علماً أن كلاً من موسى عليه السلام وأهل مدين هم جميعاً من نسل إبراهيم عليه السلام. بل إن مدين هو اسم لأحد أبناء إبراهيم عليه السلام وهي مكان لم يكن يخضع لسلطة الفراعنة.

وأخيراً، يصل موسى عليه السلام إلى مدين. وكان أهل المدينة يخرجون قطعانهم إلى خارج قلعة مدين. وكان على مقربة من المكان الذي وقف فيه موسى عليه السلام بئرٌ للماء. وكانت القطعان التي تخرج من القلعة تتجه إلى ذلك البئر. ولم تمض مدة بسيطة إلا والتف الجميع حول أطراف البئر كل يسقي لقطيعه. وتنبه موسى عليه السلام إلى امرأتين تنتظران بقطيعهما بعيداً وتحاولان أن لا يختلط قطيعهما بهذا الجمع. فذهب إليهما يسأل:

"- ما الذي تنتظرانه؟ ولماذا لا تسقيان قطيعكما؟"

فتجيبه السيدتان:

"- لا نستطيع سقاية قطيعنا قبل أن يذهب الرعاة!"

فيسأل موسى مجدداً:

"- أليس لكما من أحد؟"

فيجيبانه:

"- إن أبانا شيخ كبير لا حيلة له. ولهذا نحن من يقوم برعاية وسقاية هذا القطيع. ولأننا لا نريد أن نختلط بالرجال فإننا ننتظر



بعيداً على هذا الشكل إلى أن يذهبوا فنسقي قطيعنا. ولكن، ولأنهم هم أول من يسقي فإنه في بعض الأحيان ينتهي الماء قبل أن يصل الدور إلينا ويبقى قطيعنا بغير سقاية!"

يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص، ٢٣)

هاتان الفتاتان هما ابنتا شعيب عليه السلام وهما سفورة وسفيرة.

وعلى الرغم من الأيام الثمانية التي قضاها موسى عليه السلام جائعاً عطشاً، سحب الماء من هذه البئر وسقى قطيع سفورة وسفيرة. فشكرته السيدتان وذهبتا.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص، ٢٤)

وكان موسى عليه السلام جائعاً منذ أيام عدة لم يتناول شيئاً من الطعام. فكان يدعو اللّه في هذه الكلمات يرجوه أن يحسن إليه.

وقوله في الآية الثانية "إني لما أنزلت إلي من خير فقير!» هو أيضاً تفسير لمعنى الآية. فهو يشير بذلك إلى الوظائف الكثيرة التي أودعت إليه وإشارة إلى فقره الذي آل إليه في هذه الدنيا. فهو الذي



كان في جوار فرعون ينعم بالخير الكثير. ولكن هذه الأقوال لم تكن شكوى، وإنما هي شكر لله تعالى على ما من عليه من سلامة ومناجاة له سبحانه ليذهب ما به من الجوع.

وعندما يرى شعيب عليه السلام عودة بنتيه بشكل مبكر من سقاية القطيع يتعجب لذلك الأمر، ويسألهما عن سبب ذلك. فتخبره ابنتاهُ بأن رجلاً صالحاً لم يشاهدانه في البلدة من قبل أتى إليهما وقدم لهما المساعدة.

شعيب عليه السلام يدعو موسى عليه السلام إلى جواره

يدعو شعيب عليه السلام موسى عليه السلام إلى جواره ويسأله عمن يكون.

فيجيبه موسى عليه السلام بقوله:

«- أنا موسى بن عمران من نسل يعقوب عليه السلام.» وأخبره بما حدث معه من أمور.

فيقول له شعيب عليه السلام:

«- لا تخف! فهنا لا تنفذ أحكام فرعون!»

تقول الآية الكريمة:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدِيهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص، ٢٥)



ويقدم شعيب عليه السلام الطعام إليه. وعلى الرغم مما كان عليه من الجوع إلا أن موسى عليه السلام كان متردداً من تناول هذا الطعام. فيسأله شعيب عليه السلام عن سبب ذلك. فيقول له موسى عليه السلام:

«- نحن عائلة لو أعطيت لنا الدنيا بما فيها لا نغيرها بعمل واحد من أعمال الآخرة! فأنا لم أقدم مساعدتي طلباً لهذا الطعام، بل طلباً لمرضاة اللّٰه سبحانه»

فَيُسَر شعيب عليه السلام لهذا الرد ويقول:

«- طعامنا هذا ليس جواباً منا على مساعدتك بل؛ هو لأنك من ضيوفنا؛ هيا فكل!.»

وهكذا، تناول موسى عليه السلام طعامه بعد كل هذا التعب والجوع، ومن ثم اعتكف للإستراحة.

وتوصي سفورة أباها باستئجار هذا الرجل فتقول:

﴿قَالَتْ إِحْدِيهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص، ٢٦)

وتضيف:

"- إن هذه الصفات موجودة في هذا الرجل. لأنه لم ينظر حتى إلى وجهينا. وكان يسير في طريقه بعيداً عنا. وهو ما يدل على أنه رجل أمين جداً!."

وهنا نجد أن هذا الحديث قد أوضح بشكل مختصر وجميل جداً ما يجب علينا أن نطلبه من الخصائص فيمن نرغب بتوظيفه:

١. **اللياقة**: أن يكون على دراية بالعمل، ويملك القوة لتنفيذه.

٢. **الأمانة**: أن يكون موثوقاً وصحيحاً.



بحسب الرواية المذكورة في كتاب عرائس المجالس:

«المتميزات في فراستهن من النساء اثنتان. فكلاهما أصابتا في تشخيصهما حول موسى عليه السلام بفراستهما:

الأولى كانت آسيا زوجة فرعون. (فهي التي مال قلبها إلى موسى عليه السلام عندما أتى إلى القصر في الصندوق فحملته إلى فرعون وقالت: فليكن قرة عين لي ولك، فلا تقتله!.)

والثانية كانت ابنة شعيب عليه السلام. (فهي أيضاً): «يا أبت، استأجره ليرعى لنا أغنامنا. فهو خير من استأجرت، قوي وأمين!»

الفراسة؛ هي الاستنتاج الناجح الذي يأتي لدى الصالحين من المؤمنين، وحالة الكشف لديهم. أي، أن الفراسة التي تعني الذكاء والتفكير والاستنتاج هي قابلية الادراك المعنوي لما يحدث في القلب.

يرى عثمان بن عفان ﵁ رجلاً مالت عينه إلى الحرام فيقول له:

«- غض بصرك عن الحرام!»

فيقول له الرجل:

«- يا أمير المؤمنين، وما أدراك أنني أنظر إلى الحرام؟»

عن أبي سعيد الخدري ﵁، قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

"اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ...!" (الترمذي، التفسير، ١٥/ ٣١٢٧)

وأيضاً، يرى أبو حنيفة شاباً يتوضأ فيقول له:

"- لا تقم بهذا الخطأ وهذا!."

فيلتفت الشاب إلى الإمام أبي حنيفة ويقول:

"- يا إمام! كيف عرفت أنني أقوم بهذه الأخطاء؟"

فأجابه الإمام أبو حنيفة:

"- من قطرات ماء الوضوء المتساقطة!"

وكانت كل من سيدتنا خديجة وعائشة وفاطمة رضي اللَّه عنهن جميعاً من أمهاتنا ذات الفراسة دائماً.

فكانت سيدتنا خديجة من فدت مالها وروحها في سبيل رسول اللَّه ﷺ وأول من حظي بشرف الإيمان به في الدنيا. وكانت سيدتنا عائشة ﵂ تمتلك قوة فهم رسول اللَّه، وقابلية حفظ ما يقوله ﷺ،

وصاحبة مشاعر وحس عميق يمثل أخلاق النبوة. أما سيدتنا فاطمة فكانت تعكس رحمة أبيها، وصاحبة حال من التقوى والشفقة. وهكذا، وعلى الرغم من الصفات المشتركة لهن جميعاً، فقد كانت لكل واحدة منهن أحوال متميزة ومختلفة تميز كلّاً منهن عن الأخرى.

ومن شروط الفراسة أن يكون الرزق حلالاً وأن يكون القلب منكشفاً على الحياة.

يقول الواسطي رضي الله عنه:

«الفراسة هي انعاس لشعاع النور في القلب. وهي المعرفة التي تسكن القلب، (أي معرفة اللَّه تعالى قلباً، وإدراكه قلباً والتقرب إليه). وعبر هذه المعرفة تصبح أسرار الغيب مكشوفة عياناً...»

ويعبر مولانا جلال الدين الرومي -قدس اللَّه سره- في كتابه المثنويُّ عن سر المعرفة بقوله:

«على الرغم من نجاحه في تسيير الأمور الدنيوية، إلا أن القلب بضرورة ماهيته، يبقى عاجزاً عن الوصول إلى الحقيقة، والأسرار الإلهية، أي عاجزاً عن الوصول إلى معرفة اللَّه.

وللتوصل إلى هذه الرحلة العلوية فإنه يحتاج إلى وسيلة. وهي الوجدان، العشق والوجد والاستدراك. قليكن العقل فداءً للمصطفى!.»

ويسأل أحد الشباب عبد الخالق كجدواني، أحد أولياء الله الصالحين، بقوله:

«ما هو سر الحديث: **"اتقوا فراسة المؤمن! فإنه ينظر بنور اللَّه...!"** (الترمذي، التفسير، ١٥/ ٣١٢٧)

فيجيبه عبد الخالق الغجدواني بقوله:

«– أخرِجْ الحزِامَالذي في وسطِك! (أي إنزع عنك علامة الكفر التي يعلقها المسيحيون!) وأسلم!...»

وأمام هذه الكرامة المليئة بالفراسة، يقف هذا الشاب أمامه ناطقاً بالشهادة ويسلم.

وهنا، يلتفت الإمام إلكجدواني إلى إخوانه ويقول:

«– ولنخرج نحن أيضاً الحزام الذي نضعه على قلوبنا!»

وحزام القلب هو الكبر والغرور والحسد والبخل والغيرة وغيرها من الأمور التي تدخل القلب من الأخلاق السيئة.

زواج موسى عليه السلام بسفورة

يعجب شعيب عليه السلام بموسى عليه السلام كثيراً. ويرغب بأن يبقيه إلى جواره. ففكر بحل. وأخيراً عرض عليه أن يزوجه ابنته سفورة. وعندما سأل موسى عليه السلام عن كيفية حصول ذلك، أخبره شعيب عليه السلام بأن عليه أن يعمل لديه ثماني سنوات متتالية يهتم فيها بغنمه وعندها

سيزوجه ابنته. وأخبره بأن من الأفضل أن يمد بهذه السنوات لتصبح عشراً. وهدفه من ذلك هو إبقاء موسى عليه السلام بجواره أكبر فترة ممكنة. ويروي القرآن الكريم تفاصيل هذا الحوار بقوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القصص، ٢٧)

﴿قَالَ ذٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (القصص، ٢٨)

تتحدث هذه الآيات الكريمة وتلفت الإنتباه إلى شأن إجتماعي نتعرض له كثيراً في حياتنا الاجتماعية. فعلى الرغم من أن هذا الحوار هو بين أكثر الخلق ثقة بين الناس لكونهما نبيين من أنبياء اللَّه، إلا أنهما وعند اتفاقهما على شأن ما، تداورا بينهما ما يمكن أن يتعرضا له من أمور محتملة في بداية الأمر بشكل مفصل ومن ثم توصلا معاً إلى القرار.

وفي نهاية الأمر توكلا على اللَّه تعالى وأشهداه على ما كان بينهما من اتفاق.

وبالفعل، بدأ موسى عليه السلام بوظيفته فكان يرعى قطيع شعيب عليه السلام كما كان بينهما من اتفاق.

ويروى أن موسى عليه السلام عند رعايته للغنم لم يكن يضرب أي منها بعصا ولم يؤذ أحداً منها ولم يترك أحداً منها على جوع. وأرسله اللّٰه تعالى نبياً إلى بني إسرائيل، وتكلم إليه. ومن بعد النبوة أيضاً أكمل موسى عليه السلام رعايته للغنم، وحفظ أمته من الكثير من الأذى.

إن من لا يتعامل بشفقة ولا رحمةٍ مع خلق اللّٰه عز وجل، لا يمكن له أن يكون قريباً من اللّٰه. ومن أعز خلق اللّٰه وعاملهم بشفقة ورحمة، نال الرفعة والدرجات العليا التي لا ينالها إلا أهل الحق.

ورعاية الغنم هي من الأعمال الأكثر شهرة بين أنبياء اللّٰه الذين عمل معظمهم بها في فترة من فترات حياتهم.

وقد يكون هذا الأمر لمشيئة من اللّٰه تعالى بأن يعلمهم حس المسؤولية الضرورية في الإدارة، والشعور بضرورة تأدية حق هذه الوظيفة، وبعض الخصائص المهمة مثل الشفقة والرحمة.

ويلهم اللّٰه تعالى موسى عليه السلام بأن يضرب بعصاه الأرض كلما أراد أن يسقي الغنم فيخرج الماء من الأرض إلى أن يشرب كل هذا القطيع. ولهذا، وأمام هذا اللطف الإلهي، لم يكن موسى عليه السلام يواجه صعوبة في سقاية الغنم.

وأخيراً، يكمل موسى عليه السلام سنواته الثمانية من العمل في رعاية الغنم. فيقوم شعيب عليه السلام بهدية القطيع إلى موسى وابنته.

ولكن موسى عليه السلام يكمل خدمته إلى أن يتمها بالسنة العاشرة. وكانت الغنم تلد كل سنة عدداً قليلاً من الغنم المبرقع الأكثر قبولاً. أما في هذه السنة العاشرة ولدت جميع هذه الأغنام توائم وكانت جميعها مبرقعة. فيقول شعيب عليه السلام:

"- هذا إكرام من اللّه تعالى إلى عائلة موسى!."

عصا موسى عليه السلام

كان لموسى عليه السلام عصا في يده يستخدمها لحماية قطيعه من الحيوانات المفترسة. وكان أحد أطرافها مالساً ليمسك به والطرف الأخر محدب مسنون.

وهناك روايات مختلفة عن المكان الذي أتت منه هذه العصا.

فبحسب إحدى الروايات، فإنه قد تم تناقلها من آدم عليه السلام وصولاً إلى شعيب عليه السلام. ومن ثم قدمها شعيب عليه السلام لموسى ليهش بها على غنمه.

وكان المكان الذي يقيمون فيه متوسطاً الجبل من ناحية اليمين، والسهل من ناحية الشمال. وكانت المنطقة الجبلية مسكناً للحيوانات المفترسة وكان بإمكانها تقطيع الغنم. ولهذا، لم يكن موسى عليه السلام يدع عصاه من يده أبداً. ولقد كانت هذه العصا وسيلة للعديد من المعجزات الخاصة بموسى عليه السلام. وكأن هذه المعجزات الصغيرة كانت تحضيراً لما سيكون معها من معجزة كبرى.

العودة من مدين إلى مصر ووادي طوى

بعد أن قضى موسى عليه السلام سنواته العشر في خدمة شعيب عليه السلام، استأذنه بالعودة مع زوجته سفورة إلى مصر. فأخذ قطيعه معه وانطلق مع أهله في موسم الشتاء عائداً إلى مصر. وكان هدف موسى هو أن يذهب للقاء أخيه هارون فيخرجه من مصر المكان الذي كان مرتعاً يظلم فيه بنو إسرائيل.

وبينما هم في الطريق، هبت عاصفة ممطرة شديدة. وكان ذلك يوماً من ايام الشتاء. وكان كل شيء معتماً كسواد الزفت. فالتجؤا إلى وادي الطور المبارك لقضاء الليل فيه.

ودخلوا إحدى المغارات فيه. وكانت امرأة موسى عليه السلام حاملاً وعلى وشك الولادة. ولهذا، كانوا بأشد الحاجة إلى الضوء والنار في هذه الليلة المظلمة، الباردة والممطرة. وكان موسى يحاول إشعال النار فلا تشتعل.

وبينما هو على هذه الحال، إذ به يرى ضوءاً يشع من بعيد. فيخبر أهله بأنه ذاهب إلى مكان هذا الضوء عله يأتيهم منها بنار تساعدهم، وشدد عليهم التنبيه بأن لا يغادروا هذا المكان. ولكنه لم يكن يعلم أن هذا الضوء الذي رأى إن هو إلا إشارة

لتحضيره للنبوة. يقول اللّه ﷻ في القرآن الكريم:

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص، ٢٩)

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طه، ٩ – ١٠)

وذهب موسى عليه السلام باتجاه هذا الضوء. وعندما وصل إلى هناك، وجد شجرة خضراء عليها سلسلة من الضوء الذي يلمع.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي ٱلْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص، ٣٠)

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلوةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ اتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ (طه، ١١ – ١٦)

وقد حاول المفسرون تفسير معنى قوله تعالى «إخلع نعليك!» بالعديد من الأمور بإعطائها معان إشارية[٣]. ومن هؤلاء المفسرين كان للقُشيري في كتابه لطائف الإشارات، وللبرسوي في كتابه روح البيان هذا التفسير:

"إن النعلين يمثلان الدنيا والآخرة"

"أي أفرغ قلبك من المشاغل المتعلقة بالدنيا والآخرة! وتجرد من كل شيء في سبيل الحق، وانظر إلى معرفة اللّٰه[٤] ومشاهدته!.."

إن حدود إدراك البشر محدودة. ولا يمكن بهذا الإدراك المحدود فهم العظمة الإلهية التي لا نهاية لها وأسراره بشكل كامل ولائق. ولهذا، فإن وظيفة العقل النهائية هي التسليم.

ويصور مولانا قدس اللّٰه سره حدود العقل بهذا المثال فيقول:

«إن الرجل المريض لا يمكنه بعقله إلا أن يذهب إلى الطبيب.

---

٣. يقصد بالتفسير الإشاري هو أن يتخطى المفسر المعنى الظاهري للآية الكريمة ويخوض في دقائق المعاني التي يمكن أن يستخلصها منها. وللتفسير الإشاري أوصاف ثلاثة تشترط فيه:
أ- الحفاظ على المعنى الظاهري.
ب- أن تكون هناك من الأمور الضمنية (إشارات معينة) التي يمكن أن تشكل دليلاً على هذا المعنى الإشاري.
ج- أن يكون هذا التفسير غير مخالفاً لما هو واضح في القرآن والسنة.

٤. معرفة اللّٰه تعالى قلباً ومحبة.



وتنتهي وظيفة عقله عند وصوله عند باب الطبيب ومن ثم يبدأ معه حال التسليم لتوصيات هذا الطبيب. وبنفس الطريقة، إن طريقة نيل معرفة اللّٰه تعالى هي بكبر نسبة هذا التسليم.»

وبكلمة أخرى، إن أمر اللّٰه تعالى لموسى عليه السلام بأن «اخلع نعليك» هو بهذا المعنى: «تجرد من النفس والطبيعة! واترك التفكير بكل شيء يربطك بنفسك؛ وتعال!»

«أقلع عن تفكر المجنون! لأنه لا فائدة من ذلك بعد الرؤية والعيان، أي المشاهدة بالعين!»

ولهذا السبب، بعد أن توصل الإمام الشبلي إلى معرفة اللّٰه تعالى، تخلص من ألفاظ الكتب، وبدأ يعيش نشوة الوصول إلى المعاني المبهرة التي يصل إليها بمعرفة اللّٰه والمشاهدة.

❁

أمر اللّٰه تعالى موسى عليه السلام بأن «إخلع نعليك» في الوادي المقدس طوى. لأنه كان هناك في حضرة اللّٰه تعالى وأمام شعاعه، وهو الأمر الذي يستدعي عدم دعسه بقدمه هناك وهو يلبس حذاءه. كما أن سيره هناك حافياً هو أنسب أنواع التواضع والأدب.

يقول مولانا قدس اللّٰه سره:

« سألت عقلي «ما الإيمان؟». فمال عقلي تجاه أذني وهمس لها: «الإيمان عبارة عن الأدب!».



ولهذه الأسباب، مشى خيرة أمة محمد من أمثال البشر حافي وأمثاله من الكرام حفاة على أقدامهم. كما كان السلف الصالح يطوفون حول الكعبة حفاة على أقدامهم أيضاً.

كما أن أمر خلع النعل في الأماكن المقدسة هو لإفادة موسى عليه السلام من بركة هذا المكان المقدس وتشريفاً له فيه.

ولكن، ويا لها من حكمة أن يُخَاطَبَ رسول اللَّه ﷺ في ليلة المعراج فَيُقَال له على ذمة الراوي:

«يا حبيبي! فلتمش على شعاع العرش بنعليك فيشرف العرش بتراب نعليك، وينال نور العرش نعمة اللقاء بك.» (إسماعيل حقي برسفي، روح البيان، جـ ٥، ٣٧٠)

النبوة المعطاة بمعجزتين كبيرتين

بعد أن خاطب اللَّه تعالى موسى وأمره بأن يخلع نعليه، عاد وأمره بأن يلقي عصاه. فتتحول هذه العصا إلى حية كبيرة. يخاف موسى عليه السلام. فيقال له بأن لا يُخفْ وأنَّك في أمن وحفظ من اللَّه تعالى.

يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (القصص، ٣١)



قبل ذلك الوقت، كانت عصا موسى عليه السلام حكمة، ولكنها انقلبت الآن إلى قدرة. فكانت قدرة تسنده عندما كان لا يستطيع حملها!.. وعندما كان موسى عليه السلام يعجز عن المسير ويتعب كان يعتمد عليها في سيره. وكانت تحميه من الأذى والضرر حينما يجلس أو ينام. وكانت تعطيه من مختلف أنواع الفاكهة. وتظله عند الحر فتكون له ظلاً. فكانت قدرة اللّٰه تعالى تتجلى لموسى عليه السلام من خلال هذا العصا. وكان موسى عليه السلام يأنس بقدرة اللّٰه تعالى بواسطة هذه العصا. (عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص١٩٢)

وعندما كلم اللّٰه تعالى موسى عليه السلام وأخبره بنبوته، وكلفه بما كلفه من أمور، قال له يخاطبه بقوله تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه، ١٧)

فيجيبه موسى عليه السلام بقوله:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (طه، ١٨)

فيأمره اللّٰه تعالى بإلقائها بقوله:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ (طه، ١٩)

ويستجيب موسى عليه السلام مباشرة لأمره تعالى:

﴿فَأَلْقِيهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (طه، ٢٠)



وعندما رأى موسى عليه السلام هذا المشهد بدأ بالهرب. ولكن:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلأُولَى﴾ (طه، ٢١)

ويفسر عبد القادر الجيلاني هذه الآيات الكريمة بقوله:

«القصد من الأمور التي تم بيانها في هذه الآيات الكريمة، هو أن يتعرف موسى عليه السلام على قدرة اللَّه تعالى. وهو الأمر الذي سيخفف قيمة وقدرة سلطنة فرعون فلا تراها عيناه كبيرة أو قادرة!

وفي غاية إلهية أخرى، يهدف اللَّه تعالى بهذا الأمر إلى تحضير موسى عليه السلام لمحاربة فرعون وقومه. فحضَّر اللَّه تعالى موسى عليه السلام بهذا الشكل ليحارب فرعون وأهله، وسلحه عليه السلام بأمور خارقة للعادة. علماً أن موسى عليه السلام كان قبل ذلك خجولاً. ومن ثم وسع اللَّه تعالى في صدره. وأعطاه النبوة والعلم.»

وبحسب بعض المفسرين، فإن ما تم بيانه من آيات كريمة تتحدث عن إلقاء موسى عليه السلام لعصاه إن هي إلا أمور وحوادث كانت على شكل إرشاد لموسى عليه السلام في دنياه الداخلية.

إن ما ذكره موسى عليه السلام من إضاحات تتعلق بأمور دنيوية يقوم بها من خلال عصاه إجابة لسؤاله تعالى: «وما تلك بيمينك؟» هي أمور أمره اللَّه تعالى بإلقائها بإلقائه لهذه العصا. فالنفس وما يتعلق بها من أمور، هي أمور تمثلت له على شكل حية كبيرة. وبهذا شاهد

موسى ﷺ حقيقة النفس. فخاف وارتجف وهرب منها. ومع كل هذه الأمور، كان هذا الأمر وكأنما قيل له:

«يا موسى! هذه الحية إن هي إلا وصف للأمور التي يتعلق بها الإنسان من غير اللّٰه تعالى. وهذا الوصف النفسي هو عندما يصور لصاحبه بشكل حسي ملموس، يصبح أمراً يخاف منه المرء ويهرب.»

ومن المعاني الإشارية الأخرى المتمثلة بأمره تعالى: «ألق عصاك!» هو:

«لقد أصبحت الآن موصوفاً بصفة التوحيد. فكيف يمكن أن يكون مقبولاً أن تعتمد على أمر فانٍ في هذه الحياة فتطلب منه العون وتعتمد عليه في أمورك فتعتمد على هذه العصا وتثق بها؟ فكيف يمكن أن تقول بأنني أفعل بهذه العصا كذا وكذا، وأستفيد منها، وأن لي فيها من المآرب الأخرى؟ إن الخطوة الأولى في طريق التوحيد هي ترك الأسباب والتوكل المطلق والتسليم. وأن اترك كل أنواع الطلبات والرغبات!.»

لقد تمكن إبراهيم ﷺ من النجاة من الإضافات في هذه الدنيا عندما استغنى عن كافة المساعدات الفانية بما فيها الملائكة. فسلم ونجا برداً وسلاماً من النار سابحاً في محيط التسليم والتوكل للحق وحده.

يتحدث كتاب التأويلات النجمية عن هذه الأمور بقوله:

«إن من يسمع نداء الحق ويرى نور جماله، ليترك كل شيء يعتمد عليه غير اللَّه وحده. فلا يعتمد على أي شيء غير فضل كرم اللَّه. ويتخلص من رغبات نفسه.»



ويقول رسول اللَّه ﷺ:

"علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل!" (عجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٧٤/ ١٧٤٤)

وقوله ﷺ «كأنبياء بني إسرائيل» إن هو إلاّ تكريم ولطف منه بعلماء أمة محمد ﷺ.

وينقل أحد أولياء اللَّه ﷻ الشيخ أبو الحسن الشاذلي إحدى رؤاه الصالحة التي تتعلق بهذا الشأن فيقول:

«يجلس رسول اللَّه ﷺ على عرش، ويلتف من حوله بقية الأنبياء. ويلتف حول الأنبياء العلماء الصالحون. وجلست أنا أنظر إليهم وأستمع إلى أحاديثهم.

ويتجه نبي اللَّه موسى عليه السلام إلى الرسول ﷺ سائلاً:

«يا رسول اللَّه! كنت قد قلت «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل». فهل لك أن ترينا الآن واحداً منهم؟»



فيشير رسول اللّٰه ﷺ إلى الإمام الغزالي ويقول:

«هذا!»

فيسأل موسى عليه السلام الإمام الغزالي سؤالاً. فيجيب عليه الإمام الغزالي بعشرة إجابات. فيعترض موسى عليه السلام على الأجوبة ويقول بأنها غير مناسبة لهذا السؤال، لكونها إجابات عشرة لسؤال واحد. فيقول الإمام الغزالي:

«- هذا الإعتراض هو أمر وارد بالنسبة إليكم أيضاً. لأن اللّٰه تعالى عندما سألكم «وما تلك بيمينك يا موسى؟» كان ردكم عليه عوضاً عن أن يكون «هذه عصاي» هو رد فيه الكثير من الصفات الأخرى!..»

ويكمل الشاذلي –قدس اللّٰه سره– رؤيته فيقول:

«وبينما كنت أنظر بحيرة وعجب إلى رسول اللّٰه ﷺ وعظمة قدره وكونه على العرش والأنبياء ملتفون من حوله جلوساً على الأرض، إذ بأحدهم يضربني برجله ضربة أعود بها إلى رشدي. فإذا به الْقَيِّمُ الذي يقوم بإشعال مصابيح المسجد الأقصى. فيقول لي:

«- لا تعجب! فكل شيء خلق من نور المصطفى محمد ﷺ.»

وعندما سمعت ذلك وقعت مغمياً علي. ولم أستفق إلا بعد أن صلى الناس صلاة الجماعة. فأسرعت أبحث عن القيم. ولكني لم أجده حتى هذا اليوم.» (راغب الأصفهاني، المستدرك)



وفي معجزة ثانية إلى موسى ﵇، يأمره اللّٰه تعالى بوضع يده في حضنه يعني جنبه. فينفذ موسى ﵇ هذا الأمر الإلهي فإذا بيده تخرج خالية من العلل والأمراض؛ سليمة مضيئة كضياء الشمس في بياض ناصع. فكأنها أصبحت مثل شعاع الضوء. فتعجب موسى كثيراً. فقيل له:

"– إن أتى إليك أو إلى أحد آخر خوف من رؤية يدك على هذا الشكل فأرجعها إلى جضنك مرة أخرى تخرج كما كانت عليه في السابق!"

ويروي القرآن الكريم تسلم موسى ﵇ معجزة «اليد البيضاء» (ناصعة البياض، تلمع) التي أعطيت إلى موسى ﵇ بقوله تعالى:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (طه، ٢٢ – ٢٣)

﴿اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (القصص، ٣٢)

وهكذا، كلف اللّٰه تعالى موسى ﵇ بالنبوة بإعطائه كلاً من هاتين المعجزتين الكبيرتين. وطلب منه الدعوة إلى الدين. وبداية لهذه الدعوة كان على موسى ﵇ أن يذهب إلى فرعون أولاً:

﴿**اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾ (طه، ٢٤)

وأمام هذا الأمر:

﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**﴾ (القصص، ٣٣)

ومن ثم طلب من اللّه تعالى أن يكون أخوه هارون له سنداً وعوناً:

﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**﴾ (القصص، ٣٤)

﴿**قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ (القصص، ٣٥)

وبحسب إحدى الروايات:

عندما أمر اللّه تعالى موسى عليه السلام بقوله: ﴿**إذهب إلى فرعون، إنه طغى..**﴾ (طه، ٢٤) يسأل موسى عليه السلام ربه بأن لا أحد لديه في ظاهر الأمر يمكنه أن يستأمنه على عائلته وماشيته فيقول:

«- يا ربي! وما الذي سيحل بأهلي وماشيتي؟»

فيجيبه اللّه تعالى مذكراً بأنه «هو خير الحافظين» ويقول له:

«- يا موسى! ما الذي تريده بعد أن وجدتني؟ أسرع إلى تنفيذ أمري! وارتبط بي وسلم أمرك إلي! فإن شئت جعلت الذئب راعياً للغنم، وملائكتي حفظاً لعائلتك.

يا موسى! ما هذا الذي تفكر فيه؟ من ذا الذي أنقذك عندما ألقتكَ أمك في اليم؟ ومن ذا الذي أعاد إليها مرة أخرى؟ ومن ذا الذي حافظ عليك عندما قتلت نفساً وأحاط الناس بك وأمر فرعون بإحضارك وقتلك؟..»

وكان موسى عليه السلام يستمع إلى هذا القول ويجيب في نفس الوقت على كل سؤال منها بقوله:

« أنت، أنت، أنت يا ربي!» (أُنظر: أحمد الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع اللّه، ص ٣٣٧)



ويأتي موسى عليه السلام إلى مصر. وكان يعتقد بأن لفرعون جيش كبير. فيوحي إليه تعالى بأنه وأخاه:

"أنتما جيشان كبيران من جيوشي! فلا تضعفون ولا تهزمون!"

وأمام هذه الوظيفة الكبرى توجه موسى عليه السلام إلى اللّه تعالى ليخفف عنه وطأة هذا الأمر بالتضرع والدعاء فقال:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا. وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا. إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا. قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (طه، ٢٥ – ٣٦)

ومن ثم، يذكر اللَّه تعالى موسى عليه السلام بما من عليه من النعم والحفظ الإلهي بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى. إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه، ٣٧ – ٣٩)

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (طه، ٤٠)

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي. اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (طه، ٤١ – ٤٣)

❁

وعلى الرغم من كون موسى وهارون أنبياء لله تعالى، فإن أمر اللَّه تعالى لهما بذكره لهو إشارة كبيرة إلى أهمية هذا الأمر الكبير لنا أيضاً. فتربية القلب هي أمر ضروري لكل مؤمن. فكما أن القلب هو مركز لجوهر الإيمان، فإن القلب أيضاً هو مركز جوهر الذكر. فإن احتل الذكر مكانه في القلب، فإنه يكون مكاناً للوصول إلى السعادة الحقيقية.

يقول اللّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿اَلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

كما تبين الآية ٢٨ مِن سورة النساء، فإن الإنسان خلق على الضعف. فإذا ما ازدادت المشاعر الدينية في القلب، ابتعدت الرغبات النفسية عنه. فالدين لا يريد أن يرى الإنسان بشكل ظاهري بحت فقط. فالإنسان هو مخلوق مكرم.

ولهذا يجب عليه أن يرتقي في مراتبه. ودون نفخ الحياة في القلب، فلا إمكانية للحصول على إنسان مسلم رقيق حساس ومرهف. ولهذا، فإن اللَّه تعالى لا يرضى للعبادة أن تكون شكلاً ظاهرياً فقط. فهو يريد الصلاة مثلاً أن تكون صلاة يؤديها العبد بتيقظ قلبي وخشوع.

تقول الآية الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلوتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون، ١ – ٢)

أما الصلاة التي يؤديها العبد بعيداً عن الخشوع (أي بعيداً عن الميول القلبية) فإنها صلاة لا يقبل بها اللَّه تعالى. تقول الآية الكريمة:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. اَلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلوتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون، ٤ – ٥)



كذلك الأمر، يتحدث اللَّه تعالى عن الذين لم تترفع أرواحهم بذكره فيقول عنهم:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر، ٢٢)

علماً أن القلب الممتليء بأحمال الأمور الدنيوية والذنوب من الأمور التي تدعى بالكثافة الثقيلة، فإنه قلب لا يمكن له التقرب من اللَّه تعالى ولطفه. ولهذا، فإن الذكر هو ضرورة تحمي القلب من الآفات النفسية.

❁

يلتقي موسى عليه السلام بأخيه هارون عليه السلام على ضفاف نهر النيل ويتعانقانِ. فيقول موسى لأخيه هارون:

"- هيا فلنذهب إلى فرعون! فاللَّه تعالى قد كلف كلاً منا بذلك..."

ومن ثم يتوجهان معاً بالقول:

﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى. قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه، ٤٥ - ٤٦)

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء، ١٦ - ١٧)



ولكن اللّٰه تعالى يوضح أيضاً كيفية الدعوة إلى هذا الأمر وما هي الأمور التي يجب مراعاتها بيقول تعالى:

﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه، ٤٤)

وعندما قرأ أحد أصحاب الحق ﷻ المدعو يزيد الرقاشي هذه الآية قال:

«– يا من أمر بالمعاملة بالرحمة حتى لمن عاداك يا إلهي! من يدري بماذا تعامل به من كان قريباً منك يدعو الناس إليك!»

وعلى الرغم من معرفة اللّٰه تعالى الإلهية المسبقة بصد فرعون عن الإيمان وعقيدة التوحيد، إلا أنه أمر موسى عليه السلام بأن يكون معه ليناً في خطابه وحديثه.

وهذا الأمر هو أمر إلى كل المؤمنين الذين يعملون في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بصيغة الخطاب إلى موسى عليه السلام. وفي هذا الشأن أيضاً، يتحدث القرآن الكريم إلى النبي محمد ﷺ واصفاً لين دعوته وأسلوبه في التبليغ إلى اللّٰه برحمة ولين وشفقة ومسامحة فيخبر اللّٰه جل جلاله في الآية الكريمة بقوله:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران، ١٥٩)

فرعون الأحمق

يذهب موسى وهارون عليهما السلام تلبية لأمر اللّه تعالى إلى فرعون. فيسأل فرعون موسى بقوله:

«– من أنت؟»

فيقول:

«– أنا رسول رب العالمين!»

فيتعجب فرعون في باديء الأمر. ولكنه بعد ذلك يبدأ بتعداد ما قدمه إلى موسى من أمور جيدة في السابق بكل غضبٍ ويقول متهماً موسى عليه السلام السلام:

«– لقد كبرت في قصري. وقتلت خباز قصري. فكيف بك الآن تأتي إليّ بهذا الشكل؟»

يروي القرآن الكريم هذا الحوار بقوله تعالى:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (الشعراء، ١٨ – ١٩)

فيجيبه موسى عليه السلام بقوله:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء، ٢٠ –٢٢)

ويكمل موسى عليه السلام فيقول:

"– بهذه الطريقة ظلمت؛ فباعدت بيني وبين أهلي! ولكن اللّه منحني العلم والحكمة. وجعلني نبياً."

ولكن:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ (طه، ٤٩)

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء، ٢٣)

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه، ٥٠)

ومن ثم:

﴿قَالَ رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الشعراء، ٢٤)

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ (طه، ٥١ – ٥٢)

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء، ٢٥ – ٢٨)

وفي نتيجة هذا الحوار، يحاول فرعون تهديد موسى وأخيه هارون عليهما السلام بالتعذيب والسجن الذي هو نوع من أنواع الموت فيقول مهدداً:

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (الشعراء، ٢٩ – ٣٢)

أمام ما رآه من معجزة، يتعجب فرعون ويخاف، وهو الذي كان يدعي الألوهية ويقول:

"- أرجوك أمسكها؛ لأتركن لك جميع بني إسرائيل!"

فيأخذ موسى عليه السلام عصاه في يده. فتعود كما كانت في السابق.

فيسأله فرعون: "- وهل من أمر آخر؟"

فيكون جواب موسى عليه السلام أن:

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الشعراء، ٣٣)

فيخاف فرعون مرة أخرى. وكاد أن يؤمن بنبوة موسى عليه السلام بعد ما رآه من هاتين المعجزتين. ولكنَّ وزيره هامان كان سبباً بمنعه عن ذلك. وحرضه بقوله: "- أنت إله! فلا يليق بك أن تعبد أياً كان غيرك! أضف إلى أن الجميع يعرف بأنك إله؛ فلا تنزلن من الألوهية إلى العبودية؛ ولنرَ حلاً لهذا الأمر!."

وفي سرعة البرق، جمعت هيئة من ٥٠٠ رجل وعقد اجتماع للتشاور:

﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الشعراء، ٣٤ – ٣٥)

مبارزة بين المعجزة والسحر

إن المعجزات التي تقدم بها موسى عليه السلام قد مزقت مشاعر الكبر لدى فرعون؛ فاضطر إلى ترك ما يدعيه من ألوهية ويتنزل إلى الأشراف من حوله في محاولة لأخذ المشورة منهم.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ (الشعراء، ٣٦ – ٣٧)

وفي تلك الفترة، كان السحر أمراً شديد الإنتشار. ولهذا قبل فرعون مباشرة بهذا الرأي.

يقول اللَّه تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى. قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ (طه، ٥٦ – ٥٨)

فيجيبه موسى عليه السلام بقوله:



﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى. فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (طه، ٥٩ – ٦٠)

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء، ٣٨ – ٣٩)

ويجتمع الناس جميعاً في يوم المبارزة هذه. وكان الناس يترقبون بكل شوق لما سيؤول إليه هذا التحدي.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الشعراء، ٤٠ – ٤٢)

ويسأل فرعون: "– هل يمكنكم أن تغلبوا موسى؟"

فيجيبه السحرة بقولهم:

"– نحن آخر ما توصل إليه السحر! فلا يوجد أحد في هذا العالم هو أعلم منا بأمور السحر! أي أننا نحن في أعلى القمة! فلا يمكن لأحد أن يغلبنا إن لم يكن لديه ما يسانده من قوة من السماء. فلا شك في أننا نحن أشد قوة وشدة!."

ويحذر موسى عليه السلام السحرة بقوله:

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (طه، ٦١)



وكان هذا التحذير سبباً في تفكير السحرة:

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى. قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (طه، ٦٢ – ٦٣)

وأمام هذا الأمر، يتجه موسى عليه السلام إليهم فيقول:

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (طه، ٦٤)

وبرغم من كل شيء، يظهر السحرة احتراماً وحرمة لموسى عليه السلام فيقولون:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى. قَالَ بَلْ أَلْقُوا...﴾ (طه، ٦٥ – ٦٦)

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ. فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (الشعراء، ٤٣ – ٤٤)

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (طه، ٦٦ – ٦٩)

فيستجمع موسى عليه السلام قوته. ويزول ما به من خوف:

﴿فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس، ٨١)

وكما توضح الآية القرآنية الكريمة، فإن السحر ليس إلا عملية خداع وفساد وحيلة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الأعراف، ١١٧)

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الشعراء، ٤٥)

سجود السحرة

ألقى السحرة أمام أعين فرعون وشعب مصر بضعة من الحبال والعصا. فبدأت تتحرك كما تتحرك الحية في حركاتها. ولكن، وعندما ألقى موسى عليه السلام عصاه بناءً للأمر الإلهي، كانت كالثعبان الضخم الذي تقدم وابتلع كل ما ألقوا من آلات السحر في وسط هذا الميدان. ففهم السحرة بأن هذا الأمر لا يمكن له أن يكون عملاً من الفن أو المعرفة البشرية، وإنما هو معجزة إلهية حقيقية. ذلك أنه لو كان سحراً لكانت تلك الحبال والعصي ستعود إلى مكانها بعد أن ينتهي مفعول هذا السحر. ولكن، إضافة إلى انتهاء مفعول ما قاموا به من سحر، اختفت جميع هذه الحبال والعصي.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف، ١١٨)



تلقف عصا موسى كل ما ألقى به السحرة من آلات للسحر دون أن يظهر عليها أي فرق في الحجم. ذلك أن اللّٰه تعالى أراد أن يظهر للسحرة أن هذا الأمر ليس عملاً من أعمال البشر وإنما هو من أمور القدرة الإلهية. علماً أن ما قام به السحرة من أمر لم يكن إلا عملاً من الأعمال التي تعتمد على الحيلة والسحر التي ليست إلا من أعمال البشر.

ولهذا، لم يكن ما أظهرته عصا موسى من حادثة إلا تجل واضح لقدرة اللّٰه تعالى وليس أي أمر آخر. ولهذا فإنها كانت تزيل كل حيل السحرة عادة. ولهذا، ولكي يفهم رئيس السحرة إن كان ما قامت به عصا موسى من أمر هو حيلة بشرية تعتمد على براعته البشرية، أم أنها قدرة سماوية خالصة، توجه إلى رفاقه منبهاً لهم بقوله:

"- بينما تتم هذه الأمور فلننظر بدقة إلى موسى لنرى كيف يكون عليه من حال؟"

ففعل أصحابه بما أشار لهم به. وتابعوا حالة موسى عليه السلام بكل دقة وحذر. وأخبروا بعد ذلك رئيسهم بحاله فقالوا:

"- بينما كانت تلك الأمور تجري، كان لون موسى عليه السلام يتغير. فهو من ناحية في حال من خشية اللّٰه ومشاهداً لظهور التجلي الإلهي، وكانت العصا من ناحية أخرى تقوم بما قامت به من وظيفة"

وعندما سمع رئيس السحرة هذا الأمر قال:

"- إذن هو تَجلّ من اللَّه، وليس من عمل موسى. ذلك أن الساحر لا يخاف من سحره. فهل يجاف الصانع من صنعته، بل إنه يقوم به بكل سهولة وراحة."

وبعد أن قال رئيس السحرة قوله هذا، آمن رئيس السحرة بنبوة موسى عليه السلام. وتبعه رفاقه من السحرة الآخرين فتشرفوا جميعاً بالإيمان. (عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص ٣٨)

يقول اللَّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الشعراء، ٤٦ - ٤٩)

ويوصف هذا الحال في آية قرآنية أخرى بقوله تعالى:

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (طه، ٧١)

إن الإتحاد والتعاون التي يُبْنَى على المنفعة ينتهي بانتهاء هذه المنفعة. فلو أن السحرة لم يؤمنوا واستمروا على دعمهم لفرعون،



لكانوا بقوا على ما هم عليه من القبول لديه، بل وربما كانوا ليسبحوا في بحر من النعم التي ستغدق عليهم. ولكن، وما إن رزقت قلوبهم نعمة الإنفتاح على الإيمان، لم يبق لديهم إلا النعمة الأبدية الباقية؛ تلك التي رجح السحرة قيمتها على النعم والراحة الفانية، أي المؤقتة، ولهذا، وأمام تهديد فرعون لهم:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هٰذِهِ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ (طه، ٧٢)

ومن ثم:

﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء، ٥٠)

ذلك أن تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف إن هو إلا عذاب ينتمي إلى هذه الدنيا الفانية. وما الجسد إلا ضحية ستلقى في التراب. ففي الجسد فناء، وفي الروح أبدية (أي لا نهاية). ولا يمكن ترجيح الفاني على الباقي. ولهذا السبب، وعندما رأى السحرة تلك المعجزات الواضحة، أظهروا لفرعون كما تروي لنا الآية الكريمة تصرفاً لم يكن فرعون ليتوقعه منهم:

"– إن ظلمك لا يصيبنا بالضرر، فظلم هو من فعل هذه الدنيا، أما السعادة في الآخرة فهي أبدية!."

ويكملون بقولهم:



﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه، ٧٣)

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء، ٥١)

ومن ثم يلتجئون إلى اللّه تعالى فيقولون:

﴿...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٦)

وهكذا، وبعد أن خرج السحرة صباح ذلك اليوم بهوية الكفر إلى تلك المبارزة، تحولوا بعد فترة وجيزة جداً إلى أفراد مؤمنين فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ونالوا رفعة الشهادة والولاء لله رب العالمين.

وهذه الحادثة التي كانت بين موسى عليه السلام والسحرة، قد تم ذكرها في القرآن الكريم بعبارات مختلفة متعددة من ناحية السياق والسباق في أربع سور مختلفة[٥].

ومما لا شك فيه أن هذه الحادثة التي حدثت لمرة واحدة، وذكرت في أربع مواضع مختلفة في القرآن الكريم، هي حادثة تحتوي في طياتها للعديد من الأسرار والحكم وهي من الأهمية بكثير.

٥. أنظر: الأعراف، ١٠٩ – ١٢٦؛ يونس، ٧٦ – ٨٢؛ طه، ٥٦ – ٧٣؛ الشعراء، ٣٤ – ٥١



ولكم هي عبرة كبيرة أن لا يدعو السحرة ربهم أمام ما تعرضوا له من الشدة بقولهم:

"- يا ربي! انقذنا من ظلم هذا الظالم!." بل صبروا أمام الجفاء والأذى الفاني وقدموا الروح لربهم مسلمين. علماً أنهم كانوا حتى اللحظة الآخرة من أنفاسهم في هذه الحياة قلقين من الوقوع في الضعف والتمكن من تسليم روحهم لله مسلمين ومؤمنين.

ويحدثنا القرآن الكريم عن الأنفاس الأخيرة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٢)

وسبيل الإمتثال لهذا التحذير الإلهي هو المعيشة حتى آخر نفس في هذه الحياة ضمن ما أشار إليه اللّه تعالى ورسوله الأكرم عليه الصلاة والسلام واللجوء إلى لطف اللّه تعالى دائماً. ويبين اللّه تعالى طريق المعيشة على الصراط المستقيم والوصول بين يدي اللّه تعال على هذه الحالة فيقول لنا في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد، ٧)

يروي مولانا جلال الدين الرومي تفسيره حول هذه القصة بتوضيح إشاري فيقول:

"إن السحرة بما أظهروه من رعاية واحترام ولياقة في بداية هذه المبارزة لنبي من أنبياء أولي العزم، وعبد عظيم مقرب من اللّه، لهو



أمر يدل على ميلهم نحو عقيدة التوحيد، ولكن خروجهم إلى مبارزة هذا النبي العظيم كان سبباً في عقابهم الذي آلوا إليه."

وبالفعل، إن هذا التعظيم المتواضع الذي أظهره السحرة لسيدنا موسى عليه السلام هو وسيلة واضحة أدت إلى اقترابهم من نافذة الإيمان والهداية. علماً أن الحب لمن يليق به والخصومة لمن يستحقها هي أمور مؤثرة استثنائية تزيد من الرفعة في هذه الحياة.

ويحلل مولانا جلال الدين الرومي قدس اللّه سره هذه الحادثة بوجهها العميق فيقول:

"يهدد فرعون الظالم والملعون السحرة بالموت لإيمانهم فيقول:

"لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف. ولأصلبنكم أجمعين."

وكان فرعون يعتقد أن السحرة عند ذلك سيخافون ويقلقون وترتجف أوصالهم ويخضعون لما يأمرهم به.

ولكنَّ فرعون لم يكن يعلم أن هؤلاء السحرة قد تخلصوا من الخوف والقلق، ووفقوا إلى الشعور بالحقائق والأسرار الإلهية.

فهم ولو ضربوا في فلك السماء مئة مرة وأصبحوا كحبات الطحين فهم أصبحوا على بصيرة من الأمر وأدركوا أهمية انفصال ظلهم عنهم."



(أي أنهم أدركوا أن الروح أصل والبدن هو مجرد ظل لا قيمة له، وبالتالي فهم باتوا تواقين للفداء بظلهم وصولاً إلى الأصل، أي الوصول إلى مرتبة "الفناء في اللَّه".)

(أيها الإنسان! إن هذه الدنيا هي عبارة عن نوم ورؤية. فلا يغرنك فيها الدبدبة ولا المسير! فإن قطعت فيها يدك أو قطع جسدك أجزاءً وأجزاء فلا تخف! فقد قيل فيها: "وما الحياة إلا عبارة عن حلم!".)

ماشطة فرعون

وكانت خادمة لابنة فرعون.

في إحدى الأيام، وبينما كانت تستعد لمشط شعر ابنة فرعون تلفظت بالبسملة. فسمعت الفتاة هذا الأمر فأسرعت لتخبر أباها بهذا الأمر.

فنادى فرعون الماشطة فوراً وسألها عما بدر منها من أمر. فأجابته بحماسة الإيمان الذي يعمر في داخلها بقولها:

«– أنت كما نحن فانٍ! فكيف لك أن تكون علينا إلهاً؟»

فيغضب فرعون كثيراً ويقول:

«– إذن، لقد آمنت أنت أيضاً لموسى، وأصبحت تابعة له، أليس كذلك؟»



ومن ثم بدأ بتعذيب هذه الماشطة رويداً رويداً. ولكنها برغم كل ما أصابها من تعذيب لم ترجع عما آمنت به من عقيدة.

وأمام هذا الإصرار، أحضرت ابنة هذه الماشطة ذات الخمس سنين أمامها وقيل لها تهديداً:

«- إن لم تقبلي بألوهية فرعون لنقطعن رأس ابنتك!»

ولكن الماشطة لم ترجع أيضاً عما آمنت به. وأخيراً، قتلت ابنتها أمام أعينها ومسح وجهها بدم ابنتها. ولكنها بقيت في حالة من العشق والوجد لله تعالى وقالت:

«- اللَّه واحد! اللَّه واحد! وموسى هو رسوله!.»

ويصل فرعون وأعوانه في غضبهم إلى أشده. فيأتون هذه المرة بطفلها ذو الثلاثة أشهر. ويمدون به إلى أمه. فيبدأ الطفل يبحث في صدرها عن الحليب ليشربه. فيبعدونه عنها ويقولون:

«- إن لم تتركي هذه الدعوة فإننا سنلقي بولدك هذا في الفرن!»

فتصبر الماشطة على هذا الألم أيضاً ولا تحيد بذرة عن إيمانها. فيلقى في نهاية الأمر طفلها ذو الأشهر الثلاثة في الفرن. ويروى أن هذا الطفل ينطق من بين النيران ويقول:

«- أمي، إياك وأن تحيدي عن الإيمان واصبري! فإني أرى بأنه لم يبق بينك وبين الجنة إلا خطوة واحدة!»



ويؤمن كل من سمع هذا القول بسيدنا موسى عليه السلام.

وأخيراً، تستشهد الماشطة وتذهب إلى جوار أولادها في الجنة.

وتروي لنا أحاديث السيرة النبوية الشريفة عن قصة ماشطة فرعون، فيروي لنا عبيد بن كعب رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ليلة أسري به وجد ريحاً طيبة فقال:

"يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ؟"

فقال جبريل عليه السلام:

(هَذِهِ رِيحُ قَبْرِ الْمَاشِطَةِ وَابْنَيْهَا وَزَوْجِهَا) (ابن ماجه، الفتن، ٢٣/ ٤٠٣٠)

استشهاد سيدتنا آسيا

بعد ما قام به فرعون من ظلم وقع بحق ماشطته، غضبت سيدتنا آسيا غضباً شديداً، بل وحقرت فرعون على ذلك. ففهم عندها فرعون أن سيدتنا آسيا قد آمنت هي الأخرى بموسى عليه السلام. فلم تشأ سيدتنا آسيا أن تخفي هذه الحقيقة بعد ذلك وقالت مقرة:

«– نعم، وأنا أيضاً آمنت برب موسى!»

يروى في هذا الشأن أن فرعون أمر بربط آسيا على أربعة أعمدة. وجعلها تستلقي على ظهرها. ومن ثم أمر فوضع عليها صخرة كبيرة. وأنالها الشهادة بعد أن ظلمها وعذبها بشتى الوسائل.

بينما كان موسى عليه السلام يمر بقرب إحدى أماكن التعذيب شاهد أنواعاً شديدة من العذاب الذي تلقاه سيدتنا آسيا. فالتفتت إليه سيدتنا آسيا لتشير إليه بدرجة الألم الذي تشعر به. فيدعو اللّٰه لها. وبهذا لم تعد تشعر منذ تلك اللحظة بأي نوع من أنواع الألم.

وفي رواية أخرى، تترك سيدتنا آسيا في وسط صحراء ملتهبة. فتأتي الملائكة لتكون لها ظلاً إلى أن تفارق الروح شهيدة بهذا الشكل. ويتحدث القرآن الكريم عنها بكل امتداح فيقول تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم، ١١)

وبحسب إحدى الروايات، فإن دعاء سيدتنا آسيا الذي ذكر في القرآن هو دعاء ناجت به اللّٰه تعالى خلال فترة التعذيب. فيأتيها الإلهام في تلك اللحظة يقول لها:

"- إرفعي رأسك!"

فترفع رأسها إلى السماء لترفع عن عينيها الغشاءة فترى قصراً من المجوهرات البيض يبنى لأجلها. فكانت تنظر إلى ذلك القصر بابتسامة لا تشعر فيها بأي نوع من أنواع العذاب.

ويتحدث سليمان الشلبي عن فضيلة سيدتنا آسيا وتواجدها خلال ولادة النبي محمد ﷺ مع الملائكة والحور العين ومباركتهم



جميعاً لآمنة أم الرسول عليه الصلاة والسلام:

هي آسيا المحبوبة

قالوا قدرك كابنك جميل

لم يعطوا للأم ذاك الجليل

القلعة

بينما كان موسى عليه السلام يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد، كانت أعداد المؤمنين في تزايد، وغضب فرعون وظلمه يتصاعد. فقام ببناء قلعة كبيرة. وكان يتم الصعود إلى هذه القلعة ركوباً على الحيوانات. وانتهى بناؤها في سبعة سنين.

وكانت غاية فرعون بحماقته أن يصعد إلى قمة هذه القلعة ليرى إله موسى! فهو لما كان عليه من بعد عن الإدراك بالتوحيد، كان يعتقد بأن الصورة الإلهية هي كما هو الحال بالنسبة للأشكال البشرية في هذا العالم، أي كما هي عقيدة الأنتروبومورفيك. وهو ما يعرف بإعطاء الأشكال للصفة الإلهية. كما كان الحال في العقيدة اليونانية التي جعلت للآلهة تصورات مختلفة؛ كإله الأرض وإله السماء وإله الحب وهكذا...

وكان يهدف من هذه القلعة أن يخرج إليها فيقول محاولاً بث الفتنة في القلوب:



«- نحن بما نمتلكه من قدرة وقوة وإمكانات وحضارة لم نتمكن من إيجاد إله موسى، فكيف صعد موسى إليه وأحضر إلينا أخباره!»

تقول الآية الكريمة:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّموَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ (غافر، ٣٦ - ٣٧)

يروى أن اللّه تعالى يأمر جبريل عليه السلام، فيضرب بجناحه هذه القلعة. فينقسم البناء إلى أجزاء ثلاثة. ويقتل خلال ذلك آلاف الجند. ويحترق كل من كان يحمي الطوب والقرميد.

وعندما لم يوفق فرعون في هذا الأمر أيضاً، ازداد حنقه وغضبه. ووصل ظلم الأقباط للأسباط إلى أقصى حد ممكن أن يصل إليه:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف، ١٢٧)



ويشتكي بنو إسرائيل هذا الأمر لموسى عليه السلام. فيوصيهم بالصبر:

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٨)

ولكن قومه يبدأون رويداً رويداً باتخاذ موقف من موسى عليه السلام. وكانوا دائماً ما يظهرون قلة الصبر ويسببون الأزمات لأنبيائهم. وذلك لكونهم من أصحاب التفكير المادي:

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف، ١٢٩)

وهكذا، يبين اللَّه تعالى ويشير إلى أن العاقبة والمستقبل هو من نصيب المؤمنين. وبينما كان الأقباط مستمرين في ظلمهم، يدعو موسى عليه السلام ربه طلباً لانتهاء هذا الظلم. فتبدأ العلامات بالظهور الواحدة تلو الأخرى تصيب قوم الأقباط بشكل متسلسل ومتتالٍ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَـذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف، ١٣٠ – ١٣١)

معجزات متفرقة

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٣٢ - ١٣٣)

وكان الأقباط عند إصابتهم بالعذاب يقولون لموسى عليه السلام "العالم الكبير!". وإذا ما زال عنهم عادوا لعصيانهم فقالوا "لقد كان أمراً عابراً."

وكان البلاء يصيبهم كلما وصل بهم الظلم إلى أقصى درجاته. فكان كما أخبرت الآية القرآنية بأن يأتي البلاء إلى مجتمع الأقباط كلما اشتد بهم الظلم فحلت عليهم العديد من المصائب والابتلاءات:

١. الطوفان:

كان اللّه تعالى يمطر السماء بغزارة. فتمتليء بيوت الأقباط بالماء. ويغرقون في الماء حتى رقابهم. وكان يغرق من يجلس منهم. ووصلوا إلى حال من الهلاك. ولم يكن يصيب الأسباط شيءٌ من ذلك.

فيسرعوا إلى موسى عليه السلام بقولهم:

«- يا موسى! ادع لنا ربك؛ فإن أبعد عنا هذا البلاء آمنا وسمحنا لك ولقومك بالرحيل.»



فيدعو موسى عليه السلام ربه. فينحسر الماء. وتبدأ مرحلة من الوفرة. فيعود الأقباط إلى عصيانهم ويقولون:

«- لم يكن هذا الماء عذاباً لنا، بل كان نعمة! وكان لا بد له وأن يزول! ولم يحصل أي من ذلك بدعاء موسى!.»

٢. الجراد:

بعد فترة من الزمن، يرسل اللَّه تعالى عليهم أسراب الجراد. فتأكل كل ما أنعم اللَّه به عليهم. ويتلف كل شيء. ولكنها لا تصيب من الأسباط شيئاً من الأذى.

فيأتي الأقباط إلى موسى عليه السلام مرة أخرى:

«- أيها العالم! أُدْعُ ربك؛ فإن أبعد عنا هذا البلاء آمنا بك وقبلنا بك!.» فيدعو موسى ربه ويذهب عنهم البلاء.

ولكن الأقباط يحنثون في عهدهم مرة أخرى عندما يصلون إلى راحة انقضاء هذا البلاء. فيعودون إلى ما كانوا عليه من الظلم والعصيان.

٣. القمل والبرغوث:

فيسلط اللَّه تعالى عليهم هذه المرة القمل والبرغوث. فتمتلئ أطباقهم بالبرغوث والقمل كلما أرادوا الطعام. وكان هذا الإبتلاءُ كبيراً. فأسرعوا مرة أخرى إلى موسى عليه السلام. فدعا ربه ونجوا مرة أخرى من ذلك. ولكنهم مالوا إلى العذاب مرة أخرى.

٤. الضفادع:

في هذه المرة، ذهب موسى عليه السلام إلى نهر النيل. فضربه بعصاه فخرجت جميع الضفادع منه إلى قلب مصر. فامتلأ كل شيء حتى أطباق الطعام بهذه الضفادع. فأتى الأقباط مرة أخرى إلى موسى عليه السلام وقالوا:

«- أيها العالم! إننا فعلاً نادمون هذه المرة؛ سنترككم إلى الأرض الموعودة (القدس)!.»

ولكن، وعندما رفع البلاء بدعاء موسى عليه السلام، عادوا إلى سابق عهدهم من الأفعال مرة أخرى.

٥. الدم:

ولما لم يرجع الأقباط مما هم فيه، حول اللّٰه في هذه المرة نهر النيل إلى نهر من الدم. فلم يجد الأقباط ما يشربون. أما بالنسبة للأسباط، فبقي نهر النيل على ما هو عليه من الصفاء فاستمروا بشربه واستخدامه. أما بالنسبة للأقباط فكان يتحول دماً. فعادوا مرة أخرى يهرعون إلى موسى عليه السلام فحجب عنهم هذا البلاء أيضاً.

ولكن الأقباط عادوا إلى ما هم عليه من العصيان مرة أخرى.



يوضح مولانا جلال الدين الرومي في كتابه المثنوي بأسلوب أهل التصوف حالة نهر النيل والدم بشكل جميل فيقول:



"يأتي قبطي يتلوى من الحرارة إلى منزل أحد الأسباط يرجوه بشدة: "- أنا صديقك وقريبك. وأنا اليوم في أشد الحالة إليك. إملأ لنفسك كأساً من النيل ليشرب اليوم صديقك القديم الماء من يديك! لأنك إن ملأتها لنفسك لا يخرج فيها الدم. وتكون صافية محمية من السحر."

ويسعى السبطي لحمل القبطي على فهم هذه المعجزة فيملأ كأساً من الماء من نهر النيل ويقربها من فمه ويشرب نصف ما فيها من ماء. ومن ثم يحول هذا الكأس إلى القبطي ويقول له:

"- هيا، إشرب!"

فيمد القبطي فمه بسرور إليه. ولكن الماء يتحول إلى الدم. فيعيد السبطي الكأس إلى ناحيته فيعود ماءً كما كان عليه.

فيغضب القبطي. ويجلس إلى أن يذهب غضبه.

ثم يقول للسبطي:

"- أيها الأخ! كيف لهذه العقدة أن تحل؟ وما هو سر ذلك؟"

فيجيبه السبطي قائلاً:

"- لا يمكن لأحد من الناس أن يشرب من ماء النيل الصافي والعذب إلا من آمن بيوسف عليه السلام. فإن تركت طريق فرعون ودخلت مع موسى عليه السلام في طريقه، فإنك عندها ستتمكن من الحصول على صفاء ولذة هذا الماء!."

ويكمل السبطي نصيحته إلى القبطي فيقول:

"- كن في صلح مع القمر ترى العجب!."

(والقصد هنا من القمر هو موسى عليه السلام؛ أما العجب فهو معجزة هذا النبي)

"- إن حقدك على عباد اللّٰه المخلصين، قد جعل منك أعمى وأصم فأغلق أطرافك بآلاف الستائر! فأصبحت تسير في وادي الكفر والضلال بشكل أعمى عن الحقيقة! فأذب كفرك الذي يشبه الجبال بالمغفرة ترى الهداية! فتأخذ أنت أيضاً نصيبك من كأس من حصل على المعرفة!

فكيف لك أن تتمكن من شرب ماء النيل حيلة واللّٰه تعالى حرم شرب هذا النهر على الكافرين؟ أيها القبطي! أهو من جرأة النيل أن يترك الأمر الإلهي ويكون ماءً للكافرين!..."



وأمام كل هذا التجلي:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر، ٢٦)

وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن فرعون أراد قتل موسى عليه السلام ولكن الجمع من حوله كان يمنعه عن ذلك.



لأن من حوله كان يقول لفرعون:

"– إنه ليس ذا شأن لتخاف منه. فأنت إله! علماً أنك إن قتله أدخلت الشبهة في قلوب الشعب! فيظن الجميع بأنك عاجز أمام معجزات موسى..."

كما أن قول فرعون هذا يظهر في الوقت نفسه درجة الخوف التي وصل إليها فرعون من قدرة موسى عليه السلام. وفي الواقع، كان فرعون يقبل ضمنياً في وجدانه بنبوة موسى عليه السلام. ولكن غروره وتكبره وعناده الأعمى كان يمنعه من الإيمان به.

وأمام أفعال فرعون هذه:

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (غافر، ٢٧)

ولهذا يعبر بعض المفسرين عن حكمة ترك فرعون للإيمان بعد كل هذا القدر من المعجزات من خلال هذا الدعاء الذي تكلم به موسى عليه السلام. وما يتحدثون عنه من أمور هي:

أ– ترك الإيمان بالآخِرة.

ب– التكبر الشديد.

علماً أن المتكبر هو فرد يرغب دائماً في رؤية جميع من حوله في مرتبة هي أدنى منه. ولهذا فإن الأحاديث النبوية الشريفة تتحدث عن الكبر وتصفه بأنه من كبائر الذنوب، فيقول صلى الله عليه وسلم:

"لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" (مسلم، الإيمان، ١٤٧)

إن الإيمان هو أمر ذو درجة عظيمة جداً تؤمن للمرء من خلال إيمانه هذا الحصول على العفو الإلهي وبالتالي أن يصل إلى نعم الجنة بعد أن يدفع كفارة ما ارتكبه من الذنوب. ولكن الكبر الذي هو صفة إبليس، هو صفة بشعة إلى درجة تمنع وجود الإيمان وبالتالي الدخول إلى الجنة.

وفي حديث نبوي شريف آخر يقول رسول اللّه ﷺ:

"بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ" (مسلم، البر، ٣٢؛ أبو داود، الأدب، ٣٥؛ الترمذي، البر، ١٨)

وكم هي جميلة نصيحة لقمان عليه السلام لابنه حينما قال له محذراً من الكبر والغرور:

﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان، ١٨)

وتقول الآية ٣٧ من سورة الإسراء أيضاً:

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾

ويخبرنا اللّه تعالى عن حكمته في عقاب فرعون وأعوانه الذين غرقوا في مستنقع الغرور والكبر فيقول في الآية الكريمة:



﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف، ٤٨)

إن هذه الأمة التي ربيت بالإبتلاء كانت أمة تنقلب كالغنم في أوقات العذاب والضيق، وتكون كالوحوش عند رفع العذاب عنها. ويخبر اللّٰه تعالى عن حالهم المتقلبة وامتناعهم عن الإمتثال لعهودهم فيقول جَلَّ وعَلا في القرآن الكريم:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ (الأعراف، ١٣٤)

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (الزخرف، ٤٩ – ٥٠)

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (الأعراف، ١٣٥)

دعاية فرعون البائسة

أمام ما وقع به فرعون من العجز تجاه معجزات موسى عليه السلام وخوفه من دخول الناس في دين التوحيد، امر ببناء سرادق على ضفاف نهر النيل. وبقي لمدة سنتين يدعو القادمين من الناس من

خلال هذه السرادق بقوله:

«- لا تؤمنوا لموسى!» ويقول:

«- مع ما أنتم عليه من عبادة لآلهتكم فأنا أيضاً ربكم!»

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف، ٥١ - ٥٢)

وكان فرعون يحاول أن يضع مجده وثروته وقدرته وسلطنته من جهة، ويضع قبالتها موسى عليه السلام بلسانه المتعثر في النطق، وفقره وضعفه، فكان يقول:

﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف، ٥٣)

مدعياً بأن رجلاً كهذا لا يمكن له أن يكون نبياً.

وهكذا:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف، ٥٤)

الخروج من مصر

كان فرعون وأتباعه يستخدمون تفوقهم الدنيوي في تعذيب من آمن باللّه تعالى. فكانوا لا يريدون الإيمان ولا يرتدعون على



الرغم من كل ما يلاقونه من تجل للعذاب الإلهي الذي يحيط بهم ورغم كل ما يرونه من المعجزات.وفي نهاية الأمر، يضطر موسى عليه السلام للدعاء عليهم:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيوةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس، ٨٨ – ٨٩)

بعد دعوة موسى عليه السلام بذلك، أصيب الأقباط بالأمراض الجلدية. وعم الجفاف لأيام ثلاثة. وكانت كل عائلة من الأقباط تصاب بابتلاء مختلف عن غيرها. فيجبر فرعون على السماح لبني إسرائيل بالخروج من مصر. ولكنه كما هو الحال في كل مرة، يعود عن عهده بعد زوال ما يحيط به من ابتلاء.

ولهذا، واستجابة منه للأمر الإلهي، يتجه موسى وبنو إسرائيل معاً إلى منطقة تدعى سويش في عتمة الليل. وتصاب جميع بنات فرعون في تلك الليلة بمرض الطاعون ويمُتْنَ جميعهن.

فما يكون من فرعون الذي كان غاضباً إلا أن ازداد غضباً على وفاة بناته، فيقول:

"– هذا من فعل موسى!"

وبسبب انشغاله في دفن بناته، يستفيد موسى عليه السلام بكثير من الوقت. فما إن يصل إلى فرعون هذا الخبر حتى يكون الأمر قد وقع وانتهى...

يقول اللّٰه تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ (الشعراء، ٥٢)

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى﴾ (طه، ٧٧)

ولما وصل الخبر إلى فرعون كان في فورة من أمره:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (الشعراء، ٥٣ – ٥٦)

وأخيراً، يجمع فرعون جيشه ويحاول اللحاق بموسى عليه السلام:

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء، ٦٠ – ٦٢)

وهكذا، كان البحر الأحمر من أمام موسى عليه السلام وفرعون وجيشه من خلفه.

البحر الأحمر: بحر السلامة والكارثة

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء، ٦٣)

وبدأ بنو إسرائيل يعبرون البحر عبر الطرق التي تشكلت بين جبال من الماء من كلا الجهتين، بل إن بني إسرائيل قالوا لموسى:

"– يا موسى! افتح بيننا نوافذ لتتمكن من رؤية بعضنا البعض!"

فدعا موسى عليه السلام ربه. فظهرت بين الأمواج نوافذ تمكنوا من خلالها رؤية بعضهم البعض أثناء هذا العبور.

وكان فرعون صاحِبَ استدراك للأمور. فالتفت إلى جيشه وقال:

"– اُنظروا إلى البحر! ألا ترون كيف انفلق شطرين من هيبتي فتشكلت الطرقات من خلاله لأتمكن من اللحاق بمن هرب مني وسار أمامي!؟"

أي أن فرعون لم يكن يرى فلق البحر معجزة من معجزات موسى عليه السلام وإنما كان من خلال فهمه هذا غارقاً في الضلالة والحماقة والغفلة.

ومن ثم أمر جنده فقال لهم:

"– سأقتلهم جميعاً! سيروا إلى البحر!."



ولكنه تردد للحظة وخاف. وفكر في العدول عن الأمر. ولكنه وبحسب إحدى الروايات فإن جبريل عليه السلام تمثل أمامهم على شكل رجل يركب حصاناً أبيض قائلاً لهم:

"- هيا، تقدموا!."

ووقف ميكائيل عليه السلام من خلف جيش فرعون وقال لمن في المؤخرة:

"- هيا، لا تبقوا في المؤخرة، وتقدموا!." وأخيراً مشى جميع الجيش وتقدم.

يقول اللّه تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ (الشعراء، ٦٤)

وهكذا، سار موسى وقومه في وسط البحر وسار فرعون وجيشه من خلفهم. ولكنهم وبتجلٍّ للقهر الإلهي غرقوا في هذا البحر الواسع وهلكوا وولوا.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (الشعراء، ٦٥ – ٦٦)

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٣٦)

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ (الزخرف، ٥٥ – ٥٦)

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء، ٦٧)



ونجا جميع بني إسرائيل بلطف اللَّه. وكان ذلك اليوم **هو اليوم العاشر من شهر محرم**. فصام الجميع شكراً لله على نجاتهم. يقص الحق تعالى علينا هذا الإحسان في الآية الكريمة فيقول:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة، ٤٩ – ٥٠)

إيمان لم يقبل: إيمان فرعون

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلٰـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس، ٩٠)

بينما كان فرعون على مقربة من الغرق بين أمواج البحر الأحمر، حاول التمسك بحلقة الإيمان مجبراً على ذلك لما هو عليه من حال فيقول اللَّه تعالى عنه:

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس، ٩١ – ٩٢)

يفسر الإمام الزمخشري هذه الآية الكريمة بقوله:

«سنرميك على زاوية من أطراف هذا البحر. بجسدك الذي سنحميه كاملاً دون أي نقصان أو تلف، عارياً بدون أي لباس، وذلك لتكون عبرة لمن يأتي من بعدك على مدى العصور الطويلة.»

وبحسب الأبحاث التي تم القيام بها في السنوات الأخيرة، تبين أن جسد فرعون قد وجد على شاطيء البحر بوضعية السجود على وجهه. وهذا الجسد هو الآن في المتحف البريطاني، يعرض للناس في مشهد للعبرة والموعظة. وهذه الحقيقة هي معجزة إلهية أعلن عنها اللّٰه تعالى في القرآن الكريم لتبقى إلى يوم القيامة.

فعلى الرغم من بقاء جسد فرعون في البحر وبقائه كل هذه المدة من العصور، إلا أنه بقي دون تلف أو عفن. فكان كما أخبر القرآن الكريم في هذه الآية بأن حُفِظَ هذا الجسد ورُمِيَ على الشاطيء. ليتم إيجاده بعد أكثر من ثلاثة آلافِ سنة ليعرض في إنكلترا في المتحف ليكون علامة للعبرة والموعظة.



جسد فرعون المعروض في المتحف البريطاني في إنكلترا



بعد عبور البحر الأحمر

ذهب موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى أرض كنعان. وبينما هم في طريقهم مروا بقوم يعبدون الأصنام والثور. فقال بعضهم:

«- يا موسى! اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة نعبدها!.»

فنصحهم موسى عليه السلام وقال: «- لقد أنجاكم اللّه من الظلم. كان الأقباط يقتلون أبناءكم ويستعبدون بناتكم لخدمتهم. فهل ستعصون اللّه بعد كل ذلك وتغوصون في بحار الشرك؟»

يقول اللّه تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف، ١٣٨)

﴿إِنَّ هؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (الأعراف، ١٣٩ - ١٤١)

ويؤسس موسى عليه السلام جيشين من ١٢,٠٠٠ رجلاً. وأرسلهما إلى مصر. فلم يبق معه غير الأطفال والعجزة. وكان على رأس أحد الجيشين يوشع بن نون عليه السلام، وعلى رأس الجيش الثاني كاتب بن

يوحنا. فعادوا بالغنائم. وباعوا ما لم يتمكنوا من حمله. فأصبح الأقباط في حالة يرثى لها. يخبر اللّٰه تعالى عن هذا الأمر فيقول في القرآن الكريم:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء، ٥٧ – ٥٨)

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف، ١٣٧)

﴿كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء، ٥٩)

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (الدخان، ٢٥ – ٢٩)

فكم هو جميل ما أوحى به اللّٰه تعالى من وصف للعاقبة الحزينة والزوال في التاريخ كالقمامة للمجتمعات التي أصيبت بالقهر الإلهي. يقول تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم، ٩٨)

امتحانهم بمحاربة العمالقة في بلدة أريحا وصحراء التيه

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة، ٢٠)

إن هذه الآيات هي آيات متعلقة ببني إسرائيل زمن موسى عليه السلام. ولهذا السبب، فإن ما يقولون به "نحن حائزون على النعم مما لم يعط أحدٌ من العالمين" أو قولهم "إن الأرض المقدسة كتبت لهم وطناً" هي جمل تصح لتلك الحقبة الزمنة فقط. فكم هي الأحاديث النبوية الشريفة ومئات الآيات القرآنية التي تتحدث عن أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم هو خير نعمة أتت أو ستأتي وبأنه لطف لا مثيل له من اللَّه تعالى ونعمة منه إلى الإنسانية جمعاء. أما وراثة الأرض المقدسة، فقد حدد القرآن الكريم ورثتها بقوله جَلَّ وعّلا:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء، ١٠٥)

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن أهل الظلم وظلمهم لن يستمر دائماً؛ وبأن الخير أصل، والشر عرض زائل؛ وبالتالي فإن الحاكمية، عاجلاً أم آجلاً، ستؤول إلى أيدي الصالحين. وهو ما يبين كمال الشمول في الحياة الإسلامية في هذه الدنيا.

خرج موسى عليه السلام في رحلته ليأتي بقومه إلى أرض كنعان. وكانوا سيستقرون في المكان الذي يسمى بـ"الأرض الموعودة". واختار موسى عليه السلام ممثلاً من كل فرع منهم. وأرسلهم بقيادة يوشع بن نون وكليب بن يوحنا لتحري القوم هناك. فوجد هؤلاء أن العمالقة قوم ذو بأس وقوة شديدة. ولكنهم اتفقوا على أن لا يخبروا قومهم بذلك لكي لا يصيبهم الخوف وتتأثر حالتهم الروحية. علماً أن موسى عليه السلام قد نبههم إلى ذلك الأمر وأوصاهم به. ولكن هذا الجمع أخبروا قومهم بما رأوه من أمور ولم يبق على عهده إلا يوشع بن نون وكليب بن يوحنا. فتقاعس بنو إسرائيل عن الشروع في هذه الحرب:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾

(المائدة، ٢١ – ٢٢)

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة، ٢٣)

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة، ٢٤)



فبنو إسرائيل بعد أن تخلصوا من ظلم فرعون وبأسه، تعرفوا على نعم الدنيا وتعودوا على الراحة. فازدادت رغباتهم ومطالبهم الدنيوية، فطالبوا موسى عليه السلام بحلوى القوة، ولحم السمان. فكانت هذه النعم تغدق عليهم كل يوم. وكان موسى عليه السلام إضافة إلى ذلك يضرب الحجر بعصاه فتخرج منه اثنتا عشرة عيناً للماء المتدفق.

يقول اللّه تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة، ٥٧)

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة، ٦٠)

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف، ١٦٠)

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى. كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى. وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه، ٨٠ – ٨٢)

ولكون بني إسرائيل هم قوم لا تنتهي طلباتهم لا يمتلكون صبراً ولا شكراً، عادوا مرة أخرى إلى نكران الجميل وزيادة العبئ على نبيهم. ولهذا، فإن الآيات الكريمة أدناه هي خير وصف على نكران هذا القوم للمعروف والجميل. يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة، ٦١)

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة، ٢٥ – ٢٦)

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلوةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكوةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (المائدة، ١٢)

ولكن بني إسرائيل كانوا يجحدون النعم التي أنعم اللّٰه تعالى بها عليهم، ويمتنعون عن الإستجابة لموسى عليه السلام ثالث أنبياء أولي العزم. بل تخطوا ذلك الأمر فقالوا بكل غطرسة:

"– إذهب أنت وربك إلى الحرب؛ فقاتلا واربح! وسنأتي بعد ذلك من خلفك!."

ولهذا السبب، حكم اللّٰه تعالى عليهم بأن يتيهوا في مكان ضيق هو صحراء التيه مدة أربعين عاماً كاملاً.

فكلما أرادوا أن يخرجوا من هذا المكان عادوا والتفوا مرة أخرى وساروا إلى نفس الدائرة. وذلك إلى أن نشأ منهم نسل وجيلٌ آخر جديد...

وأخيراً، تمكن هذا الجيل الجديد المؤمن الموحد من الإنتصار على تذمّر هذا القوم فتمكنوا من دخول الأرض الموعودة. فكانت الأماكن شرق النهر أماكن محررة فسكنوا في هذه الأرض الموعودة. وهكذا تحقق وعد موسى عليه السلام.

نزول التوراة

عندما خرج موسى ﷺ وقومه من بني إسرائيل معاً خارج مصر ونجوا جميعاً من أعدائهم، أخبرهم بأن اللّٰه تعالى سيُنْزِلُ عليه كتاباً من السماء.

فترك هارون ﷺ نيابة عنه مع القوم وقال:

«- إعمل على إصلاح ما تراه من سوء أعمالهم! وأنا ذاهب إلى جبل الطور تنفيذاً لأمر اللّٰه. فأصوم هناك مدة ثلاثين يوماً. وأعود ومعي كتاب سينزله اللّٰه تعالى من السماء!»

ولكن قومه الجاحدين قالوا:

«- يا موسى! إنا نريد أن يكون معك شهود منا»

فاختاروا من بينهم سبعين رجلاً. وخرجوا جميعاً إلى جبل الطور.

وتسلم موسى ﷺ كتابه الذي وُعِدَ به من الحق تعالى. وأمره اللّٰه أن يصوم مدة ثلاثين يوماً. وكانت تلك أيام شهر ذي القعدة الثلاثين. ومن ثم أكمل هذا الصيام بالأيام العشر الأولى من ذي الحجة فصام أربعين يوماً كاملاً. وأعطي الكتاب لموسى ﷺ، وأودع وظيفة تعليمه لقومه مباشرة.

يقول اللّٰه تعالى:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف، ١٤٢)



لقد دُعِيَ موسى عليه السلام إلى طور سيناء مدة أربعين يوماً يتفكر فيها وينقّي فيها داخله ويراقب فيها أعماله، ويدعُو اللَّه ويتعبده ويزهد في الدنيا ويصوم طالباً الربح وصولاً إلى الكمال الذي تقتضيه هذه المهمة. فكانت هذه الأيام الأربعون عبارة عن مرحلةٍ إعداديةٍ ليتمكن موسى عليه السلام من لقاء ربه. ولهذا، عاش موسى عليه السلام حياة أخرى بعيدة عن سائر الناس، في طور سيناء، ليسبح في بحر المعاني التي توصل أخيراً إلى سعة الخالق تعالى، مبتعداً عن مشاغل الأرض وسابحاً في هدوء السماء. لأنه كان بحاجة إلى هذا الصفاء الذي ينقي روحه ويكسبها اللطف.

وكما يفهم، فإن الأيام الثلاثين الأولى كانت أياماً مخصصة للصوم والعبادة تعذيباً وتذكية للنفس ورياضة لها؛ ومن ثم، كانت الأيام العشرة الأخيرة هي أيام نزول التوراة عليه ولقاء (التحدث إلى) اللَّه تعالى. أي أن موسى عليه السلام تمكن عبر هذه الفترة بأيامها الأربعين من أن يصل إلى مرتبة معنوية عالية تخوله من التحدث إلى اللَّه عز وجل.

كما أن تحدث الآية القرآنية الكريمة عن أربعين ليلة وليس يوماً، هو إشارة إلى أن الأشهر تبدأ بالليل وليس بالنهار. ولهذا، فلا تحسب الأيام مع هذه الليالي. كما أن الليل هو وقت متميز بخصوصية خاصة. حيث أن الليل هو شاهد على العديد من التجليات الإلهية. ويتحدث القرآن الكريم عن تنزيل اللوح المحفوظ ليلاً إلى السماء الدنيا، كما كان معراج النبي محمد صلى الله عليه وسلم...

ومن الإشارات التي يمكن استخلاصها من بقاء موسى عليه السلام أربعين ليلة في طور سيناء هو ما يلي:

لكي يتمكن أهل الإيمان من الوصول إلى صباح التجلي، يجب عليهم في ساعات كرب الليل أن يملؤوها بالعمل. فبالفوز الإلهي والبركة تتجلى في وقت الليل وجميع أوقات الصباح الموفقة، لا تأتي إلا بعد ليالي الكرب.

لقد كانت الليالي الأربعين التي قضاها موسى عليه السلام في العمل وكأنها بأيامها الثلاثين، ليلة واحدة؛ وكان ما تلاها من أيام عشرة كسحر هذا الليل. علماً أن موسى عليه السلام كلم ربه تعالى في ساعة السحر في الفجر الصادق وتجلت أمامه فيها العديد من أمور العظمة الإلهية.

لقد صام موسى عليه السلام في جبل الطور أيامه الثلاثين بشكل متصل دون أن يترك بين هذه الأيام أيام إفطار، صيام وصل كامل؛ ولم يجع فيها أويعطش!.. أما عندما أمر أن يتبع الخضر عليه السلام بعد ذلك شق عليه الصبر نصف يوم واحد وجاع. فقال لصاحبه حينها:

"- أحضر لنا طعامنا، فلنأكل!"

ذلك أن ذهابه للقاء الخضر كان امتحاناً من اللَّه تعالى. وازداد هذا الامتحان قوة بابتلاء اللَّه تعالى له. فجاع في رحلته طالباً لقاء المخلوق. أما في جبل الطور، وسفره للقاء ربه، فإنها كانت رحلة

لقاء تحمل معنى الحديث مع اللّٰه تعالى، وتحمل في أرجائها هيبة المكان، الذي أنساه المأكل والمشرب، وتركز فيها فكره كاملاً نحو فكرة اللقاء باللّٰه تعالى.

وسمي موسى عليه السلام «كليم اللّٰه» لتحدثه مع اللّٰه تعالى. ولم يكن حديث موسى عليه السلام مع ربه حديثاً من خلال عضو أو آلة كاللسان وإنما كانت صفة «الكلام» بلا زمان أو جهة محددة. فلا توجد صفة من صفات اللّٰه تعالى يمكن لها أن تشابه صفة البشر. فهو العالم، أي الذي يعلم كل شيء؛ ولكن علمه ليس أبداً كعلمنا. وهو القادر؛ لكن قدرته لا تكون أبداً كقدرتنا. وهو المتكلم؛ لكن كلامه ليس أبداً ككلامنا!...

إننا نتحدث من خلال عضو خلقه اللّٰه لنا هو اللسان لننطق به الأحرف. أما رب العزة سبحانه وتعالى فهو منزه عن هذا الأمر. فالحروف مخلوقة. أما كلام اللّٰه تعالى فليس بمخلوق؛ فهو بلا حرف ولا آلة. ولهذا، فإن كلام اللّٰه تعالى مع موسى عليه السلام، وعلى الرغم من وجود جبريل عليه السلام و ٧٠ من البشر برفقته عليه السلام، إلا أن أحداً منهم لم يدرك أو يسمع هذا الحديث.

لقد شاهد كليم اللّٰه موسى بن عمران عليه السلام مشاهِدَ متعددة من العالم المعنوي. وهذه لم تكن من الأمور التي رغب بها عليه السلام. فبحسب ما يروى، لقد قدمت إليه بشكل نجهله أربعة آلاف ومئة

وعشرون كلمة وأيضاً أربعة عشر كلمة، بشكل مباشر دون أي وسيط. فكانت كل كلمة تتسبب برعشة كبيرة لدى موسى عليه السلام. وتغير جسده وطبيعته بشكل كبير بسبب وصول هذه الكلمات إليه.

تتحدث الآية الكريمة عن هذه المحادثة بقوله تعالى:

﴿...وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء، ١٦٤)

لقد أرسل اللّٰه تعالى إلى موسى عليه السلام آلاف المخاطبة مواساة له وتهدئة لوجدانه، ليجد من خلال هذه النعم شيئاً من الراحة والطمأنينة!... لأن موسى عليه السلام عاش حياة مليئة بالعواصف والزوابع البشرية، وكان نبياً أرسل إلى بني إسرائيل لإقامة شريعة اللّٰه تعالى فيهم وهم قوم المادة والشهوة...

حكمة الرقم أربعين

إن الرقم أربعين هو رقم مهم جداً من ناحية النضوج الروحي:

أ- استمر تكوين آدم عليه السلام من الطين مدة أربعين يوماً. وبحسب ما يروى:

« إن الله عز وجل خمر طينة آدم أربعين ليلة - أو قال: أربعين يوماً»

(الطبري، التفسير، جـ٦، ص ٣٠٧/ ٦٨٢٠)

كل يوم من هذه الأيام هو في كيفيته فترة من الزمن لا علم لنا بها.



ب- يتكون كل إنسان في بطن أمه أربعين يوماً كنطفة، وأربعين يوماً كعلقة، وأربعين يوماً كمضغة؛ ومن ثم تنفخ فيه الروح. ويروى في الصحيحين عن هذا الأمر في الحديث النبوي الشريف:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

«حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق (المؤكد على صدقه) فقال:

"إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ: بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ..." (أُنظر:البخاري، القدر، ١؛ بدء الخلق، ٦؛ مسلم، القدر، ١/ ٢٦٤٣)

ج- كما أن مدة أربعين يوماً هي مهمة جداً للأنبياء لسماع كلام الحق تعالى، فإن لهذه المدة أهمية أيضاً لأولياء اللَّه تعالى لتدفق ينابيع الحكمة من قلوبهم.

يروي لنا الحديث الشريف:

"مَنْ أَخْلَصَ للّه أَرْبَعِينَ يَوْماً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ" (السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ١٣٧/ ٨٣٦١؛ ١/ ١٢١٤٨)

ولهذا، فإن أسباب «العمل» أو «الأربعين» التي يتحدث عنها عند المتصوفين وتحدد بمدة أربعين يوماً للوصول إلى الرقي



المعنوي، هي ما ورد في هذا الحديث الشريف وما كان من حياة عاشها موسى عليه السلام في جبل الطور كما أخبرت الآيات الكريمة.

فكما أن مدة أربعين يوماً هي ضرورية لاتصال الروح بالجسد، فإنها تحتاج أيضاً لمدة أربعين يوماً للإفتراق عنه. هكذا هي آية اللَّه في خلقه.

لقد أكد أهل العرفان على أهمية الرقم أربعة ومكعباته. فعلى سبيل المثال؛

يتكون الكون من أربعة عناصر رئيسية: الماء، الهواء، التراب والنار.

والعرش الأعظم هو من أربع زوايا؛ يحمله ثمانية ملائكة.

وأمر موسى عليه السلام بالصوم الرياضة أربعين يوماً (ليلة)؛ ومن ثم شرف بلقاء ربه جَلَّ وعّلا...

موسى عليه السلام يطلب رؤية اللَّه

بينما كان موسى عليه السلام يكلم ربه، رُفعَ عن عينيه الستار. فكان يرى عرش الرحمن بلا زمان أو جهة بكل وضوح. وكان يسمع صوت القلم يكتب على اللوح المحفوظ. وعلى الرغم من وجود جبريل عليه السلام و٧٠ من البشر حوله، لم يتمكن أحد منهم من سماع أي شيء. ولهذا فإن موسى عليه السلام قد رفع إلى مرتبةٍ ومقامٍ رفيعيْنِ جداً.

وفي نهاية الأمر، ولشدة ما أعجب موسى عليه السلام بهذا الحديث واستلذ له، زاد شوقه بشدة. وتجلّى في نفسه حال مختلف تماماً. وأراد أن يرى اللَّه تعالى. وأصر في طلبه ذلك وألح.

فقال له جَلَّ وعّلا:

﴿لَنْ تَرانِى﴾

وعندما عاد موسى عليه السلام إلى إصراره على طلبه مرة أخرى قال له جناب الحق جَلَّ وعّلا:

«انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِينِي»

ويقال أن هذا الجبل هو جبل كبير في مدين يقال له زبير.

وبحسب إحدى الروايات، فإن اللَّه تعالى أظهر لموسى عليه السلام نوراً صغيراً كحجم الدرهم من خلال سبعين حجاب.فعندما تجلى هذا النور للجبل انفلق هذا الجبل ودك دكاً. فلم يتمالك موسى عليه السلام نفسه أمام هذه القدرة وهذه العظمة فخاف وأغمي عليه.

يخبرنا اللَّه تعالى عن هذه الواقعة في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِينِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِينِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف، ١٤٣)

يشير أحد أرباب التصوف إلى هذا الشأن فيقول:

أراد موسى عليه السلام من خلال إدراكه البشري أن يشاهد طوفان الحقيقة بمعناها الأبدي. ولكن الجواب الذي حصل عليه لم يكن كما كانت رغبته. لأن إدراكه هو إدراك متصل بعين فؤاده. ولهذا، وظناً منه بأن فؤاده ارتقى إلى أعلى الدرجات، طلب رؤية ربه.

ولكن موسى عليه السلام وقع مغشياً عليه لحظة التجلي. فقيل له عندها بلسان الحال:

"- يا موسى! هذا الظهور ليس لأجلك أنت! بل هو لليتيم الذي سيأتي من بعدك."

فقال يبتغي تأكيد هذا الخطاب:

"- يا ربي! أسبحك وأنزهك. فلا يمكن لأحد أن يصل إليك إلا محمد المصطفى ﷺ من غمرته بأعلى الدرجات العلى وقربته إلى ذاتك محبة. أتوب إليك من أمر أردته ليس لي. وأنا أول من يؤمن بأن هذه المشاهدة هي لصاحب المقام الأعلى محمد ﷺ."



وأيضاً بحسب ما يروى، فإن موسى عليه السلام عندما عاد من جبل الطور، كان نور اللَّه تعالى ما زال ينعكس على وجهه. ولهذا، فإنه حجب وجهه مدة ثلاثةِ أيام بحجاب.

ويخبرنا عروة بن رويم فيقول:



"كَانَ مُوسَى لم يَأْتِ النِّسَاء مُنْذُ كَلمه ربه وَكَانَ قد ألبس على وَجهه برقع فَكَانَ لَا ينظر إِلَيْهِ أحد إِلَّا مَاتَ فكشف لَهَا عَن وَجهه فأخذتها من غَشيته مثل شُعَاع الشَّمْس فَوضعت يَدهَا على وَجههَا وخرت للّه سَاجِدَة " (السيوطي، الدر المنثورة في التفسير بالمأثور، جـ ٣، ص ١١٦)

ويقول وهب بن مُنَبّه:

«كلم الله مُوسَى من ألف مقَام فَكَانَ كلما كَلمه رأى النُّور على وَجهه ثَلَاثَة أَيَّام» (السيوطي، الدر المنثورة في التفسير بالمأثور، جـ ٣، ص ١١٦)

أغمي على موسى عليه السلام ووقع أمام هذا التجلي الإلهي على جبل الطور، ووجب عليه تغطية وجهه مدة ثلاثة أيام لشدة انعكاس النور الإلهي على وجهه. علماً أن النبي ﷺ، وببيان واضح في القرآن الكريم كان «قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنىَ»[6] من سدرة المنتهى، بل وإلى ما هو بعدها في ليلة المعراج، في لقائه مع ربه، وحصل على نعمة اللقاء والمشاهدة. ولهذا، يوضح أهل النظرات السبب في عدم بقاء تأثير هذا اللقاء على وجه النبي ﷺ كما حصل مع موسى عليه السلام بقولهم: كان موسى عليه السلام أثناء معايشته هذه الأحوال صاحب "تلوين"»[7].

٦. أنظر: النجم، ٩

٧. تلوين: الحالات المتعقبة التي يسلكها المرء وصولاً إلى التمكين، انتقال من حالة إلى حالة أخرى.

أما النبي ﷺ فكان صاحب «تمكين»[8]. بهذا المعنى؛ كان الرسول الأكرم ﷺ في حالة دائمة من "راحة المشاهدة". ولم يكن المعراج إلا انتقالاً من حالة راحة إلى حالة راحة أخرى، ومن لذة "مشاهدة" إلى لذة "مشاهدة" أخرى.

ولهذا نجد أن الحديث النبوي الشريف يقول:

"إني لست كأحد منكم إني أطعم وأسقى" (علي المتقي، كنز العمال، جـ٣، ص ٣٢ -٤٢/ ٥٣٢٢)

"لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل" (العجلوني، كشف الخفاء، جـ٢، ص ١٧٣/ ٢١٥٩)[9].



يقول أهل اللّه أيضاً، في تفسير قوله تعالى لموسى عليه السلام: «إنك لن تراني!» بأنه تحتوي على الإشارة التالية:

«يا موسى! ما دمت موجوداً، أي أنك ما دمت لم تفنَ عندي بعد، فأنا محجوب عنك. أما عندما تفنى عندي، فعندها سأكون بيناً -سأظهر- عليك.»

---

٨. تمكين: التعمق في الاتجاه، والثبات؛ وتحوله إلى مقام الاقرار باللّٰه تعالى من الأعماق.

٩. أنظر: المقدسي، كشف الأسرار ومفاتيح الخزائن، ص ٥٨ – ٥



أي كما أن النجوم لا تظهر في السماء عند وجود الشمس؛ وكما تختلط مياه النهر عند وصولها إلى البحر؛ وكما يغيب الحجر عن مستوى العين بعد أن يرمى بعيداً؛ وكيف يفقد الطحين شكله بعد أن يدخل غذاءً إلى الجسد؛ كذلك الأمر، فإن اللّٰه تعالى لا يظهر للعبد الفاني بجسده المصنوع من التراب، فيكون عند اللّٰه تعالى فانياً وبعيداً.

ولهذا، نجد أن جلال الدين الرومي كان ينتظر لحظة الموت بكل شوق تخلصاً من أسر النفس. وكان يسمي هذه اللحظة بأنها «تشبه العروس» (ليلة زواجها).

ويقول حَلاّج المنصور أيضاً في حالة من السكر المعنوي:

«أصدقائي! اقتلوني! فنجاتي هي موتي!.»

ويقال عن هذه الحالة في علم التصوف بأنها «وحدة الوجود» أو «وحدة الشهود». ولكنه حال مؤقت. ولا يعلم ماهية هذا الحال بحق إلا من عاشه وحده.



عندما كلم اللّٰه تعالى موسى عليه السلام بصفة الكلام الأزلية، غمر بحالة لذيذة وتذوق رائع. وبينما هو في هذه الحال يطلب من اللّٰه "يا ربي! أرني أنظر إليك!" وألح في طلبه. فانفلق الجبل بنتيجة هذا الطلب وفقد موسى وعيه مغشياً عليه. وعندما أفاق عليه السلام اسغفر ربه. لقد كان موسى عليه السلام عندما سمع كلام اللّٰه كمن نسي حاله في هذه الحياة

الدنيا، ظاناً نفسه في الآخرة؛ في الجنة واصلاً إلى جمال اللّه ﷻ.

ويروى أن الجبل لما انفلق من الشعاع الصغير المتجلي من النور الإلهي أصبح قطعاً صغيرة انتشرت كل واحدة منها في مكان. فأصبح الجبل كحبات الطحين المنثور على السهل. وأصبح الماء الذي نثر فيه هذا الجبل ماءً عذباً يشفي كل من شرب منه.

يحدثنا اللّه تعالى عن القرآن الكريم الذي هو تجلٍ كبير للكلام الإلهي، فيقول في الآية الكريمة:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر، ٢١)

ولهذا السبب، فإن الجبال على ضخامتها، والسماوات ووسعتها والأرض وثباتها، تثاقلن من حمل الأمانة الإلهية وأشفقن منها. يحدثنا الحق تعالى عن هذه الحقيقة بقوله:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾

(الأحزاب، ٧٢)



بعد محادثة موسى عليه السلام مع ربه، بدأت التوراة بالنزول. فنزلت على شكل سبعة ألواح أو عشراً. وكانت ٤٠ جزءً. وبينما كانت



التوراة تتنزل، وقف جبريل عليه السلام مُكلِّفاً كل ملك من الملائكة بحمل حرف من هذه الأحرف. فوقفت هذه الملائكة على طرف جبل الطور تقدم التوراة إلى موسى عليه السلام.

مقابلة عند جبل الطور

يحدثنا رسول اللّه ﷺ عن ملاقاة موسى عليه السلام بربه عند جبل الطور بقوله عليه الصلاة والسلام:

"سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خاصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها،

قال: يا رب أي عبادك أتقى؟

قال: الذي يذكر اللّه ولا ينسى،

قال: فأي عبادك أهدى؟

قال: الذي يتبع الهدى،

قال: فأي عبادك أحكم؟

قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه،

قال: فأي عبادك أعلم؟

قال: عالم لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه،

قال: فأي عبادك أعز؟

قال: الذي إذا قدر عفا،

قال: فأي عبادك أغنى؟

قال: الذي يرضى بما أوتي،

قال: فأي عبادك أفقر؟

قال: صاحب سفر، ..." (علي المتقي، كنز الأعمال، جـ ١٥، ص ٨٩٩-٩٠٠/ ٤٣٥٤٩)

عجل من الذهب

بعد أن عبر بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام البحر الأحمر، وجدوا قوماً يعبدون أصناماً على شكل الثور. فقالوا لموسى عليه السلام:

«- إجعل لنا إله كما لهم آلهة، نعبده!»

فنصحهم موسى عليه السلام وأخبرهم بأن هذا الأمر هو شرك عظيم. فندموا وتابوا.

ولكن، عندما أوكل موسى عليه السلام أخاه هارون وكيلاً على قومه وذهب إلى جبل الطور، قام السامري الذي كان يهودياً منهم يخفي كفره عن القوم بجمع القوم وصنع لهم عجلاً مستفيداً من غياب موسى عليه السلام. ومن ثم قال لهم:

«- هذا هو إله موسى! ولكن موسى نسي ربه!» وأراد من القوم أن يعبدوا هذا الصنم.

وكان السامري فناناً. فصنع عجله بفن متقن جعل الرياح عندما تدخل من طرفه وتخرج من الطرف الآخر تصدر صوتاً وكأنه صوت خوار العجل الحي. وتمكن من صنع ذلك من خلال الثقوب التي



فتحها في جوفه بطريقة تتغير فيها حدة الخوار تبعاً لشدة الريح. ومن ثم قال لهم السامري:

«– أنظروا، ها هو إلهكم يتحدث إليكم.»

وهكذا، لقن السامري لبني إسرائيل ألوهية هذا العجل فاتبعه جزء منهم مبتعدين عن دين الحق. وعمل هارون عليه السلام على تنبيههم بشدة وإصرار ولكنهم لم يستمعوا إليه. ويحدثنا القرآن الكريم عن هذا الحال فيقول تعالى في الآيات الكريمة:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه، ٩٠)

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (طه، ٩١)

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (طه، ٨٥)

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٤٨)

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٥٠)

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه، ٩٢ - ٩٤)

كان موسى وهارون أخوين لنفس الأب والأم. ولهذا، فإن قول هارون عليه السلام لموسى "يا ابن أم" إن هو إلا وسيلة لجلب رحمة موسى عليه السلام. ذلك أن الأم هي أشد رحمة من الأب، إضافة إلى أن أمهم كانت امرأة مؤمنة تحب أولادها وأماً صالحة اكتسبت احترامهم.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٥١)

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (طه، ٨٦)

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (طه، ٨٧ - ٨٨)

فيطلب موسى عليه السلام منهم أن يتوبوا عن هذه الأفعال القبيحة. وكان شرط هذه التوبة هو الندم الشديد وقتلهم أنفسهم. فقالوا:

"- نصبر!" وانتظروا حكم اللّه عليهم.



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة، ٥٤)

وكان المكلفون بالقتل يضعون السيف على رقبة كل ممن وجب عليهم القتل وينتظرون. وكان خلف كل رجلٍ عَبَدَ هذا الصنمَ رجلٌ ينتظر الحكمَ ليضربَ له رأسَه. بل وكان مَنهم أقارب أيضاً:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، ١٤٩)

وأمام هذا الأمر، ولشدة ما كانا عليه من الرحمة، بكى موسى وهارون عليهما السلام ودعوا اللّٰه. فنزلت الآية وقبلت توبة التائبين:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف، ١٥٣)

ومن ثم قال اللّٰه تعالى:

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة، ٥٢)

ثم التفت موسى عليه السلام إلى السامري فقال له:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه، ٩٥ – ٩٦)

بحسب رواية المفسرين، فإن السامري ما رآه السامري ولم يره بقية القوم وأخذ منه حفنة من التراب هو جبريل عليه السلام عندما ظهر لموسى عليه السلام. فكان السامري يتنبه إلى اخضرار الأرض عند موضع قدم حصان جبريل عليه السلام، فأخذ حفنة من هذا التراب ونثرها على الذهب الموقد في النار.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيوةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (طه، ٩٧)

وبحسب ما يروى، فإن السامري بعد دعاء موسى عليه السلام عليه أصيب فعلاً بمرض شديد ومعدي جعل منه يضطر إلى البقاء بقية حياته بعيداً عن الناس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيوةِ الدُّنْيَا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (الأعراف، ١٥٢)

❁

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف، ١٥٤)

ويطلب اللّه تعالى من موسى عليه السلام إحضار سبعين رجلاً من قوم بني إسرائيل نيابة عن الذين عبدوا العجل وتابوا إلى اللّه بعد ذلك وأن يقفوا جميعاً بين يديه يرجون التوبة والمغفرة.



فيختار موسى عليه السلام سبعين رجلاً من القوم ويذهب بهم جميعاً إلى جبل الطور. ولكن القوم الجاحدين يطلبون رؤية اللّه تعالى. فتهتز الأرض في زلزلة شديدة ويخرون مغشياً عليهم. فيدعو موسى عليه السلام ربه فيذهب عنهم هذه الكارثة.

يقول تعالى في الآيات القرآنية الكريمة:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(البقرة، ٥٥ – ٥٦)

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف، ١٥٥)

ويكمل موسى عليه السلام دعاءه فيقول:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ ...﴾

(الأعراف، ١٥٦)

﴿...قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكوةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ.



الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهِيهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف، ١٥٦ - ١٥٧)

يروي الصحابي قتادة بن نعمان رضي الله عنه بأن موسى عليه السلام قال:

«-رب، إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي!»

فيقول اللّه تعالى:

«-تلك أمة أحمد»

فيقول موسى عليه السلام:

«-رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون -أي آخرون في الخلق -السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي»

فيقول اللّه تعالى:

«- تلك أمة أحمد»

فيقول موسى عليه السلام:

«-رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها -كتابهم - رب، اجعلهم أمتي»



فيقول اللّه تعالى: «- تلك أمة أحمد»

فيقول موسى عليه السلام:

« رب، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول، وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي»

فيقول اللّه تعالى:

«- تلك أمة أحمد»

فيقول موسى عليه السلام:

«رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها، رب، اجعلهم أمتي»

فيقول اللّه تعالى:

«- تلك أمة أحمد»

«رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، رب اجعلهم أمتي»

فيقول اللّه تعالى:

«- تلك أمة أحمد»

قال: قتادة فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح، وقال «-اللهم اجعلني من أمة أحمد» (أُنظر: ابن كثير، التفسير، جـ ٢، ص ٤٧٨-٤٧٩)



نحن والحمد لله، أتينا إلى هذه الدنيا من أمة محمد مجاناً يعني أنّ اللّه تعالى جعلنا مِن أمة محمد ﷺ بدون أن نبذل أية جُهد أو نقدم أية مشقة، أو ندفع لذلك أي ثمن. ولهذا، مهما شكرنا اللّٰه على ذلك فهو أمر قليل. ولكن، وكما أن لكل شيء ثمن فإن لهذا الأمر أيضاً ثمن. ولهذا فإن علينا أن ندرك حق المسؤولية في أن نكون من هذه الأمة، وأن نعيش حياة خيرة تليق بهذه الأمة، لنأخذ نصيبنا يوم القيامة إلى جوار الحبيب المصطفى ونكون أهلاً لشفاعته.

❁

عاش بنو إسرائيل بعد ذلك مدة من الزمن بهدوء. ومن ثم عادوا إلى جحودهم. فقالوا لنبيهم موسى عليه السلام بأنهم يستصعبون تطبيق أحكام التوراة وبأنها أحكام قاسية. نسوا ما عاهدوا اللّٰه عليه حين تابوا إليه. فرفع اللّٰه تعالى طور سيناء فوقهم في معجزة إلهية. فجزعوا جزعاً شديداً. وسجدوا جميعاً. وظنوا أن الجبل سيهبط عليهم. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (البقرة، ٦٣ – ٦٤)

ولكن بني إسرائيل استمروا على ما كانوا عليه من حال. فأصيب من تخطى حدوده منهم بغضب اللّٰه تعالى الإلهي:



﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة، ٦٥ – ٦٦)

لقد مسخ اللّٰه تعالى من أصر على الإعتداء والعمل الباطل من بني إسرائيل قردة، ثم أهلكهم بعد ذلك. ولا علاقة لهذا الأمر بالادعاء الباطل حول أصل البشر الذي يعود إلى القردة. كما أن من مسخ منهم قردة لم يتناسلوا ولم يلدوا نسلاً بعد ذلك.

يقول اللّٰه تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة، ١٣)

وكان التوراة نسخة واحدة. ولم يكن محفوظاً بشكل كامل عند أحد من الناس. وعندما وقع بنو إسرائيل في الأسر عند أهل بابل، ضاعت النسخة الوحيدة للتوراة. وبعد سنوات طويلة من الأسر، وعندما تحرر بنو إسرائيل مما هم فيه من الأسر، قاموا بكتابة بعض الأجزاء التي عملوا على تذكرها مما كان في التوراة. أما ما هو موجود اليوم من نسخ التوراة فهو هذه الأجزاء الناقصة المحرفة وجزء من حياة موسى عليه السلام.

ذبح البقرة قرباناً

وجد رجل غني جداً من بني إسرائيل يدعى عامل مقتولاً. وكان قاتله هو ابن عمه. ويروى عن أسباب هذا القتل ما يلي:

١. قتله ابن عمه حسداً على ثروته لكونه فقيراً وابن عمه بخيل جداً.

٢. تزوج عامل من امرأة، فقتله ابن عمه لأنه أراد أن يتزوج هذه المرأة.

ومن ثم ترك القاتل هذا القتيل في مكان بين قريتين. عملاُ منه لتكون هتين القريتين خصمين لبعضهما البعض.

يتجه الشعب إلى موسى عليه السلام يريدون أن يجد لهم القاتل، وينفذون فيه حكم القصاص. ولكن موسى عليه السلام تردد في قضية معرفة القاتل ولم يصل بها إلى نتيجة. فدعا اللّٰه تعالى. فأمره اللّٰه أن يطلب من القوم أن يذبحوا بقرة قرباناً.

فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام:

"- وما هي العلاقة بين ذبح بقرة ومعرفة القاتل؟! أتسخر منا؟" مع أنهم باعتراضهم هذا، ودون أن يشعروا، كانوا يعترضون على فكرة التسليم بأمر اللّٰه بدخولهم في هذا الإمتحان.

فقال لهم موسى عليه السلام:

"- إنما أبلغكم أمر ربي!"

تقول الأية الكريمة:



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرونَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة، ٦٧ - ٦٩)

ويجد اليهود هذه البقرة بما عليها من أوصاف عند امرأة لديها طفل يتيم. ولكن المرأة لم تكن تريد أن تبيع هذه البقرة لأنها مصدر رزقها الوحيد. فطلبت منهم ١٠٠٠ حجز.

فيقول لهم موسى عليه السلام:

"- أعطوا المرأة ما أرادت وخذوا البقرة!" فيقبل بنو إسرائيل بألف حجز. ولكن المرأة هذه المرة ترفع سعر البقرة إلى ٢٠٠٠ حجز.

فلم يرغب القوم في شراء هذه البقرة لأنهم وجدوا أن سعرها اصبح مرتفعاً جداً، فتوجهوا مرة أخرى إلى موسى عليه السلام:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة، ٧٠ - ٧١)

كاد القوم أن يعدلوا عن ذبح هذه البقرة، لأن هذا الوصف كان يشير مرة أخرى إلى نفس البقرة التي تمتلكها هذه المرأة. إضافة إلى أن المرأة زادت سعرها بشكل كبير جداً وصل إلى ١٠٠٠٠ حجز. ثم قالت لهم: "- ستشترون هذه البقرة، وستذبحونها، وتأخذون جلدها وتصنعون منه كيساً تملأونه بالذهب وتعطونه إلي! فلا أبيعها لكم إلا بهذا الشكل."

فيعود بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام يسألونه. فقال لهم:

"- اشتروا هذه البقرة مهما كان الثمن!."

فقال القوم عندها:

"- إذن، فلنأخذها الآن، وليحل الأمر محله؛ وإلا فلن نتمكن بعدها من دفع ثمنها." واشتروا البقرة أخيراً.

يقول اللّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

(البقرة، ٧٢)

لكن بني اسرائيل لم يردوا هذه المرة أن يدفعوا ثمن البقرة. فقال لهم موسى:

"- إذا لم تدفعوا ثمنها، فلن يبعث الميت!"

فما كان منهم إلا أن صنعوا من جلد البقرة كيساً رغماً عنهم وملؤه ذهباً وأعطوه للمرأة.



﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة، ٧٣)

وقوله تعالى «فقلنا اضربوه ببعضها!» هي لتحويل انتباههم بشكل أكبر إلى هذه الحادثة. ولهذا، حضرت المراسيم وتحققت المعجزة في العقبة. فاللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يحيي الموتى بقدرته دون أن يكون هناك أي سبب آخر.

وأخيراً، يضرِبُ القوم القتيل بِلسانِ البقرة فَيُبعثُ الميت وهو في دمه ويروي حقيقة هذا الأمر:

«- قتلني أولاد عمي. فلان وفلان...» وأخبر بأسمائهم ومن ثم مات مرة أخرى.

فنفذ حكم القصاص مباشرة في حق هذين الشابين اللذين ارتكبا هذه الجريمة.



العبر في هذه القصة

* إن كل اعتراض قام به بنو إسرائيل كان سبباً في زيادة أزماتهم. فهم مثلاً لو نفذوا الأمر الإلهي فور بلوغه إليهم لكان بإمكانهم أن يذبحوا أية بقرة كانت، ولكان الأمر الإلهي قد وفي خير وفاء. ولكنهم عبر أسئلتهم المتكررة، كانوا كمن لا يرغب في ذلك

الأمر فصعبوا على أنفسهم الأمر بفعل أيديهم. فكانت اعتراضاتهم الشديدة وعدم معرفتهم قدر أنفسهم هما سببان في حصولهم على نتيجة قاسية ومؤلمة.

* لا يجوز توجيه الأسئلة التي لا ضرورة لها. كما هو الحال في حوادث القضاء والقدر والحوادث العامة، فإنه لا يجوز التعمق في الأسباب... أي أن على المرء أن يقبل ويسلم بقضاء اللّٰه تعالى فيما أوضحه من خصوص. وزيادة الأسئلة والإعتراضات هي أمور لا تؤدي إلا إلى زيادة البلاء والتهديدات، الأمر الذي يثقل حمل هذه المسؤولية.

لهذا، نجد أن رسول اللّٰه ﷺ يقول:

"ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ" (مسلم، الحج، ٤١٢/ ١٣٣٧)

* أُمِرَ بنو إسرائيل بذبح بقرة لما كان منهم قبل ذلك من عبادة لها. وذلك ليروا بأم أعينهم أن لا ألوهية في البقرة. فبنو آدم قد يخطؤن في بعض الأحيان لما في نفوسهم من مشاعر العبودية، فيحاولون أن يختاروا آلهتهم ضمن الأطر والمعايير التي يعرفونها في عالمهم، ومن خلال صلاحية الإدراك المحدود الذي هم عليه فيقعون عبر ذلك في الشرك والضلال.

* مع تثاقل بني إسرائيل في اتباع أمر اللّٰه، فإنهم لا يتمكنون من إيجاد القاتل وهو ما أدى إلى زيادة التوتر والمشاجرات فيما بينهم. ومع ذبح البقرة ومعرفة القتلة، حصل الجميع على السكينة.

* كان العديد من بني إسرائيل مترددون في الإيمان بقضية "**البعث بعد الموت**". ومع هذه الحادثة البينة ذهب عنهم هذا الضعف.

لقاء سيدنا محمد ﷺ مع موسى عليه السلام ليلة المعراج

التقى سيدنا محمد ﷺ بموسى عليه السلام ليلة المعراج مرات عدة.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

" ...فَفَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ، حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ موسى عليه السلام: مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ،فَرَاجَعْتُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ.[١٠]

وأهم ما في هذه الحادثة من موعظة هو ضرورة الإستفادة من التجارب السابقة.

١٠. أنظر: البخاري، الصلاة، ١؛ مسلم، الإيمان، ٢٦٣



قارون

كان عمُّ موسى عليه السلام أو ابنُ عمهِ. وكان أفضل الناس قراءة للتوراة بعد نزولها على موسى عليه السلام. وكان شديد الفقر، يعتاش من مساعدة الآخرين له. وبدعاء موسى عليه السلام له، أعطي علم صناعة الذهب من المواد القيمة.

وقبل أن يؤمن لموسى عليه السلام، كان قارون ممثل بني إسرائيل لدى فروعون. وكان يؤذي كل من خدم تحت إمرته. وبعد أن آمن مع موسى، أعطي العلم والحكمة والعبادة.

ولكن الشيطان الملعون أتى إليه على صورة بشر وأصبح صديقاً له. ومن ثم وجد فرصته المؤاتية فقال له:

«- يا قارون! عوضاً عن المعيشة بما يقتسمه الناس لنا، فلنذهبن للعمل يوماً ونتعبد بقية الأيام الستة!.»

أعجب قارون بهذه النصيحة. فنزلا إلى المدينة وعملا يوماً. وتعبد اللّٰه تعالى بقية الأيام الستة يقتات مما اكتسبه من عمله في هذا اليوم الواحد.

بعد أن حصل الشيطان على خطوته الأولى، قال له هذه المرة:

«- يا قارون! أرأيت؛ لم نكن بحاجة لأحد! تعال؛ لنعملن نصف أيام الأسبوع نكتسب فيها المال، ولنتعبد في الأيام الباقية!



ونستطيع بذلك أن ننفق ما فاض من المال في سبيل اللَّه على الفقراء والمحتاجين فتكون لنا فرصة الإنفاق أيضاً.»

بعد ما قام به من تنازل في المرة الأولى، أعجب قارون مرة أخرى بهذا الرأي بشكل أكثر مما سبق وقبل به أيضاً.

وبهذا وفق الشيطان فيما فكر به من حيلة. وازدادت فترة العمل أكثر فأكثر:

«- لنعمل أكثر من هذا ونربح مالاً أكثر! فنتعبد اللَّه بهذا المال ونفرح عدداً أكبر من الفقراء!».

وهكذا، مالت نفس قارون شيئاً فشيئاً إلى الحياة الدنيا، ودخل في نفق حبها. وأصبح عبر ما رزقه اللَّه من علم صناعة الذهب بدعاء موسى عليه السلام له رجلاً من الأغنياء جداً. وامتلأ قلبه بالحرص على الدنيا. وخسر في هذه الأثناء كل ما كان يمتلكه من صفات حسنة ونزاهة. علماً أن غناه لم يكن إلا عبر ما علمه موسى من علم.

تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص، ٧٦)

ويبدأ قارون الذي امتلأ قلبه بحب الدنيا يتذمر من نصائح موسى عليه السلام له؛ وأصبح لا يحتمل وصاياه ونصائحه. ومع إعطاء



وظيفة ذبح القرابين (الحبر)إلى الليفيين الذين هم من قومه وهارون ﷺ، بدأت الصفات القبيحة التي امتلأت في قلبه بالظهور إلى وضح النهار بشكل كبير و واضح. فغضب غضباً شديداً ولم يحتمل نفسه فذهب إلى موسى ﷺ وقال له:

"- يا موسى! لقد أعطيت الحبرية (وظيفة ذبح القرابين) إلى أخيك هارون. وليس لي شيء مماثل لذلك! مع أني أقرأ التوراة بشكل جيد جداً. ولهذا، فأنا أعلى مرتبة من هارون! فكيف لي أن أصبر على هذا الظلم؟!"

فقال له موسى ﷺ مجيباً:

"- لست أنا من أعطى هارون هذه الوظيفة وهذا المقام، بل هو اللَّه تعالى!."

لكن قارون امتنع وقال:

"- إن لم تظهر لي علامة فلَن أقبل بذلك أبداً!."

فجمع موسى ﷺ رؤساء بني إسرائيل وقال:

"- أحضروا عصيكم! وضعوها جميعاً في مكان محدد. فمن اخضرت عصاه فهو من يستحق أن يكون حبراً."

فأحضرت العصي؛ ووضعت في المكان الذي يتعبدون فيه. فلم تخضر إلا عصا هارون ﷺ وأخرجت الأوراق الخضراء منها.



وأمام تجلي هذه المعجزة الإلهية، التفت موسى عليه السلام إلى قارون وقال له:

"– يا قارون! أأنا من فعل ذلك؟"

وكان قارون متفاجئاً. ولكنه على الرغم مما رآه من حقيقة الأمر إلا أنه بقي متبعاً لهوى نفسه وقال:

"– ليس هذا إلا عمل من أعمال السحر!." ومن ثم ترك ذلك المجلس غاضباً.

ويأمر اللّه تعالى قوم بني إسرائيل أن يضعوا شريطاً أزرق على ألبستهم. فيمتنع قارون عن ذلك أيضاً ويقول:

"– ليس هذا إلا لفصل الأسياد عن العبيد!." ولم يضع هذا الشريط.

وهكذا ازداد حنق قارون على موسى عليه السلام كثيراً. وكان الحسد في نفسه يحرق أوصاله ويذيبها. وكان يجتذب الناس إليه بتقديم الضيافة ويعمل على تفضيل نفسه عبر أحاديث معينة يقولها.

وفي يوم من الأيام، وبناءً لأمر من اللّه تعالى، يقوم موسى عليه السلام بحساب مقدار الزكاة المستوجبة على قارون من ماله ويطلبها منه. فيقول قارون:

"– والآن سلطت عينيك على مالي؟ إنني أنا من اكتسب هذا المال!"



يقول اللَّه تعالى في خطاب قارون بقوله:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص، ٧٧)

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيوةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّيهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ (القصص، ٧٨ - ٨٠)

افتراء بشع

وفي أحد الأيام، يجمع قارون قوم بني إسرائيل. وينادي موسى عليه السلام أيضاً ويقول:

«- الآن يا موسى! أخبرنا بأوامر اللَّه في هذه الأمور: ما هو عقاب من يسرق، وما هو عقاب من يزني، وإن كنت أنت من فعل ذلك فما هو عقابك؟!»

فيجيبه موسى عليه السلام:



«– تقطع يد من يسرق، ويرجم من يزني!.»

فيكرر قارون سؤاله:

«– وإن كنت أنت الفاعل!؟»

فيقول موسى عليه السلام:

«– العقاب نفسه»

وأمام هذا الجواب، ينادي قارون امرأة من بين الجمع كان قد اتفق معها في خطة سافلة محضرة مسبقة، فقال:

«– يا أيَّتها المرأة، تعالي! تعالي وأخبري بما كان بينك وبين موسى من فعل قبيح وقلة عفة!.»

فاحتد موسى عليه السلام بشدة أمام هذا الافتراء العظيم وغضب غضباً شديداً.

وفي هذه الأثناء، تقترب المرأة منهم. وتحاول أن تنطق بشيء إلا أن لسانها يعقد عن الحديث، فلم تستطع قول أي شيء.

فيسألها موسى عليه السلام بحدة:

«– يا أيَّتها المرأة! بحق اللَّه تعالى فالق البحر ومنزل التوراة أجيبي بالحقيقة: هل أعرفك؟ وهل لي أي علاقة بك؟»

فتقول المرأة بندم كبير:

«– يا موسى! لقد أعطاني قارون مالاً كثيراً واحتال علي لكي ألفق إليك هذا الإفتراء.»

فسجد موسى عليه السلام وقال:

«- يا ربي! أعطهم عقابهم!.»

وأمام هذا الدعاء، انشقت الأرض. ووقع في جوفها قارون بخطته السافلة وكل من تبعه بكل ما امتلكوه من خزائن.

يقول اللّٰه تعالى:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص، ٨١)

لقد أهلك قارون بميله إلى الدنيا وحسده للآخرين. ولهذا، تحدثنا الآية الكريمة عن ضرورة اللجوء إلى اللّٰه تعالى من شر الحاسدين بقوله تعالى في سورة الفلق:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ. وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق، ١ -٥)

إن عاقبة الحاسدين ليست إلاّ الخسارة.

ولهذا، نجد أن الناس بعد رؤيتهم لما آل إليه قارون وأعوانه تندموا على ما ظنوا به من أمر وقالوا بكل ندامة:

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا



وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ. تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص، ٨٢ – ٨٣)

وفي عبرة إلى الأمة من خلال قصة قارون هي أن عاقبة وخيمة هي تلك التي تنتظر المتكبرين وأهل الحسد ومن نسي الآخرة وخاض في هذه الدنيا.

وبتعليق منه على حادثة الإفتراء في هذه القصة أيضاً يقول أحد أرباب التصوف:

بعد ما قام به موسى عليه السلام من حركة دون أن يصبر وينتظر الوحي الإلهي، أي ما كان منه من قتل لفاطون بدفعه قليلاً، كان سبباً كافياً له لتردي موضع وجدانه. بل إن اللّٰه تعالى خاطبه وقال له بشكل مباشر:

«– وقتلت نفساً!.» (طه، ٤٠) أي أن اللّٰه تعالى قال له:

«– لقد قتلت ذلك القبطي دون أن تحصل على موافقتنا أو أوامرنا أو وَحْينا!.» في مؤاخذة من اللّٰه تعالى له على ذلك.

وهكذا، أتت هذه الشوكة؛ وغرست في وجدان موسى عليه السلام تكراراً وتكراراً. علماً أن قصده لم يكن كذلك حينها. ولكن ما قام به من فعل من نفسه جعلت له سبباً أن يكون عرضة للعديد من الأمور والإفتراءات التي لم يقم بها.

ولهذا يقول مشايخنا:

«إذا لم تقم بإلقاء محبة فعل الأمور من رأسك دون الاعتماد على الأوامر الإلهية، ينظفون سيفك وتقتل بسيفك أنت، وليس بغيره!.»

والهدف من هذا هو تحسين النيّة قبل كل شيءٍ وعدم الإعتماد على النفس والتفاؤل بالخير

موسى عليه السلام والخضر[11] عليه السلام

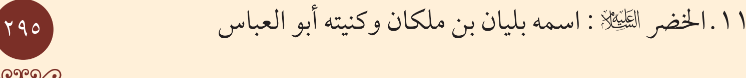
بعد أن غرق فرعون في البحر الأحمر، بدأ موسى عليه السلام بإلقاء المواعظ على قومه بشكل فصيح جداً وبليغ ومؤثر. فأعجب القوم بعمق المعرفة والعلم الذي رأوه من موسى عليه السلام؛ وقال أحد هم:

«- يا نبي اللّٰه! هل هناك من أحد هو أكثر منك علماً على وجه الأرض؟»

فقال له موسى عليه السلام: «- لا أعلم أحداً كذلك!»

فينزل عليه الوحي ليخبره:

«هناك عبد من عبادي تجده عند ملتقى البحرين، أعطيته علماً خاصاً من عندي (علماً من لدنا). فاذهب إليه مع رجل متميز تختاره من أمتك!.»



١١. الخضر عليه السلام: اسمه بليان بن ملكان وكنيته أبو العباس



وكان من أشير به إليه هو الخضِر عليه السلام.

«- وهل سأجد هذا الشخص يا ربي؟»

فيأمره اللَّه تعالى أن يضع سمكة ميتة في زنبيله، فإذا ما عادت هذه السمكة إلى الحياة ونزلت الماء عند ملتقى البحرين فإنه سيجد الخضر هناك.

ويروى أن موسى عليه السلام يخرج للقاء الخضر ومعه ابن أخته يوشع بن نون مباشرة.

تتحدث الآية الكريمة عن هذه القصة بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (الكهف، ٦٠)

ويفسر مولانا قدس اللَّه سره هذه الحادثة المليئة بالعبر والحكم بهذا الشكل فيقول:

«يا صاحب الكرم! شاهد هذا الاشتياق المعنوي عبر «كليم اللَّه» موسى عليه السلام! أنظر ماذا يقول كليم اللَّه موسى عليه السلام: «- على الرغم من هذا المقام الرفيع الذي أنا عليه إلا أنني لا أشعر وجوداً عندي. فأذهب إلى الخضر لينير ضوءاً في روحي إلى ما هو أبعد.»

وعندما يذهب موسى عليه السلام للقاء الخضر يقول له قومه:

«- يا موسى، لقد تركت قومك، وذهبت تبحث عمن هو أقل مرتبة منك!

مع أنك نبي تخلص من «الخوف» و«الرجاء». فإلى متى ستدور، وإلى أي وقت ستبحث؟

ما تبحث عنه موجود فيك... وأنت تعلم ذلك. يا نبياً كبيراً كالسماء! إلى متى ستدور على الأرض؟»

فيقول موسى عليه السلام لقومه:

«- رجاءً، لا تقطعوا الطريق بين الشمس والقمر! فأنا هلال النبوة، والخضر شمس الولاية. أي أن هناك أنبياء أعلى رفعة مني. أما الخضر فهو خير الأولياء.»

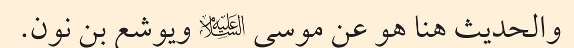
ويكمل موسى عليه السلام بقوله:

«- أنا ذاهب لصحبة ولي هو سلطان زمانه لألتقيه عند مجمع البحرين. وسأعمل للوصول إلى الحقيقة والمعرفة بصحبة الخضر. ولهذا سأسافر لمدة طويلة. إلى أن ألتقي به.

سأطير سنوات طويلة بأجنحة العزيمة والهمة. فما معنى السنوات، فلو ذهبت سنوات طوال، سأبحث عنه وأجده. ألا تستحق هذه الرحلة أن أجد هذه الجوهرة؟»



﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (الكهف، ٦١)



والحديث هنا هو عن موسى عليه السلام ويوشع بن نون.



بحسب إحدى الروايات، يأخذ موسى عليه السلام ويوشع بن نون استراحة ينامون فيها. وفي هذه الأثناء تدب الحياة بالسمكة وتقفز إلى الماء. ولكن يوشع ينسى إخبار موسى عليه السلام بذلك. وعندما استفاق موسى قال له:

"– هيا لنكمل مسيرنا؛ لربما ما زال ينتظرنا طريق طويل!"

وأكملا طريقها. وبعد المسير مدة من الزمن جلسا قرب جذع شجرة يستظلان بها.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتيهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هذَا نَصَبًا﴾ (الكهف، ٦١)

فيتذكر يوشع بن نون فجأة ويقول:

"– لقد نسيته في المكان الذي قفزت فيه السمكة إلى البحر!"

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف، ٦٣ – ٦٥)

إن تسمية "علم لدن" الموجود في الطرق الصوفية هو مأخوذ من هذه الآية الكريمة. إن علم التصوف هو مخصص لجزء من أهل الذوات وخلاصته هي الزهد؛ والوصول إلى مشاعر الإحسان.

أي أن هذا العلم متعلق بحياة القلب. إضافة إلى ذلك، إن على المرء مسؤولية في هذا الشأن تماماً كقابليته وسداده. فالعبد مكلف باكتشاف هذا السداد حرصاً على سلامته. وهذا الأمر ممكن من خلال تزكية النفس وتصفيتها. أما العلم اللدني فهو علم يهبه اللَّه تعالى للمرء بعد الحصول على التعليم المعنوي في عالم التصوف. ولهذا يقول اللَّه تعالى متحدثاً عن الخضر عليه السلام بقوله:

﴿...**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ (الكهف، ٦٥)

كما يقول اللَّه تعالى في سورة البقرة أيضاً:

﴿...**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ (البقرة، ٢٨٢)

يروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيقول:

«إن العلم الباطن هو حكم تتألف من عدد من الحكم وسر من أسرار اللَّه جل جلاله، بحيث يعطى هذا العلم إلى قلب من يطلبه من عباده.» (السيوطي، الجامع الصغير،٢، ٥٢)



يجد موسى عليه السلام هذه الشخصية التي حدثه الوحي عنها جالساً على خرقة له على ظهر صخرة هناك فيسلم عليه ويقول:

"- أنا موسى!"

فيجيبه الخضر عليه السلام:

"- مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟!".



فيقول موسى عليه السلام: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا

"– أأنت من أخبرني اللَّه بأنه أعلم الناس؟"

فيجيبه الخضر عليه السلام:

"–يا موسى إني على علم من علم اللّه علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم اللّه علم اللّه لا أعلمه"[١٢]

ويخبر موسى عليه السلام الخضر عليه السلام عن رغبته في تلقي هذا العلم منه. فكان يريد أن يتعلم من الخضر حكمة حقيقة بعض الأمور التي تظهر لديه عجيبة وغريبة ولا يمكن فهمها بالعقل الظاهري.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾

(الكهف، ٦٦)

فيجيبه الخضر عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (الكهف، ٦٧ – ٦٨)

من خلال هذه الكلمات الأولى، أراد الخضر عليه السلام أن يختبر الوضع النفسي لموسى عليه السلام، فكان أن أخبره عن نفسه من خلال هذه الكلمات القصيرة. فحصة موسى عليه السلام من هذا الأمر أن يأخذ درسه في معرفة موقعه وأن يعمل على التحمل والصبر. أي أنه كان كمن يقول لموسى عليه السلام بلسان حاله:

١٢. أنظر: البخاري، التفسير، ١٨/ ٢، ٣،٤/ ٤٧٢٥؛ الأنبياء، ٢٧؛ مسلم، الفضائل ١٧٠/ ٢٣٨٠



"- صبرك وأنت برفقتي هو أمر لا يمكنك التحكم به. وأنت معذور في هذا الشأن. لأنه كمال هذا العلم لم يعطى بعد إليك"

فيقول له موسى عليه السلام:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (الكهف، ٦٩)

فيقول له الخضر عليه السلام:

"- إن كنت ستتبعني، فلا تسأل عن شيء ما لم أخبرك بسره! أي أن يقف نقاشنا عند هذا الحد؛ لا تسأل حتى لمجرد الفهم!."

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف، ٧٠)

وخرجوا في تلك الرحلة المشهورة. يروي لنا القرآن الكريم تفاصيل هذه الرحلة المليئة بالحكم والعبر بقوله تعالى:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (الكهف، ٧١ - ٧٣)

يقول رسول اللّه صلى الله عليه وسلم:

"وَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ..." (البخاري، التفسير، ١٨/ ٢-٤/ ٤٧٢٥)



﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (الكهف، ٧٤ – ٧٦)

وقول موسى عليه السلام بهذا الشكل هو اعتذار منه لنفاد كل ما كان لديه من أعذار وسعيه لتوضيح ذلك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف، ٧٧ – ٧٨)

وبعد ذلك كله يوضح الخِضر لسيدنا موسى لماذا قام بهذه الافعال:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ

رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف، ٧٩-٨٢)

عن أبي ذر الغفاري ﵁ أن رسول اللّٰه ﷺ أخبر عن ذلك الكنز المخفي تحت الحائط بقوله:

"إن الكنز الذي ذكر اللّٰه في كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب ؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ؟ وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل؟ لا إله إلا الله، محمد رسول اللّٰه" (ابن كثير، قصص الأنبياء، ص ٤٢٤، جـ٥، ص ١٨٦)



إذن، إن السؤال الذي هو نصف المعرفة في العلوم الأخرى هو ممنوع في العلم اللدنّي. فنفس الطالب هنا ستتحضر بالقابلية أكثر بكثير منها في الفعالية.

فعلى سبيل المثال، إن فن المعمار سنان الذي استخدمه في بناء مسجد السليمانية بما لديه من قدرة علمية وقابلية، هي أعلى مرتبة من مختلف الفنانين. وعدم معرفة المعمار سنان بحرفة الرخام الموجودة لدي العامل الذي عمل في بناء هذا المسجد هو أمر لا ينتقص من علمه. لأن مختلف هؤلاء الفنانين الحرفيين هم عمال يعملون بإمرته. وهم سيتعرفون على تفاصيل حرفية الرخام منه.



بالفعل، إن إرسال موسى ﵇ الذي هو من الأنبياء أولي العزم إلى الخضر ﵇ لتلقي العلم اللدني هو أمر ملفت جداً للإنتباه. وأن يسعى موسى ﵇ لتلقي العلم اللدني من رجل على معرفة به هو أمر لا ينتقص منه ﵇.

وهو في الوقت نفسه تبليغ من اللَّه تعالى بأن موسى ﵇ هو نبي لا يعرف كل شيء، وأنه لا يعرف أكثر مما علمه اللَّه له وأعطاه. كما أن إعطاء هذا العلم إلى الخضر لمن هو أقل مرتبة منه وشأناً هو إشارة أيضاً إلى أنه حتى الأنبياء هم بشر عاجزون أمام العلم والمعرفة الإلهية.

والحكمة الأخرى أيضاً هي أن كلاًّ من الخضر وموسى عليهما السلام يمتلكان علماً مشتركاً وهو معرفتهم بـ "ذو الجناحين"، أي من يمتلك معرفة من الدنيا والآخرة نبينا محمداً المصطفى ﷺ وعلو قدره ومقامه الذي هو أفضل المقامات.

إن قصة الخضر ﵇ تضع بشكل مباشر حقيقة أن العقل لا يمكنه إدراك حقيقة الأحداث والوقائع إلا بعد الجلوس والتفكر بأسبابها. فعند زوال الأسباب والأعذار، يبقى العقل في عجزه فلا يدرك الحكمة.

من جهة أخرى، إن موسى ﵇ هو نبي صاحب شريعة وهو مكلف بتطبيقها. والخضر ﵇ هو صاحب علم أعطاه اللَّه له من لدنه يتصرف من خلاله.

وما اعتراض موسى عليه السلام على أفعال الخضر إلا بسبب الدقة في تطبيق حدود شريعته. لأن موسى عليه السلام هو مكلف بظاهر الأمور والحال، أي أنه وقف على علم الزمان الذي هو موجود فيه، وهو يحكم على الأمور والأحداث من خلال هذا العلم.

أما العلم الذي يمتلكه الخضر، فهو علم يعتمد على المستقبل، ولهذا فإنه كان يظهر لموسى عليه السلام تجلي القدر. ولهذا، فإن تصرفات الخضر عليه السلام، وتصرفات موسى عليه السلام من اعتراضات على الأول، لم تكن كل منها تعارض الآخر من منظور العلم الإلهي. فالخضر عليه السلام كان يتحرك ضمن حدود تتجاوز شروط الحكم العقلية بناءً للعلم الذي يمتلكه.

إذن، إن هناك من الحقائق ما يمكن التصرف من خلالها بما لا يمكن للعقل أن يقبل به. وبالتالي، فإن الاستناد إلى العقل وحده في البحث عن الحقيقة هو أمر غير صحيح. فكما أن العين لا ترى إلا لمسافة محددة، وكما أن الأذن لا تسمع إلا من مسافة محددة، فالعقل أيضاً هو محدود في فهمه للأحداث والحقائق. وعندما يتم تخطي حدود هذا العقل، فإن الإدراك يقع في العجز المطلق. وفي هذه الحالة، فإن من الواجب تسليم الفؤاد إلى الحق سبحانه وتعالى.

كذلك الأمر، يتوصل الإمام الغزالي أيضاً إلى قناعة بأنه لا يمكن لأحد الوصول إلى الأسرار الإلهية بالعقل، ووجد ضرورة



العبور إلى الحياة القلبية بما وراء العقل، وأنه بهذه الطريقة وحدها يمكن الوصول إلى الحقيقة المطلقة.

كذلك الأمر، تمكن الإمام الغزالي رحمه اللّٰه في كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» أن يقض ويُبطل فلسفة الفلاسفة ويثبت عجز العقل. ويخبر عن حالته المعنوية بهذا الشكل فيقول:

«حصرت عقلي؛ فوصل إلى درجة الإنفلاق وتعرفت بعد نقطة معينة بالعجز المطلق. فأدركت أن لا حيلة لنا إلا الحصول على الفضائل الروحانية من النبي ﷺ لنتمكن من فهم الأسرار الإلهية!

فدعوت اللّٰه تعالى والتجأت إليه. وتمكنت بنتيجة التربية المعنوية كالذكر والرياضة والتفكر من الإلتقاء بروحانية رسول اللّٰه ﷺ ونجوت.»

ولهذا، فإننا عند تحليل الأحداث في قصة الخضر عقلانياً فإننا سنجد التالي:

إن ثقب السفينة هي من وجهة النظر الظاهرية ظلم وبعيدٌ عن الإنصاف. أما في الحقيقة فإنها منع لغصب هذه السفينة التي هي مصدر رزق هؤلاء الفقراء من الاستيلاء عليها من الظالمين.

كذلك الأمر، إن ظاهر الأمر في قتل الولد هو جريمة. أما حقيقة هذا الأمر فهو حماية للأب والأم الصالحين بل وحماية للطفل نفسه يوم القيامة.



كذلك الأمر، إن إصلاح الحائط الذي كان على وشك الانقضاض في القرية التي طردوا منها، هو في ظاهر الأمر لا يتوافق مع المنطق. أما في حقيقة الأمر فهو المحافظة على الأمانة ليتيمين مظلومين.

إن أسرار هذه الأحوال هو أمر لا يمكن ظهوره إلا من خلال العلم من لدنه ﷻ (القلب). ولهذا السبب، فإن سر القدر لا يمكن إدراكه من خلال العقل وحده. لأن إدراك القدر بشكل كامل هو كيفية تفوق إدراك البشر.

يروي البخاري في سياق المعاني التي تحملها هذه القصة حديثاً شريفاً عن النبي ﷺ يقول فيه:

"يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوْ كَانَ صَبَرَ لَقُصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا" (البخاري، الأنبياء، ٢٧/ ٣٤٠١؛ أحمد بن حنبل، الجزء ٥،١١٨)

ويخبر مولانا قدس اللّٰه سره بمثال جميل أن العلم من لدنه هو قسمة ونصيب، وأنه تلطف من اللّٰه تعالى إلى من يمتلكون السداد القلبي فقط. يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن النور الإستثنائي الذي رآه يعقوب في وجه يوسف، كان أمراً خاصاً به. فلم يحظ إخوة يوسف برؤية نوره. لأن عالم أفئدة إخوته كان بعيداً عن رؤية وفهم حقيقة يوسف»

«إن العشق غذاء الروح. وغذاء الحياة الجوع»



«كان في يعقوب جاذبية نحو يوسف. ولهذا، فإن رائحة قميص يوسف قد وصلت إليه على الرغم مِن أنه كان ما زال بعيداً جداً. أما أخو يوسف الذي كان يحمل القميص كان محروماً من الإحساس بهذه الرائحة»

«هناك علماء كثيرون لا نصيب لهم في العرفان. فهو حافظ للعلم ولكنه ليس حبيباً لله...»[١٣]

ثلاثة رجال صالحون

كان بين بني إسرائيل رجال صالحون أيضاً. فيحدثنا رسول اللَّه ﷺ عن ثلاثة منهم فيقول:

"خَرَجَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُمُ المَطَرُ، فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ:

اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَرْعَى، ثُمَّ أَجِيءُ فَأَحْلُبُ فَأَجِيءُ بِالحِلاَبِ، فَآتِي بِهِ أَبَوَيَّ فَيَشْرَبَانِ، ثُمَّ أَسْقِي الصِّبْيَةَ وَأَهْلِي وَامْرَأَتِي، فَاحْتَبَسْتُ لَيْلَةً، فَجِئْتُ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ،

١٣. للإضطلاع على التفاصيل بشأن هذا الموضوع يمكنكم قراءة كتاب التصوف من الإيمان إلى الإحسان لمؤلفه عثمان نوري طوبّاش ص ٣٤١ – ٣٦٨



قَالَ: فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبُهُمَا، حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ،

قَالَ: فَفُرِجَ عَنْهُمْ،

وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ،

فَقَالَتْ: لاَ تَنَالُ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِائَةَ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا

قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ،

فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً،

قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمُ الثُّلُثَيْنِ،

وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقٍ مِنْ ذُرَةٍ فَأَعْطَيْتُهُ، وَأَبَى ذَاكَ أَنْ يَأْخُذَ، فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ:



يَا عَبْدَ اللَّهِ أَعْطِنِي حَقِّي،

فَقُلْتُ: انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا فَإِنَّهَا لَكَ،

فَقَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟

قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ وَلَكِنَّهَا لَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فَكُشِفَ عَنْهُمْ" (البخاري، البيوع، ٩٨، ٢٢١٥)



إن هذا الحديث الشريف هو دليل على التوسل بالأعمال في التصوف. ومن جهة أيضاً، إنه أوضح مثال على ظهور اللطف الإلهي بشكل مؤكد إلى من يجعل حياته بالدرجة الأولى هي مرضاة اللَّه تعالى. ولهذا، يجب على العبد أن لا يتبع رغباته ومطالبه الشخصية مبتعداً عن أوامر اللَّه ونواهيه، بل يجب عليه أن يكون تابعاً لمرضاة خالقه، ومسلماً إليه. لأن الرضى والتسليم هي الفاكهة الأخيرة التي تعبر عن محبة العبد لربه. علماً أن خير مرتبة يمكن للمرء الوصول إليها في طريق الحق هي أن يحصل العبد على مرضاة اللَّه تعالى وهو ما يكون مكافأة للعبد على مرضاته عن اللَّه عزَّ وجلَّ

يمكن وصف هذه الحالة التي يتميز بها الصالحون عبر الآية الكريمة: ﴿...**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**...﴾ (البينة، ٨)



جار موسى عليه السلام في الجنة

بحسب ما يروى، فإن موسى عليه السلام جلس في يوم من الأيام يناجي ربه فقال:

«- يا ربي! من هو جاري في الجنة؟»

فيجيبه اللّٰه تعالى بقوله:

«- إن عندي عبداً أحبه يعمل قصاباً في المكان الفلاني. ولكن لديه عملٌ آخر أهم بكثير من عمله كقصاب، إن دعوته إليك لا يتمكن من القدوم! هو جارك في الجنة، يا موسى!.»

فيذهب موسى على فوره لرؤية هذا القصاب. ويحدثه دون أن يخبره بأنه كليم اللّٰه موسى فيقول:

«- لقد أتيت إليك ضيفاً.»

فيتبسم القصاب (اللحام) في وجه هذا الرجل الذي يرى فيه وجهاً منيراً مختلفاً عن بقية الناس من مختلف النواحي ويدعوه إلى منزله. ويجلسه في صدر المنزل ويعزه ويقدم له الضيافة. ويصنع له اللحم بيديه ويضعها أمامه.

ومن ثم يخبر موسى عليه السلام بأن لديه أمراً مهماً يجب عليه إنجازه لأنه لا يحتمل التأخير والإنتظار فلا ينتظرنه وليبدأ بطعامه. ومن ثم يقوم بتحضير ما بقي من اللحم الذي أعده على شكل لقم صغيرة.



ثم يقوم بإنزال سلة كبيرة بعناية معلقة على السقف ويبدأ بإطعام هذه اللقم الصغيرة لامرأة عجوز فيها أصبحت لشدة عجزها صغيرة الحجم. وبعد ذلك يغسل فمها جيداً. وقام بتنظيفها. وأظهر لها من المحبة والعطف، ومن ثم أعادها إلى المكان الذي كانت فيه بكل عناية. وبينما كان يقوم بذلك، كانت تلك المرأة العجوز تدعو بشكل مستمر لهذا الرجل.

وكان موسى عليه السلام قد شاهد هذه السلة في دكان اللحام ولكنه لم يسأل بأي شيء عنها. وانتظر بكل حيرة.

بعد أن انتهى هذا اللحام من عمله عاد إلى جوار موسى عليه السلام ورأى أنه لم يبدأ بعد بطعامه. فقال له سائلاً:

«– يا ضيفي ذو الوجه المشرق! لماذا لم تبدأ بالطعام؟»

فقال له موسى عليه السلام:

«– لا آكل حتى تخبرني سر هذه السلة!»

فيقول اللحام عند ذلك:

«– يا ضيفي! إن المرأة العجوز التي في داخل هذه السلة هي أمي. ولشدة عجزها خرت قواها. وليس لها أحد يرعاها. ولهذا فأنا أضعها في هذه السلة وأرفعها عالياً خوفاً من أن يزعجها أي حيوان عندما أضطر لتركها وحدها. إن الراحة التي في قلبي هي عندما أقوم

بخدمتها. أقدم لها وجبتي طعام في اليوم، وأقوم بكل وظائفي تجاه أمي الحبيبة بكل محبة ورضى!.»

فيسأله موسى عليه السلام:

«- إذن، بينما تقوم بخدمتها تهمس إليك بشيء ما، فماذا تقول لك؟»

فيقول اللحام:

«- تدعو لي أمي بينما أقوم بخدمتها: «جعلك اللّٰه في الجنة جاراً لموسى عليه السلام!». وأجيبها على هذا الدعاء بقولي: «آمين». ولكن، أنى لي من العمل أن أكون جاراً لهذا النبي العظيم، وأين أنا؟!.»

عندها يبتسم موسى عليه السلام، وكان لم يفصح له عن نفسه بعد، وقال له:

«- أيها الرجل الصالح، مبارك لك من الأخبار! ها أنا ذا موسى. أرسلني اللّٰه تعالى إليك. وقال لي: «لقد جعلت هذا العبد الصالح جاراً لك في الجنة لقاء ما يقوم به من نجاح في اكتساب دعاء أمه له بما لم يقصر في حقها من الخدمة.» فمبارك لك اللطف الإلهي بالشكر.»

فيقبل اللحام يد موسى عليه السلام وعيناه مغرورقتان بالدمع فرحاً. وتناولا طعامهما بكل سرور وشكر وراحة.



فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته

يقول اللَّه سبحانه وتعالى في وصفه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب، ٦٩)

إن موسى عليه السلام هو عند اللَّه نبي قيم وشريف جداً. ومن مظاهر هذا الأمر قيمة موسى وأثاره هو أنّه قد تشفع لأخيه أمام اللَّه تعالى وأراده أن يكون وزيراً له. فأجاب اللَّه تعالى دعاءه وأعطاه مراده وجعل أخاه هارون نبياً. لهذا تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم، ٥٣)

ويخبرنا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فيقول:

"**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لاَ يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ...**" (البخاري، الأنبياء، ٢٨/ ٣٤٠٤)

وبحسب ما يروي عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قسم قسماً، فقال رجل: "- إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه اللَّه!"

فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال:

"**يرحم اللَّه موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**" (البخاري، الأنبياء، ٢٨/ ٣٤٠٤)

لقد جعل اللّه تعالى لموسى عليه السلام ولقصَّته مكاناً واسعاً في القرآن الكريم، وذكره مع النبي عليه الصلاة والسلام جنباً إلى جنب في مواضع كثيرة، كما ذكر القرآن الكريم والتوراة بمثل ذلك من المقاربة.



وبالنسبة لشمائل موسى عليه السلام، يروي لنا ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"رَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَمُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا عِيسَى، فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ"

فسأل الصحابة الكرام عن إبراهيم عليه السلام

فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى نفسه:

"اُنظروا إلى صاحبكم" (أحمد بن حنبل، المسند، ١، ٢٩٦)

وبالنسبة لوفاة موسى عليه السلام، فهناك العديد من الروايات المختلفة. ولكن أشهر هذه الروايات هي أنه توفي عن عمر مئة وعشرين سنة ودفن في جوار القدس.

عليه السلام!...



اليهودية اليوم

مفهوم الرب في اليهودية

يتحدث اليهود عن إيمانهم باللَّه الواحد. ولكن، وبالنظر إلى التوراة اليوم في بعض أجزائها، فإننا نجد العديد من الخصائص الأنتروبومورفية. والأنتروبومورفيزم: هي الإيمان الذي يصف الآلهة بالبشر أو تُشَبِّهما ببعض المخلوقات. وهذا الإيمان هو بعيد عن الخيال وعن ما وراء الإدارك، أي بعيد عن اللَّه المنزه المتعال.

ويتلفظ اسم الجلالة في الديانة اليهودية بقولهم يهوا (ياهوفا) وكلمة إلوهيم بأشكال مختلفة. ويتحدث العلماء اليوم عن التوراة التي يذكر فيها اسم اللَّه «يهوا» في بعض مقاطعه فيقال عن هذه المقاطع اسم «نصوص يهوا».

هذه الفقرات التي يعتقد أنها كتبت في القرن العاشر قبل الميلاد هي مقاطع فيها الكثير من الحس البشري، ويمكن رؤية الفهم الأنتروبومورفية فيها بشكل واضح جداً. أما المقاطع التي يذكر فيها اسم «إلوهيم» فهي مقاطع تسمى «النصوص الإلوهيمية». هذه النصوص التي يعتقد بأنها كتبت في القرن السابع قبل الميلاد جمعت فيما بعد مع باقي النصوص وتم الحصول على التوراة المعروفة الآن.

ويهوا هو بالنسبة لليهود الإله القومي في نفس الوقت. لقد اختار الرب الأمة اليهودية وحصر اهتمامه ومديحه بهم فقط. وخلق أيضاً باقي المخلوقات والبشر؛ ولكنه لم يعطها نفس القيمة التي يعطيها لليهود. فالقوم السيد هو الشعب اليهودي. وبسبب هذه العقيدة فإن اليهودية اليوم هي بعيدة كل البعد عن إقامة نظام كوني شامل للعالم يشمل جميع البشرية.

إن تقديمهم الرب بالصفات الأنتروبومورفية (البشرية) قد فسر بعد ذلك من قبل علماء اليهود بأنها جميعاً صفات وأمور مجازية. فبحسب عقيدتهم، لقد تحدث الرب إلى الناس بلغة يفهمونها. ولهذا فإن من الطبيعي وجود مثل هذه الصفات الأنتروبومورفية (البشرية) المماثلة.

ولكنه لا يوجد في التوراة اليوم ما يقوم بتكذيب هذا التأويل حول الصفات البشرية التي يتم تقديم الرب بها. ويمكن أن نشرح ادعاءاتهم من خلال بضعة من الأمثلة التالية:

عندما رأى الرب ما يقوم به الناس من سيئات كثيرة ندم على خلقهم وأهلكهم بالطوفان. وهذه المرة، يحزن حزناً شديداً على إهلاكهم ويقول بأنه لن يهلك الدنيا بهذا الشكل مرة أخرى. (التكوين، ٦/ ٥-٧؛ ٨/ ٢١-٢٢)

وهكذا، فإننا نجد بشكل واضح إقحام الرب بالصفات البشرية كالخطأ والشعور بالندم.



وبنفس الشكل، عندما يعصي بنو إسرائيل ربهم، يقرر الرب أن يهلكهم جميعاً. ولكن، يتدخل الأنبياء لدى الرب يحاولون إقناعه بالعدول عن هذا القرار بقولهم: «لا تفعل!». فيعدل الرب عن القرار الذي قام باتخاذه. وهكذا، يشعر الرب بعد ذلك بندم عميق لما اتخذه بحقهم من قرار بإهلاكهم. (المخرج، ٣٧/ ٩-١٢؛ أموس، ٧/ ٢-٦)

بل إن الرب وأمام عصيان بني إسرائيل الذي لا يعرف له نهاية يذكر في كتاب ياراميا قوله:

«لقد تعبت من كثرة الندم[١٤]!.» (ياراميا، ١٥/ ٦)

كذلك الأمر يذكر في التوراة قوله:

«خلق الرب الكون في ستة أيام. وارتاح في اليوم السابع» (التكوين، ٢/ ٣) في مثال لنص ينسب العجز إلى اللّٰه.

في حين أن الراحة والندم والتعب هي صفات للبشر والمخلوقات وهي تفيد العجز والضعف.

والأغرب من ذلك، هو وجود عبارات في التوراة لا يمكن لها أن توجد في كتاب أنزل بالوحي كالعبارات التالية:

«يقوم أبناء اللّٰه بعد أن رأوا جمال بنات آدم بالزواج من كل من اختاروه منهن.» (التكوين، ٦/ ٢)

١٤. إن كلمة الندامة هذه حولت في التراجم الأخيرة إلى كلمة الرحمة



كما يتحدث التوراة في الجزء المسمى التكوين، أن الرب ينزل إلى إبراهيم عليه السلام مع اثنين من الملائكة على هيئة البشر وينزل ضيفاً عنده يأكل ويشرب معهم ومن ثم يغسل رجليه ويستريح. ومن ثم يرسل الرب ملائكته إلى **سدوم وغمورة** ليهلكوا قوم لوط.

ولكنه يتردد في إخبار إبراهيم بذلك، ولكنه يخبره في النهاية. وأمام هذا الأمر، يقوم إبراهيم بمساومة تستمر مدة طويلة بينه وبين الرب محاولاً إقناعه بالعدول عن إهلاك قوم لوط لما فيهم من الناس الصالحين. (التكوين، ١٨/ ١-١٥)

وفي التوراة أيضاً، يعرض للنقاش بين يعقوب عليه السلام مع الرب يهوا، في حادثة ملفتة للإنتباه بشدة. وبحسب ما يروى فيه، فإن يعقوب عليه السلام يتجه مع أفراد عائلته إلى جوار خاله في أرض كنعان، فيلتقي في الصحراء برجل يتصارع معه حتى تؤلمه جميع أطرافه.

وبرغم من قول يعقوب عليه السلام:

«- دعني أذهب!»، إلا أن الرجل الذي كان يصارعه لا يفلته، ومن ثم يقول ليعقوب عليه السلام:

«من الآن فصاعداً لن يقال لك يعقوب وإنما إسرائيل (بحسب اليهود: الذي صارع الرب). لأنك ربحت بمصارعتك مع الناس والرب!.» (التكوين، ٣٢/ ٢٢-٣٢)



وبحسب ما يروى في التوراة أيضاً فإن يعقوب عليه السلام وأثناء مصارعته للرب كُسِرَتْ عظمة فخده.

ولهذا، فإن اليهود حتى اليوم لا يأكلون الأعصاب الموجودة على عظام الفخذ.

إن النص في التوراة الذي يقول: «إن الرب تقريباً قد تجسد ليعقوب عليه السلام على شكل إنسان وصارعه»، هي بشكل واضح عبارات تظهر عقيدة الأنتروبومورفية.

وهذا الأمر هو بكل ما فيه بعيداً كل البعد عن عقيدة التوحيد، وهي لا تعبر إلا عن عقيدة الإيمان بإله يمتلك صفات منتقصة ومحرومة من صفات الكمال.

وتمتلك العقيدة الهندوسية أفكاراً مماثلة لهذه الأفكار. فهناك أيضاً ينزل الرب إلى الأرض متجسداً في جسد إنسان أو حيوان. ويسمى هذا الإيمان في العقيدة الهندوسية «التجسد الرب».

ويذهب علماء الدين اليهود إلى تأويل وتفسير القصص المماثلة في العهد القديم بمختلف الأشكال.

فتفسر هذه الحادثة مثلاً في تفاسير التوراة بقولهم؛ «إن الرجل الذي يصارع يعقوب ليس الرب، وإنما ملك تمثل بشكل الرب». وحتى لو أن الأمر كذلك، فإنه في هذه المرة يمكن للمخلوق أن يتمثل بشكل الرب، وهو أمر لا يمكن تأويله.



علماً أنه بعد ذكر حادثة المصارعة، يكمل النص في التوراة بقوله (موسى): «رأيت الرب وجهاً لوجه وبقيت روحي على قيد الحياة!» (تكوين ٣٢/ ٣٠)، وهو ما لا يمكن أبداً تأويله. فالمعنى واضح جداً وبيّن. ومن ثم فإن موقع هذه الحادثة في التوراة غير معروف السبب، ويجهل تماماً ضرورتها وحكمتها. فبالرغم من أن كل حادثة تتطلب أسباباً مجيبة لها، فإنه لا يوجد أي سبب يتم إيضاحه حول هذه الحادثة.

وكما أشرنا أعلاه، فإن اللّٰه ﷻ «سبحانه» الذي هو مُنَزَّهٌ وبعيد عن كل الصفات البشرية، وبشكل معاكس لحقيقته المتثلة بصفات الكمال، فإن التوراة تسند إليه العجز البشري. ويمكن ذكر بعض هذه النصوص المماثلة من التوراة المحرف كقولهم:

«ويستمع موسى إلى قومه كلاً في عشيرته وعلى باب خيمته يجلس ويجهش بالبكاء؛ ويلتهب الغضب الإلهي؛ ويصبح الرب في نظر موسى سيئاً. فيقول موسى للرب:

«– لماذا تتصرف بالسوء مع عبادك؟ ولماذا لم أجد اللطف في عينك فقمت بتحميلي حمل هذا القوم كاملاً؟ فهل أنا من حمل بكل هذا القوم؟ وهل أنا من ولد بهم، فتقول لي: «لالا، كما يحمل الطفل الرضيع، إحملهم إلى صدرك إلى ديار أجدادهم التي وعدت لهم؟» من أين أجد اللحم لأطعم كل هذا القوم؟ لأنهم يبكون قائلين لي: «أعطنا لحماً نأكله». أنا لا يمكنني أن أحمل كل هذا

القوم وحدي، فهذا حمل ثقيل علي. وإن كنت تتصرف معي هكذا، فإنني أتضرع إليك، فإن كان في عينك لطف، فاقتلني الآن؛ فلا أرى سفالتي!.» (الأرقام، ١١/ ٤-٦، ١٠-١٥)

إن هذه العبارات التي تنسب الظلم إلى اللّٰه تعالى، تظهر موسى عليه السلام في المكان الذي يجب عليه التضرع إلى اللّٰه والدعاء إليه، رجلاً يظهر العصيان والتحدي، فكيف لهذا الحال أن يكون أمراً قابلاً للتأليف في كتاب مقدس؟

كذلك الأمر، تذكر هذه العبارات في التوراة بشكل لا يتفق مع الإيمان باللّٰه: «بينما يكون الرب متنزهاً في حدائق الجنة في برودة النهار، يبحث عن آدم وحواء. وكانا قد اختبآ خلف إحدى الأشجار. وعندما لم يجدهم الرب نادى: «أين أنت؟» مخاطباً سيدنا آدم. فيقول آدم «عندما سمعت صوتك في الجنة خفت. فقد كنت عارياً، ولهذا اختبأت» (التكوين، ٣/ ٨-١٠)

إن كل هذه المواضيع، ومهما أولت معانيها، فإنه يفهم بأن التحريف لم يذهب التأويل منها.

واليوم، إن كثيراً من العلماء، يضعون هذه القصص الموجودة في التوراة في مرتبة متأخرة، ويتحدثون عن تأثر من كَتَبَ هذا التوراة بتأثيرات الإيمان بالآلهة الخيالية والوثنية التي وجدت في مصر القديمة وبابل، وبأن هذا الإيمان كان ذا تأثير على كل من اليهود وكتبة التوراة.

التوراة

إن التوراة الموجودة في أيامنا هذه هي القسم المؤلف من الأجزاء الخمسة الأولى من الكتاب المقدس الموجود. وهي الجزء الأهم في الكتاب المقدس اليهودي. وهو مكون من الكتب التكوين، الخروج، الليفيين، الأعداد والتثنية.

وتذكر هذه الكتب الفترة بَدْءً من البعث إلى حين وفاة موسى عليه السلام. كما تحتوي هذه الكتب على الأحكام الدينية.

ولكن الباب الأخير من كتاب التثنية، يتحدث عن وفاة موسى عليه السلام، ودفنه، ومراسم الحزن لقومه. مع أن التوراة الصحيحة أنزلت في حياة موسى عليه السلام. فكيف لها أن تنقل حادثة كهذه قبل أن تحدث هناك؟ ويعمد اليهود على تأويل هذا الأمر أيضاً. فيقول بعضهم «إن الرب أخبر موسى بذلك. فقام بكتابة ذلك في التوراة قبل أن يموت». ويقول قسم آخر منهم «أن يشوع هو الذي قام بكتابة ما حدث لبني إسرائيل بعد وفاة سيدنا موسى».

ولكن التحدث عن مراسم تجهيز ودفن موسى عليه السلام هي دليل واضح على التدخل البشري في التوراة.

والجزء الثاني من الكتاب المقدس عند اليهود يتحدث عن «الأنبياء» (نفييم). ويوجد هنا خمسةٌ وعشرون كتاباً. والجزء الثالث «كاتوفيم» (الكتابات، الكتب) هو الجزء الذي يتألف من ثلاثة عشر قسماً.

أي أن الكتاب المقدس اليهودي يتألف من التوراة ٥ + الأنبياء ٢١ + الكتب ١٣ ما مجموعه ٣٩ جزء. ومجموع هذه الأجزاء يقال عنها عند اليهود «تاناك» (ت= التوراة، ن= نيفييم، ك= كاتوفيم) بينما يقول عنها المسيحيون «العهد القديم».

ولكن اليهود يقولون بأن هذه المجموعة تتألف من أربعة وعشرين، بل وأن الأحرف العبرية هي مؤلفة من عشرين حرفاً، بينما يقول المسيحيون بأنها تسعة وثلاثون.

ومع أن المحتوى هو نفسه، فإن هذا الفرق هو لكون المسيحيين يقبلون كل كتاب منها على أنه كتاب مستقل، بينما يعتبر اليهود بعض الكتب على أنها كتب متصلة يجمعونها في كتاب واحد.

والأجزاء التي تلي التوراة هي الأجزاء التي تم إضافتها بعد وفاة موسى عليه السلام من قبل الأنبياء من بعده.

فعلى سبيل المثال، أتى النبي يوشع (يشو)بعد موسى عليه السلام وأضيف معه «كتاب يشو»؛ ثم أضيفت «كتب صامويل» وهكذا. واستمر هذا الأمر على هذا الشكل إلى أن وصل الرقم إلى العدد ٣٩ الحالي.

وقد تم الإعلان والقبول بأجزاء التوراة التي نسبت إلى موسى عليه السلام من العهد القديم بشكل رسمي في السنوات ٩٠ و١٠٠ قبل الميلاد (أي بعد وفاة موسى عليه السلام بحوالي ١٣٠٠ عام). وتم تحديد العهد القديم بشكل محدد في هذا التاريخ في اجتماع المجلس

اليهودي (جامنيا سينودون) وذلك باختياره من بين عدة نسخ كانت موجودة.

التلمود

ويتحدث اليهود إضافة إلى التوراة أيضاً عن الوحي الذي أنزل على موسى عليه السلام من اللَّه تعالى قولاً بما يسمى لديهم بالتلمود. ويضع اليهود التلمود بقيمة مماثلة للتوراة، ويعتبرون من لا يقبل به خارجاً عن اليهودية.

والتلمود هو عبارة عن توضيحات يتحدث بها موسى عليه السلام تفسيراً للتوراة. وكانت هذه التفسيرات في البداية هي تفسيرات شفهية. ثم نقلت بعد ذلك كتابة. وقيل عن ذلك «ميشنا".

وكانت الميشنا تحتوي على توضيحات حول تطبيق الأوامر الدينية. وقد نظم يهود فلسطين وبابل في مدارسهم أبحاثاُ حول هذه الميشنا. وتشكَّل التلمود في نهاية الأمر.

واليوم، يوجد نسختان مختلفتان للتلمود هما تلمود بابل وتلمود القدس. وهما قد دونا في كل من القرن الرابع والخامس قبل الميلاد.

وتعني ميشنا التكرار، أما كلمة التلمود فتعني التعليم (إعطاء المعلومات). وفي هذه النقطة يعتبر التلمود هو التفسير الذي يحتوي



على التوضيحات حول أحكام التوراة ومجموعة الإجتهادات. لأن الأحكام التي في التوراة هي أحكام عامة. فعلى سبيل المثال يقول:

«لن تزرع أرضك في السنة السابعة!»

«لن تجعل من السبت يوم عمل!»

ولكنه لا يعطي تفاصيل هذه الأمور. فهي موجودة في التلمود.

ولكن، عند الأخذ بعين الإعتبار كيفية ظهور التلمود، فإنه يمكن مشاهدة التمايل البشري بشكل أوضح من النصوص الإلهية بشكل واضح جداً.

إن الفكر الحاكم في التلمود هو الادعاء بأن اليهود هم عرق متميز. و»الأوامر العشرة» هي أمور تعني اليهود فقط، ولا تحمل أي معنى أو تكليف لغير اليهود.

وخلاصة الأمر، إن العنصر الحاكم في الكتب المقدسة اليهودية يأخذ أساساً له بكون بني إسرائيل هم شعب اللّٰه المختار. ولهذا، فإن الرواية التاريخية في العهد القديم هي في مقدمة الرسالة المفترضة تقديمها.

وتعتبر الأحداث الفرعية وسجلات النسب الطويلة والمملة أبرز أمثلة على ذلك. إن الكتاب المقدس اليهودي هو إن أردنا وصفه بجملة واحدة: تاريخ بني إسرائيل وقصة علاقاتهم مع الرب. وبهذا التوجه، فإن اليهودية هي دين قومي محروم من إيصال



الإنسانية إلى السعادة وهي بالتالي بعيدة عن أن تكون ديناً كونياً شاملاً وعاماً.

مفهوم النبوة

في الديانة اليهودية يوجد ثمانية وأربعون نبياً بدءً من إبراهيم عليه السلام. ويعتبرون أنه لم يأت نبي قبل ذلك.

ومن هؤلاء الأنبياء الثمانية والأربعين يوجد ستة عشر نبياً كنسياً، أي نسب إليهم كتابات في الكتاب المقدس. ومن بينهم أيضاً ستة أنبياء من الإناث.

وبحسب التوراة، يوجد نوعان من الأنبياء، نبي حقيقي وآخر مزيف. فمن كان من الأنبياء خارج هؤلاء الأنبياء الثمانية والأربعين فهم أنبياء مزيفون بنظرهم. وبالتالي فهم لا يعترفون بنبوتهم.

الأنبياء الحقيقيون؛

١. يجب عليهم أن يدعوا الناس إلى عبادة اللّٰه وأن لا يتبعوا إلهاً غير اللّٰه. (يارāميا، ١٤/ ١٤، ٢٣/ ٢١،٣٢)

٢. يجب عليهم أن يذكروا أخباراً عن المستقبل وأن تتحقق أقوالهم في ذلك. (التسنية، ١٨/ ٢٠-٢٢)

إضافة إلى هذين الشرطين، فإنهم لا يتحدثون عن الشروط



الخمسة الواجبة وجودها عند الأنبياء كما يبين الدين الإسلامي. وبحسب الديانة اليهودية يمكن للنبي أن يلجأ إلى الحيلة والمكر، وأن يكون زانياً أو ظالماً؛ ويمكنه أيضاً أن يكذب؛ كما يمكنه أن يتخذ طبعاً أنانياً لا يفكر إلا في نفسه ...إلخ

بل إن اليهود أثناء حديثهم عن أنبيائهم يتناقصون مع هذين الشرطين اللذين تم وضعهما من قبلهم. فعلى سبيل المثال، فإنهم يتهمون هارون عليه السلام بأنه صنع عجل الذهب وأمر الناس بعبادته. (المخرج، ٣٢/ ١-٥، ٢٤، ٣٥) ويعتبر اليهود هارون عليه السلام مساعداً لموسى عليه السلام أكثر مما يعتبرونه نبياً فهو كاهن بالنسبة إليهم. ويذكرون الحادثة بقولهم: «إن هارون صنع الصنم رضوخاً لضغوط قومه»، وهو مهما تم تأويله لا يمكن له أن يتفق مع وظيفة النبوة وحقيقتها. لأن الأنبياء معصومون بالتأييد الإلهي.

ويرفض القرآن الكريم بشدة هذا الافتراء مبيناً أصل هذه الحادثة. وهو بكون هارون عليه السلام، ليس صانع الصنم، وإنما هو من حاول أن يمنع صناعة هذا العجل الصنم، بل كان نبياً وجهاً لوجه أمام محاولات الأذية والقتل من قبل بعض بني إسرائيل ممن اتجه إلى الوثنية.[١٥]

أي أن مفهوم النبوة أيضاً، كما هو مفهوم الألوهية لديهم، هو

١٥. أنظر: الأعراف، ١٥٠؛ طه، ٩٠ -٩٤



بكيفية خاصة بهم. فمفهوم النبوة لديهم يحتوي أيضاً على الكثير من التضارب في نظراته.

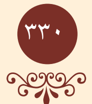
علماً أن سيدنا آدم وسيدنا إدريس وسيدنا نوح وغيرهم لا يعترف بهم أنبياء بالنسبة إليهم. ولكن لهؤلاء الأنبياء وظيفة نبوية ولكن بدرجات أدنى. ولكن، وكما يذكر العهد القديم، فإن اللَّه تعالى قد أوحى إلى كل من هؤلاء الأنبياء بين الفينة والآخرى. كذلك الأمر.

وعلى الرغم من قبولهم بسيدنا داود وسيدنا سليمان ملوكاً، إلا أنهم أيضاً كانوا بحسب كتبهم ممن كان على صلة بالرب من خلال الوحي.

ويصف اليهود بعض الأنبياء بصفات غريبة لا يمكن أبداً قبولها أو أن تتناسب مع مقاماتهم. فبحسب مزاعمهم:

أ- كان نوح عليه السلام بعد الطوفان يرعى سهول العنب ويعصرها صانعاً منها الخمر يشربه ويسكر. وفي إحدى المرات، يشرب الخمر لدرجة كبيرة يفقد فيها وعيه ويخر بلا حراك في خيمته. وفي هذه الأثناء، يدخل عليه ابنه حام. فيرى والده عارياً... ومن ثم يخبر بقية إخوته سام ويافث. فيأتيان ويستران جسد أبيهما. وعندما يفيق نوح من سكرته، يشعر ويفهم ما قام به ابنه الصغير من إساءة إليه...

وأمام هذا الأمر، يلعن نوح ابن ابنه، أي حفيده كنعان وليس ابنه



الذي ارتكب به ذلك الفعل. ولهذا، يقبل اسم كنعان عند اليهود بأنه من أسوأ الأسماء. (التكوين، ٩/ ٢٠ – ٢٩)

ب– بحسب ما ورد في التوراة، فإن لوطاً عليه السلام زنى ببناته. فبحسب أقوالهم: بعد أن هلك قوم **سدوم وغمورة**، ينجو لوط وابنتاه الإثنتان. فيلتجئُ وابنتاه إلى إحدى المغاور. وعندما يغفو لوط تقول ابنتيه:

«– لم يبق في الوطن فرد واحد نصل إليه ليستمر النسل. فلنشرب يا أبانا الخمر!..» ويفعلون الزنا بعد ذلك معه. (التكوين، ١٩/ ٣٠ – ٣٦)

ج– عملاً منه بالحصول على درع أبيه، يقوم يعقوب عليه السلام بالإحتيال على أخيه التوأم إيس. (التكوين، الباب ٢٧) كذلك الأمر، يقول اليهود بأن سيدنا يعقوب عليه السلام يحتال على والد زوجته ضمن الإتفاقية التي تمت بينهما فيفصل أفضل الغنم إلى حصته. (التكوين، ٣٠/ ٣٢ – ٤٢، ٣١/ ٧ –١٦)

د– كان داود عليه السلام ملكاً كثير الزوجات. وعلى الرغم من ذلك، عندما رأى زوجة قائد جيشه آريا مال إليها قلبه وزنى بها. ومن ثم يقتل آريا بحيلة من حيل الحرب. فيعاقب بموت مولوده الأول. وكان ابنه الثاني هو سليمان عليه السلام. يذكر في الكتاب المقدس اليهودي هذا الفعل ويقولون عن داود عليه السلام: «فعل القبيح بنظر ربه» فقط. (ساموئيل الثاني، ١١/ ٢ – ١٢/ ٢٢)



هـ- كان لسليمان عليه السلام زوجة واحدة. ولكنه هو الآخر يجري خلف النساء الوثنيات في آخر عمره ويعبد الأصنام. وهكذا ينقل عن سليمان عليه السلام بأنه «يفعل القبيح بنظر ربه». (الملك الأول، ١١/ ١ - ٧)

إضافة إلى هذه الافتراءات، ينسب لبعض أقارب الأنبياء أيضاً أموراً لا تليق بهم. فعلى سبيل المثال فإن يهودا ابن يعقوب عليه السلام يزني مع عروسه. (التكوين، ٣٨/ ١٢-٢٦).

كذلك الأمر فإن ابن يعقوب الآخر روبين يجامع جارية أبيه (التكوين، ٣٥/ ٢٢). كما أن أحد أبناء داود يزني مع اخته بالتبني (ساموئيل الثاني، الباب ١٣)، ويزني ابن آخر له مع جارية أبيه (ساموئيل الثاني، ١٦/ ١٥، ٢٠/ ٢٣)

بالطبع إن كل هذه الأقاويل هي افتراءات قبيحة أطلقها اليهود. وهم لم يقفوا عند حد الافتراء فحسب، بل هم من قتل العديد من الأنبياء. فمن المعروف أن سيدنا زكريا وابنه سيدنا يحيى عليهما السلام هما نبيان مظلومان قتلا على يد اليهود.

يخبر اللّه عز وجل عن حال اليهود هذه في القرآن الكريم بقوله:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء، ١٥٥)

ويخبر اللَّه عز وجل عن اليهود في سورة الفاتحة فيقول فيهم:



﴿...**المغضوب عليهم**﴾

أي الذين نالوا الغضب الإلهي!.»

مفهوم الحياة الآخرة

لا يوجد في التوراة معلومات واضحة صريحة حول الآخرة. أما في النسخ التالية، فإنها تحتوي على عقيدة الإيمان بدخول العاصين النار، ودخول من يراعي أوامر الدين إلى الجنة. ولكن، بنظرنا إلى التاريخ اليهودي، فإن من غير الممكن أن نجد في المراحل الأولى ما كان يحتوي على مفهوم الآخرة. فما يذكر في التوراة من عبارات حول من يموت هي: «شبع من أيامه ونام إلى جوار أجداده». (التكوين، ٤٧/ ٣٠؛ التسنية، ٣١/ ١٦)

ومن ثم عندما بدأ النقاش بين بني إسرائيل حول «ماذا يحل بمن يموت؟» تثبت لديهم عقيدة ذهاب الأموات إلى دار الموت «الشيول».

إن المرة الأولى التي تم فيها الحديث بشكل واضح وصريح حول البعث بعد الموت ومفهوم المكافأة والعقاب في الديانة اليهودية كان في كتاب دانيال ١٢/ ٢.

وكان دانيال يعيش في مدينة بابل في الفترة المعروفة بفترة الأسر ببابل (٥٨٦ - ٥٣٨ قبل الميلاد)

إن العقائد التي تتعلق بالآخرة في الديانة اليهودية هي بشكل



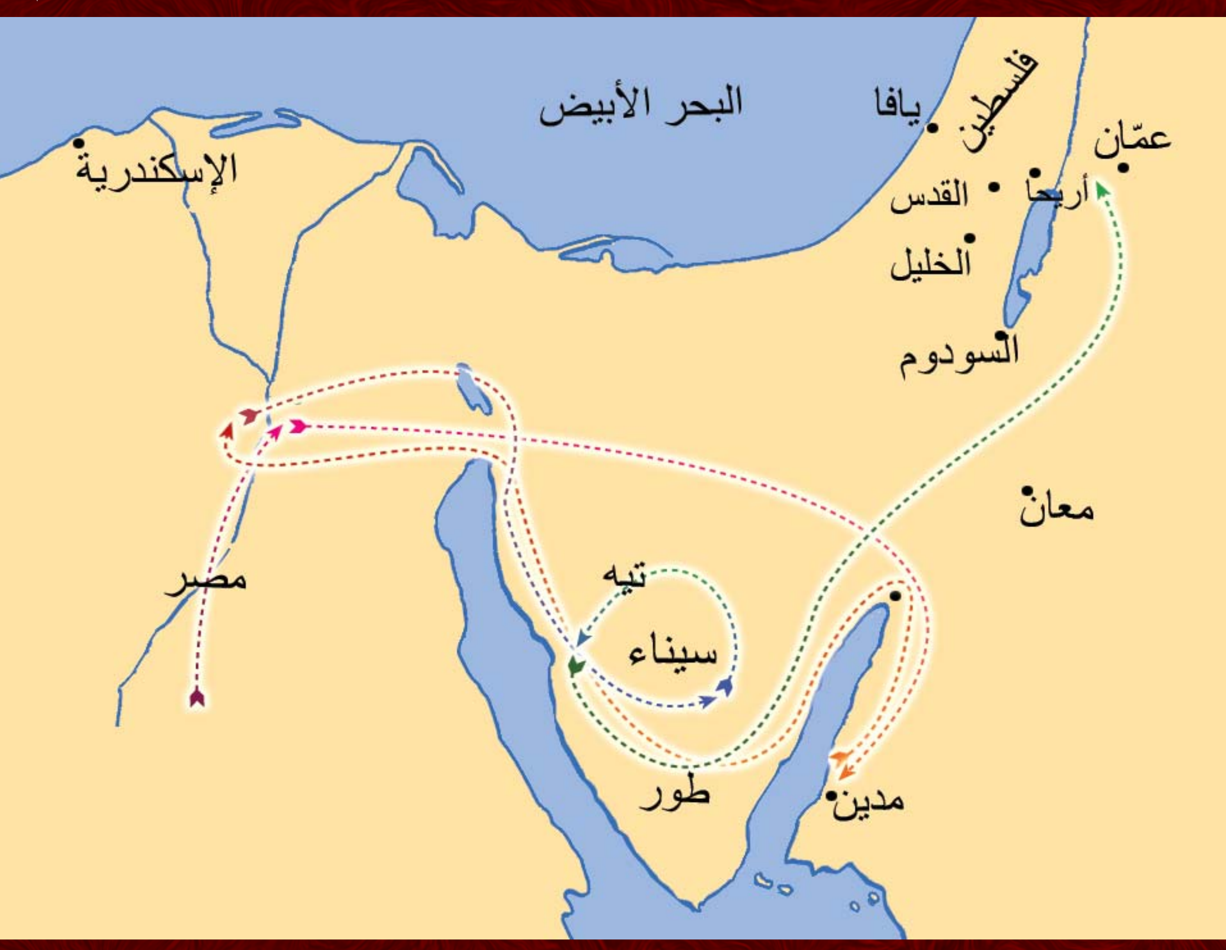
أكبر موجودة في التلمود. فبحسب ما فيه؛ سيبقى بنو إسرائيل بشكل دائم في الجنة.

أما المذنب من بني إسرائيل فإنه سيدخل النار مدة اثني عَشَرَ شهراً فقط، ومن ثم سيدخل الجنة هو الآخر.

أما من ليس بيهودي، فإنهم جميعاً سيدخلون النار، وسينالون عذابها بشكل أبدي. لأنه بالنظر إلى اليهودية من نظرة خاصة فإننا نرى أنهم يعتبرون غير اليهود وثنيين. (روش ها-شانا، ١٧أ)



سيدنا موسى وهارون عليهما السلام



الفهرس







